


الدكتور نوري حمودي القيسي
جامعة بغداد
كلية الآداب

# الأديب والالتزام

ساعدت جامعة بغداد على نشره


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الدكتور نوري حمودي القيسي

الاستاذ في كلية الاداب / جامعة بغداد




ساعدت جامعة بغداد على نشره

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

١٤٠٠هـ ـ ١٩٧٩م

# الاهــداء

اليكِ أمتي

يا صوتَ كل حقيقة

ورمزَ كل وفاء

وروعة كل ابداع

تحديتِ بجرأتك كل اشكال التحدي

فكنتِ صورة واضحة من صور الرفض

وشكلاً متميزاً من اشكال الانتصار

وقدرة فذةً من قدرات التجاوز

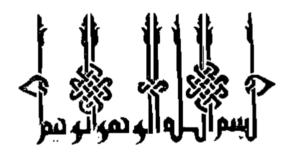
ووقفتِ في وجه كل الخانعين

ترسمين لوحة التضحية

وتخطين سفر الخلود

وتكتبين سطور الجهاد

فاليك هذا العمل الذي ظلت ملامحه تنطلق
من لحظات صراعك ، وتتحدد في اطار اعمالك
الرائعة الرائدة ...



# تمهيــد

تخوض الامة العربية صراعا مريرا منذ فترة طويلة ، وقد تعددت اوجـه هذا الصراع واختلفت اساليبه ، ولـكنه ظل في حقيقته يمثل المحاولات التي كانت تقف في وجه تقدمها وتحول دون استكمال عناصر وجودها • ولابد ان يأخذ ابناء الامة دورهم في النهوض بمستلزمات الدفاع والتحصين والتوجيه من أجل ايقاف مسيرة التحديات ، وانهاء عوامل الاستيطان ووضع العلامات السليمة لبنـاء المستقبل الذي يعتمـد الموروث الانساني المشـرق قاعـدة، والحاضر المنظور اساسا • ان بناء الانسان وبناء فكره وعقيدتـه يسـتلزم اعداده اعدادا انسانيا وفكريا ولابد ان يصاحب ذلك تثقيفه بتاريـخ الامـة وبيان مواضع انسانيتها ، وتأكيد مواقفها الخيّـرة وابراز قوتها في المواجهـة وتقييم المراحل التي استطاعت تجاوزها • وتثقيفه بلغتها وادبها وحضـارتها وما قدمته عبر تاريخها الطويل من امجاد ، وسجلته من محامد وفضائل وتركته في اثار الامم الاخرى من ابداعات •

ان هذا التوجه لا يمكن ان يؤدي مهمته الا من خـلال الوقوف عـلى النماذج المختارة فالقومية العربية تعتمد اللغة والتاريخ والعقيـدة والمصـالح المشتركة والاحساس المشترك ، وان الاهتمام باللغة يعني الاهتمـام بادارة التفكير ووسيلة التعبير وان الحرص على سلامتها يعني الحرص على سـلامة اللسان الذي ظل جسرا من جسور البناء الثقـافي للامـة ، وكذلك الامـر

بالنسبة للتاريخ الذي يعد اهتماما بتجارب الامة التي خاضتها فاصبحت جزء من وجودها وضميرها وان الملامح الانسانية التي سجلت من خلال المسيرة الطويلة للامة تشكل المرتكزات الحضارية للبناء والمنطلقات الاساسية في اعادة التقييم .

اما الادب فيشكل الجانب الفكري والعاطفي والوجداني ، الى جانب الصورة التي كان يعكسها من خلال المعاناة ، لان بعض نصوصه كانت تعني تجارب الحياة ، واحوال الامة ، وصور مراحلها المختلفة ..

ان موضوعات الكتاب تمثل خطا جديدا في المعالجة ، وصورة غير تقليدية في الكتابة لانني حاولت من خلالها استقراء الشوامخ ، والوقوف عند الشواهد الايجابية لتكون قاعدة لبناء ادب جديد ، وكتابة تاريخ ادبي ينسجم مع تطلعات الامة وهي تواجه التحدي ، ويتفق مع طموحات الادباء وهم يمارسون عملهم الادبي ، فالالتزام اصبح يعني توظيف الادب في خدمة الجماهير ، ووضع معطياته ضمن موضع الممارسة التي يستطيع من خلالها الاديب ان يخلد بطولة هذه الجماهير ، ويرسم طموحها في تحقيق الاهداف التي تسعى اليها ، وقد ادركت الجماهير سلامة هذا الاتجاه فخلدت ادباءها ووضعتهم في المواضع التي يستحقونها ..

ان الكتاب لا يعني مناقشة مفهوم الالتزام ، ولا يحاول ان يدخل في مداخل تفقد الادب قدرته وتجرده من خصائصه ، لان الصور التي عالجها تعطي الدليل على الصورة التي يجب ان يكون عليها ، وأن المرحلة التاريخية تفرض هذا المفهوم وان الادب الذي يبتعد في ادائه ومحتواه عن طموح المجموعة البشرية التي يعبر عنها ادب لا مكان له ، وانما يدخل في اطار الاحساس الفردي الذي تجاوزته الجماهير منذ فترة طويلة .

**بغداد : شباط ١٩٧٨**

**الدكتور نوري حمودي علي القيسي**
**استاذ في كلية الاداب ـ جامعة بغداد**
الامين العام للمجمع العلمي العراقي

# الانسان والقضية

منذ أن وجد الانسان على هذه الارض ، ومنذ ان ادرك باحساسه وجوده حاجته الى الاستيطان ، وحاجته الى الوجود ، ادرك انه قادر على تأمين لوازم الاستيطان ، وقادر على تحديد اسباب الوجود وقد استطاع هذا المخلوق عبر حياته الطويلة ان يجتاز مصاعب ، ويمّر في امتحانات قاسية ، ويحقق من خلالها مطامح نسبية ، ربما كانت مرحلتها محققة لرغباته ، ولكنه أدرك بعد فترة ، عجزها عن تحقيق كل الرغبات ، وقد عالج علماء الاجتماع واصحاب مدارس علم النفس ، والتاريخ كثيرا من هذه الجوانب وبقيت مهمة اساسية ربما كان البحث يتجاوزها ، والدراسات تمر عليها مرورا سريعا •• وربما كانت هذه المهمة اساسا في تحريك الانسان ، ودفعه في سبيل الوصول الى الذروة التي يتوق الوصول اليها ، ويقدم من اجلها أغلى التضحيات ، فيضرب بذلك مثلا للبطولة والفداء •• هذه المهمة هي التزام الانسان بما يتحدث عنه ، واستيعابه لابعاد ما يدور في نفسه ، وايمانه المطلق بالفكرة التي أصبحت جزء من حياته ••

المهمة التي أريد ان احددها يسميها المعاصرون القضية ، واسميّها استيعاب القضية والدفاع عنها ، واستكمال وجودها ولا أزيد في تسميتي شيئا الى ما اتفق عليه المعاصرون ، ولكنني حاولت أن أفصل المهمة ، وامنحها من القدرة ما يجعلها واضحة شاملة ، ومن الشمول ما يؤكد مطابقتها لما يمر به الانسان العربي ، والانسان العالمي •• وربما كان الانسان العربي أشد حاجة اليها وأكثر التصاقا بأهمية استيعابها •

الانسان في كل حياته لا يستطيع ان يتحرك الا اذا ادرك موقعه وعرف ابعاد وجوده ، وأستطاع ان يحدد البعد الذي يمكن ان يتم في اطاره التحرك ، ليستطيع ان يكون على صلة بالخط المرسوم والمسار المرتقب للقطر المكاني والزماني لواقعه ومستقبله ، حاضره وماضيه ، ولهذا اصبح الانسان الواعي لوجوده ، العارف بمعطيات هذا الوجود اقدر من غيره على استيعاب الامور ، واستبطان الاحداث ، واستكشاف القضايا التي لاتعرف تنائجها من مقدماتها احيانا .

هذا الانسان يتحرك في دراية ، ويقف مجابها تحميه عقيدة ، وتثبته معرفة ، وتزوده دراسات اكتسبها من خلال التعامل الحقيقي مع ابعاد القضية ولهذا كانت حركته اكثر توفيقا ، ودفاعه أشدّ اخلاصا ، وحديثه أشمل موضوعية من أي انسان أخر ، وهؤلاء الناس الذين استوعبوا فلسفة الواقع ، وتلمسوا بوأطنه عن دراسات وعاشوا في ظلاله عيشة المتأملين هم اصحاب القضية وهم الفئة التي كتب عليها ان تعود وتوجه وتنجز وترشد وتكشف .. وهم الفئة التي اصبحت قادرة على الدفاع في حالة الهجوم ، والتضحية في مواضع الفداء ، والاستبسال في حالة التراجع ... وهي تنطلق من كل موقف من الايمان المطلق والادارك الحقيقي والاستيعاب الواعي لكل توجه ولكل تحرك . ومن الطبيعي ان يكون تعبيرها اصدق ، ووقوفها اكثر ثباتا ...

ان هذه الفكرة التي جعلتها مقدمة للبحث تمثل قاعدة من قواعد التفكير وسندا متينا من اسانيد البناء الحقيقي لكل امة ، لان الابناء الذى ينشؤون وقد ادركوا حقيقة وجودهم عن طريق الارشاد السليم والتوجيه القومي الواعي يستطيعون أن يوفروا لهم ولامتهم ابعادا زمنية كبيرة ، ويوفروا لانفسهم مقادير كبيرة من التجارب الانسانية التي تجاوزتها ، واصبحت اوليات بسيطة في اعراف المجربين ، لان الامم النامية تدرك قيمة الزمن ،

وتدرك قيمة التجاوز الذى اصبح من المهمات الاساسية في البناء ، لان هذه الامم لا تريد ان تعود الى الطريق من البداية ، ولاتريد ان تقطع المسيرة التي قطعته المسيرات من المراحل الاولى • آن مسيرة امتنا وطريق وجودها اغناها بالتجربة ، واثرى تاريخها بالنماذج ومهد امام اجيالها ما جعلها غنية في الانطلاق والتطور •

ولابد ان تتعانق التجربة الفتية والايمان بالقضية في اذهان الموجهين والمفكريين ليشدوا بين الواقع والماضي لوضعهما في خدمة المستقبل ، وتطوير الحاضر بما يناسب التأهيل للنهوض بهذه المهمة •

ان منطلقات الواقع المعاصر في كل ركن من اركانه تنبعث من العلاقة الجدلية بين ثراء التجربة واستيعاب الايمان وان التأكيد على هذا الجانب سوف يغني الفكر العربي والمرحلة العربية بمعطيات جديدة تؤهله لاجتياز كثير من مراحله التي كان يجب عليه ان يتخطاها ، فالامة الان تقف في حدّة الصراع ، وتقف على عتبات الشموخ بعد ان استفاقت وهي تحمل في طواياها من الفكر الحضارى والتراث الانساني ما يحقق لها الطموح ويؤكد لها ثبات المسيرة •• وسوف تظل هذه الامة بانسانها الذى كان ثمرة من ثمار الحضارة مصدر عطاء ومصدر وفاء لكل العناصر التي أمدته باسباب الوجود ، وأهلته لان يكون جسرا من جسور التراث البشرى عبر المسيرة الطويلة التي قطعتها الانسانية •••

ان الانسان العربي هو صاحب القضية في وطننا الكبير وهو الذى يملك القدرة على استيعابها لانه يعيش في اطارها ويتحرك من خلالها ويرصد كل السلبيات التي استهدفت وجودها ، ولايمكن لانسان آخر أن يحتل موقعه أو يقف موقفه الا من خلال التعاطف الانساني المشابه الذى عانته الشعوب الاخرى ، وقد ظل هذا التعاطف مجالا خيرا ، وساعدا قويا من

مجالات الانتصار وسواعد التوفيق في دفع ابعاد القضية ، وترسيخ أحقية وجودها ، وتوعية الاخرين الذين ابتعدوا عن ادراكها . كان الانسان ابنا ملازما للقضية وكان ادراكه كفيلا بترسيخ وجودها ، واحساسه باعثا من بواعث استقطابها والدفاع عنها ، واشعار الاخرين بسلامة انتصارها والالتزام بما تعانيه من مضايقات .

وكلما استطاع هذا الانسان ان يكون اقوى من الاستيعاب واقدر على الدفاع كانت القضية أصلب في مواضع النقاش ، وكان الاخرون اكثر اندفاعا في تأمين انجاح المطالبة بها .

ولعل قضية فلسطين والخليج العربي والمؤامرة في لبنان ومسألة النفط ومستقبل المنطقة العربية ومن يقف وراءها تمثل النماذج الحادة في عالمنا العربي ، باعتبارها المحرك الاساس في الاحساس القومي ، والباعث الاكيد في استقطاب المشاعر القومية في عالمنا الحالي ، ولو رجعنا الى النماذج البطولية التي تقدم فوق الساحة العربية من خلال الاعمال الفدائية الجريئة وحرب التحرير التي يخوضها الشعب العربي في الخليج والقوى الوطنية والتقدمية وفصائل المقاومة لوجدنا ان جل هذه النماذج التي ترسم طريق التحرير هي نماذج مؤمنة ونماذج مستوعبة ونماذج قادرة على التمثل والعطاء وان هذه النماذج على الرغم من كل الاساليب الارهابية المسلطة والقوى الاستعمارية التي تساهم في تحقيق المؤامرة استطاعت ان تفرض وجودها وتحقق قدرتها وتسمع العالم صوتها وتضطره الى الاعتراف بها قوة وطنية وقدرة انسانية ووجودا قوميا لا يمكن تجاهله .

ان هذا الانسان المؤمن الملتزم بابعاد القضية هو القادر على استخدام الاسلوب الذى يراه . والقادر على تحديد المواجهة التي تستطيع ان تحقق له دعما اكبر في انجاز المهمة التي تفرضها طبيعة القضية .

ولو اندفعت الجماهير العربية بوطنها الكبير نحو استيعاب المهمة بالشكل الذى استوعبته القوى الرابضة فوق الساحة والمؤمنة بحق الامة لكانت الصورة غير الصورة ، ولكان الامر غير الامر ولاصبحت الاحداث تتحرك في اطار غير الاطار الذى تحركت فيه .

وفي هذا الموضوع تكمن عملية التوجيه وتتضح اهميته وتبرز ضرورة الالتزام شرحا وتوجيها وتوعية لتكون هذه الجماهير قادرة على معرفة مواقعها الحقيقية ، وقادرة على ادراك دورها في المعركة التي تقرر مسيرها وتحدد وجودها وتوجه مسيرتها . ومن هنا كان دور المثقفين في الانطلاق وكان دور المفكرين في الالتزام وكان دورهم في رسم الطريق لهذه الجماهير التي بدأت تتحسس طعم الحرية التي سلبت منها عصوراً طويلة . أن غرس اسس الاحاسيس باستيعاب القضية التي تحيط بالانسان العربي ، وتفتيح اذهان الجماهير الى المعاني التي تلوح في مفهوم هذه الاحاسيس في المراحل الاولى وتبصير الابعاد التي يمكن ان تتحق من وراء هذه التعبئة الفكرية توفر على الانسان العربي جهودا يمكن استخدامها في منطلقات اخرى تعود على الامة بالنفع .

ان المهمة لا تنحصر في اطار ولا تتحدد في مفهوم فالطالب الذى يدرك مهمته بعمق ويستوعب مرحلته بتبصر يستطيع ان يقدم في مجاله ما يعجز عن تقديمه الطالب الاخر ويستطيع ان يبدع في مراحل نضوجه العلمي ابداعا يقصر دونه الاخرون من الذين يلفهم الضياع وتفزعهم الاوهام وتستعبد وجودهم الوساوس .

ومثل الطالب الفلاح والموظف والعامل والمهندس والطبيب وكل الحرفيين الذين كتب عليهم ان يخوضوا تجربة الحياة ويساهموا في مجال الابداع ويندفعوا في سلم التطور .

فالفلاح الذي يتعامل مع ارضه وفق مفاهيم محددة تنطلق من ايمانه بالارض والغلة والشعور بالمسؤولية يستطيع هذا الفلاح ان يقدم ثمرا يكسب جهدا ويحقق نصرا ويستطيع ان يطور عمليته الزراعية ، ويطور قدرته في الوصول الى المحصول الذي يدر عليه وعلى مجتمعه بما يحقق لهما الرفاه والتقدم .

ان الانسان بكل اشكاله يجب ان يستوعب هذا المفهوم ويدرك ما يترتب عليه من مهمات وان هذا الاستيعاب سيحقق له الوجود الذي يرتضيه لنفسه ويحقق له الدور الذي كتب عليه ان يمرّ به في هذه الحياة .

وأن الانسان الذي لا يدرك هذه المهمة لا يترك فوق هذه الارض مايمكن ان يعود عليه بالذكر ، وان الانسان الخالد في هذا العالم هو الانسان الذي يترك للاخرين ما يمكن ان يسعدهم ويقرب اليهم المسافات التي كان يجب عليهم قطعها ، وعندها يستحق الحياة ويستحق الذكر .. ولا يستطيع الانسان ان يحقق هذا الطموح اذا لم يكن متمكنا من تمثل الواقع تمثلا يؤهله لتحديد الموقع وتثبيت المركز واختيار المناسبة ، وكلها تتحدد من القضيتين اللتين سبق لنا ان وقفنا عندهما حينما اشرنا الى التجربة الغنية التي قدمها التراث والتعامل مع الايمان بالقضية ، فهما اساسان من اسس الوجود ومبدآن من مبادىء التعامل وبدونهما يضيع الانسان ويفقد قدرته ويتبدد وجوده فوق البقعة التي يعيش فوقها ضياعا وحيرة .

# الالتزام والانسان والقضايا المصيرية

يأخذ الاديب مكانته في مجتمعه من خلال موقعه المناسب الذى تضعه فيه قدرته على التعبير ، واحساسه بهذا التعبير عن المشاعر التي تختلج في نفوس ابناء قومه ، ومدى تعاطفه مع طموح الجماهير التي استطاعت ان تحدد موقفها من خلال تجربتها الطويلة ، وفي حدود هذه المواقع يستطيع الاديب ان يأخذ موقعا ويحدد موقفا ويبدأ تحركا لتحقيق ذلك الطموح ، وتأكيد الصلة التي تشد بينه وبين هذه الجماهير وقد استطاعت الحياة الادبية عبر مسيرتها الطويلة ان تحدد المواقف البطولية لاولئك الادباء الذين التزموا بقضايا اممهم ، وقدموا في سبيل هذه القضايا اعزّ ما يملكون ، وقد ظل نتاج هؤلاء الادباء يرسم صور الطموح ، ويحدد امارات الامل الذى كانت ترسمه اممهم ... وبقيت النظرة السامية اليهم والى نتاجهم تحتل المكانة المرموقة ...

وقد حفل ادبنا العربي بنماذج كثيرة من هؤلاء الادباء ابتداء من لقيط ابن يعمر الذى التزم بقضية قومه فارسل صرخته الى اياد يحذرهم من جيش كسرى فكان جزاؤه قطع لسانه وقتله .. وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة شعراء الدعوة الاسلامية الذين وضعوا شعرهم في خدمة العقيدة دفاعا عن القضية ، وكان شعراء الفرق الاسلامية ثابت قطنة وعبيدالله

بن قيس الرقيات ، والطرماح وعبيدالله بن الحر وعمران بن حطان ودعبل الخزاعي ، وكانت قوافل الشعراء والادباء الذين حرصوا حرصا اكيدا على التزامهم ، ونافحوا عن معتقداتهم ، ووقفوا بصلابة واقتدار امام كل تحدّ او مجابهة يدافعون عن الدولة التي آمنوا بقيامها ، والدعوة التي سلّموا باحقينها والفرقة التي اعتقدوا بسلامة فكرتها ، وكانت لهم مواقف . ومواقع ينطلقون منها الى الدفاع، ويتحركون الى المجابهة، يتخذون من افكارها حججا ، ومن مبادئها ادلة وبراهين ، يبطلون بموجبها حجج الاخرين ، وينزعون بمقتضاها الثقة من الخصوم ، ولم نجد بينهم من تخلى عن دعوته ، او تنازل عن عقيدته ، او ساوم في سبيل مطامحه ، فظل ادبهم ادب دعوة ، وشعرهم شعر عقيدة، وحياتهم نموذج ابطال. لانهم ادركوا اسباب وجودهم، وحددوا خطوط تحركهم ، وامنو ايمانا مطلقا بعدالة قضيتهم ... وظلت مواكب الشعر والادب تزخر بالاديب ( صاحب القضية ) ، وظلت جحافل الامة تشير الى هؤلاء باصابع الاعتزاز واشارات التقدير لانهم حملوا الراية ، وتحملوا الاعباء ، وادركوا الجوهر وتقدموا الصفوف ، وكانت اصوات ابي تمام والمتنبي والشريف الرضي وابي فراس الحمداني و غيرهم فوق الارض العربية تمثل في بعض صيحاتها اصوات الالتزام الحقيقي ولكنها كانت تضيع في خضّم الاحداث ، وتنهار فوق شموخ المطامح وتنتهي عند حدود النوازع الذاتية ، لان القضية التي كانوا يؤمنون بها لم تتركز في اذهانهم حقيقية متكاملة ، ولان استيعابهم لابعادها لم يكن استيعابا يؤهلهم للتمسك بها او الدفاع عنها كما كان يفعل شعراء العقيدة الذين المحت الى ذكراهم في مقدمة الموضوع . وتوالت العصور وتعاقبت الاحداث وهي تلف الامة بجدار الصمت الرهيب ، وتلقى بظلال اقدارها المثقلة فوق كل قطر من اقطارها . ولم تعدم الامة من الاصوات التي كانت ترتفع في القطر المصرى تارة والقطر السورى تارة وفي القطر العراقي اخرى ، وكانت اصداء ذلك تتردد في

الشمال الافريقي العربي الذى اطبقت عليه جحافل التسلط • فعانى شعبه من العنت ما ارهقه ، ومن التقتيل ما اعجز كاهل حاكميه ولكن اديب القضية ظل يجد في قضيته الغاية المثلى ، فكان تعبيره عنها تعبير العاشقين ، ومعالجته لاحداثها معالجة القادرين وتحمله لما تفرضه عليه من جرائر ، تحمل القانعين•

ولابد ان تأخذ مهمة الاديب المعاصر ابعاد المهمة المعاصرة لانها اصبحت اشدّ التصاقا بحياة الامة ، وفي تحديد اطرافها تتحدد وظيفة الادب باشكاله، وترسم لوحاته وفنونه من خلال الصورة ، فالقصة هي قصة القضية التي تحدد ملامح شخوصها وابعاد حركتها وعناصر تكوينها ، وما يترتب عليها وماتنتهي اليه والمقالة هي مقالة القضية التي تعطى قدرة حركتها وتطور مفهومها وتصور تقدمها وما يبتغي ان يصنعه القارىء لكي يتحدث به والقصيدة اصبحت قصيدة القضية التي توحي باحساسها وتعالج بايجابية واضحة وسائل نجاحها وتقوى الجانب العاطفي والعقلي في الدفاع عنها ومثل القصة والمقالة والقصيدة المسرحية والاقصوصة والبحث وكل نتاج ادبي يساهم في اعداده هذا الاديب • الذى سخّر الادب لمصلحة قضيته ووظفه لشرحها وايضاحها ورسم خطوطها وهي مهمة مباشرة تساهم في دفع الموضوع دفعا وتهيء له فرص الرواج والتقدم ليصبح سلاحا في العمل الموجه مستخدما الحقائق الموضوعية ومنتزعا الصور التي تؤكد سلامة الدفاع وتمنح العمل الادبي قوة المطالبة لكسب الرأى العام العالمي •• وبذلك تصبح هذه السمة سمة متميزة تختلف في جوهرها عن صور الادب الضائعة ، لاعتماده الحقائق والتزامه بالاهداف ، وتعبيره عن مشاعر الجماهير الكبيرة التي ادركت مصلحتها وعرفت مسيرتها واتخذت لنفسها الموقع المناسب ، وحددت الموقف الذى يتفق مع مصلحتها الاساسية •

لقد آن للادباء ان يجعلوا القضايا الحادة محاور اعمال ادبية عظيمة، وآن لهم ان يقدموا للاجيال التي تراقب الاستسلام والخنوع والتصفية

صور الرفض والمقاومة والفداء • وهي صور ترسم فوق الارض العربية كل يوم ، وتمثل واقعا محسوسا في كل مدينة وقرية ومستعمرة ، شـخوصها ابطال حقيقيون وحدودها ازمنة محددة واماكن معروفة ، وافكارها اصـوات مسجلة واحاديث مسموعة • ان الاديب المعاصر لا يحتاج الى الخيال ليستمد منه الصورة ، ولا يحتاج الى المعجزة ليستل منها الفكرة ولا يحتاج الى البعد الزماني او المكاني لان الزمان البطل الحقيقي والمكان تحدده الارادة العربية البطلـة •

ان الاديب صاحب القضية يملك المقومات الحقيقية لادبه ، ويملـك الوسائل الاساسية المبدعة لاخراجه الاخراج المناسب ، ويملك القدرة على استيعاب الفكرة التي تمهد لعمله الادبي الانطلاق والبقاء والاسـتمرار • وهذا جانب موضوعي اصبحت الاستجابة له في عصرنا استجابة ملموسة ، لانه عصر الشعوب التي وجدت في حياتها الجديدة قدرة على التعبير ، ولمست في معركتها الانسانية بعدا من ابعاد التمثيل الحياتي لما تطمح اليه في البنـاء والتطوير والتنمية ، وقد فرضت عليها هذه الحياة اوضاعا جديـدة ، وخلقت انماطا سلوكية واجتماعية مستحدثة ، وقد ادى هذا الخلق والفرض الى نشوء علاقات واستحداث صلات مختلفة من حيث الارتباط والتعـاطف والتحديد والتحرك ولابد ان تكون هذه الاوضاع مدعاة لتحرك الكيـان العاطفي ، ووسيلة في التحديد ، وتحرك الوجدان الانساني ومقدرته في التعبير، وهو يراقب الظواهر ويتطلع الى التغيير وينطلق في رسم المستقبل القائم متخذا من صور الماضي الانساني المشرق اساسا لوضع اسس الحاضر المشرق ومستمداً منها آفاق التصور المستقبلي الذى يشد الامة بماضيها ويحقق لها واقعـا افضل ومستقبلا اكثر اشراقاً •

ان الانسان في واقعنا الحالي لا يشكل القوة الدافعة منفردا ، ولايمثل الابداع الفني معزولا فهو جـزء من امـة ، وان هذه الامـة اجهدت نفسها في

تقديم ما استطاعت ان تقدم لهذا الانسان ليأخذ دوره ومكانته ، وليستطيع ان يحقق لها ما كانت تسمو اليه وتطمع في تحقيقه ، الى جانب النشوة التي يستطيع بواسطتها تجاوز الاوضاع النفسية التي تمر به وهو يقدم لوحات ابداعه ، ويتخطى عتبات المستوى الذى كان عليه الاخرون ، ان الابداع الذى يقدمه الانسان هو صور الاخرين والوانهم وانغامهم وزوياهم ، وانه بهذا التعبير لا يخرج عن اطار الجماعة ولا يبتعد عن هموم الفئة التي تعيش معه او ينتمي اليها ، ولهذا كان وجوده بينهم وجودا طبيعيا وتعبيره عن همومهم وتطلعاتهم تعبيرا انسانيا محسوسا ، وان الابداع الذى كتب عليه ان يكون لم يكن الا انفعالا حددته لهذا الانسان علاقته العضوية بالجماعة التي ينتمي اليها .. فالصورة الادبية او القطعة الفنية ـ مهما كانت ـ هي الكيان الذى يؤدى دوره في الحياة للكشف عن مجاميع الحقائق التي تعكس صور الحياة ووسائل علاقتها بالانسان . وكلما كانت الوسائل قوية والاحاسيس مشتركة والمشاعر متفقة كانت الصور معبرة والتأثيرات متميزة والانفعالات واضحة ومؤثرة .

والاديب الذى يدرك مهمة عمله الادبي ، ويتحمس واقعه الانساني باعتباره عضوا في الجماعة الانسانية اقدر على استيعاب مشاكل الانسان ، واوفى في استكمال الحدود التي تلم المسافة المكانية المحيطة بهذه المشاكل، وهي في كل مقاديرها وطموحها ، ومضامينها وتأملاتها ، مشاكل مستوحاة من الواقع الجديد الذى حدده له العصر ، وانبثق عنه تجمع القدرات الانسانية التي ساهمت في ايجاد الاوضاع المنتزعة من الواقع القديم الذى تخبطت فيه النوازع الانسانية ، وتاهت في مجاهله الاعمال الخلاقة ، واستطاع هذا الانسان ان يقف بكل شموخ يتحدى الاوضاع المتخلفة ، ويتجاوز البعد الزماني لواقعه المرير ، ويرسم المستقبل .. وقد استطاعت اقلام بعض الادباء ان تعالج الموضوعات التي كان يمر بها معالجة متأنية ومقتدرة

ومستوعبة من خلال اعمال ادبية جليلة رافقت التطور • ودفعته الى المستوى الفني والواقعي ، وقد تمكن هذا النفر من الادباء ان يجدوا لانفسهم من المواقع ما يعزز ثقتهم بالمجموع ، ويقوى ايمانهم بالنهج الادبي السليم الذى اتخذوه طريقا وآمنوا بالتعبير عن معطياته ادبا خلاقا •

ان الصورة الادبية التي كان الاديب يعالجها لم تكن مقتصرة على جانب واحد من جوانب المجتمع الانساني ، ولم يتحدد موضوعها من نقطة التألق التي تمثل الباعث الحقيقي لمتابعة الظاهرة وانما كانت القدرة تتجلى من خلال التعامل الحقيقي الذى يستوحيه هذا الاديب من مجمل الاحداث التي ترافقه وتحيط به وتسعى اليه ، فهو يتألم لما يصادفه ويشفق اذا استدعته دواعي الاشفاق ويتفاعل معهما بما يملك من احاسيس وهو بعد كل هذا يتعامل مع الحياة في اطار التفاعل فيدخل فيها مصورا ومعبرا ومعالجا ، ويصف ما يتعالى فيها باقتدار وتمكن ، ويحلل اجزاءها تحليلا يوحي باقتداره ، ويدل على متابعته ويكشف عن كل جانب يمكن ان يستثمر في ابراز ظاهرة ، او تقوية حجة ، او تأكيد فكرة ، وهو باستجابته هذه يرضي طموحه ويعبر عن مشاعر الاخرين الذين كتب عليهم ان يكونوا في الصفوف الاولى تفكيرا او تضحية او فداء • وقد يصل وهو في ذروة العمل الادبي الىمرحلة الابداع الذى استطاع الوصول اليه بعد معاناة حادّة وادركه بعد معايشة حقيقية وحدد قسماته منخلال التعاطفالواعي •• وبهذا يتم التوفيق بين العمل الادبي الخلاق والتعبير الانساني الرائع ، وعندها يمكن لهذا العمل ان يخلد ويمكن لصاحبه ان يكون في عداد الابطال الذين وضعوا بصماتهم فوق صفحات المجد وهي تخط اعمال شعوبهم بتمكن واعتزاز وتفوق ••

لقد اصبح من البديهيات المعروفة في العلم الحديث ان العملية الادبية المتكاملة لا يمكن ان تتم الا من خلال الالتزام الواعي بالشروط التي يمليها

العمل الادبي بحد ذاته وان هذه الشروط تفرضها قيود اكيدة ، وتحددها قواعد ثابتة تنبثق من التصميم على معالجة الصور والاقتدار على وضع اطار بنائها وتحديد ابعاد شكلها وتوضيح احوال فكرتها واختيار اسلوب تعبيرها • وان هذه القواعد لايمكن ان تثبت الا اذا توافقت مع احساس الاديب بالمدى الذى تؤديه العملية متكاملة والتمكن من وضع دوافعها الداخلية موضع التقويم والتحكيم • فاذا استطاع الاديب ان يتابع عمله من خلال تجربته وتجارب الاخرين ، وان يدخل هذا العمل في مضمون التعبير وان يرتاد الحقائق وهي في نفوس الاخرين ملامح وافكاراستطاع الوقوف على اعمال انسانية جليلة واستطاع ان يضيء جوانب كثيرة من دروس الواقع لتكون مشاعل انارة تقتفيها الاقلام الناشئة ، ورايات انطلاق تتابعها الافكار الحرة لتزدهر آمال العمل الادبي الملتزم ، وتتفتح بوارق الانتصار الخيرة وهي تخط صفحات المهمات الاساسية ، وتعبر عن الطموح الانساني البناء في القدرة والتطوير •

ولم يعد الحديث عن الالتزام وما يثيره من نقاش ، والحرية وما تحدثه من احتدام جدال هو الحديث الذى اريد ان اقف عليه او اتطرق له ووفق الشكل الذى كانت تتطرق اليه أو تتحدث عنه تلك الاحاديث • لانه ـ كما يبدو ـ اخذ شكلا جدليا مستعصياً حتى ابتعد في منطقه ، واغرب في حججه وادخل في حواره اصحاب الجبر والاختيار وأكدّت ادلة كل صنف واستخدمت براهينهم استخداما جدليا سقيما ، واستعين باقيسة المتخاصمين في اثبات حجج المعاصرين • ثم امتدت ابعاد الاحتدام الى موضوعات اخرى ربما كانت بعيدة كل البعد عن دائرة الاختصام ، على ان المنطق كان يتداخل في مضامين الرسالة التي يجب ان يؤديها الاديب ، ويتحمل عبئها الفنان ، وقد استقر الرأى على ان تكون رسالة الادب الدفاع عن مصالح المجتمع ، والالتزام بقضاياه ، والخوض في غمار المشاكل التي يعانيها والتعبير عن

المعطيات الجديدة على ان يراعى في ذلك ، التحرك وفق الاعراف السائدة لان هذا التحرك هو الذى يحدد قيمة الادب ويحقق لوسائله النجاح ، ويمنح رسالته البعد الانساني لانه توفيق بين فهم متعادل ، وتعبير عن وحدة مرتبطة .

ان الالتزام لا يعني اتخاذ الموقف المحدد لمعالجة القضايا الحادة فقط او الاقتصار في الوقوف على الموضوعات التي سبق الحديث عنها وانما يعني الالتزام باللغة باعتبارها وعاء الثقافة ومحور استمرارها باصواتها واساليبها، بنحوها ودلالاتها ، بمعجمها ومفرداتها بكل ما تحمله من معاني لانها تمثل النظام الاساسي في وجود الروابط ، والقانون المحكم في البنية التنظيمية لتفاهم الافراد وان اى خروج عن هذا او تحدّ له يشكل خروجا على مرتكز اساسي من مرتكزات النظام في البناء .. وضياعا لقاعدة متينة من قواعد الوجود .. ان الالتزام باللغة يفرض على الاديب الحفاظ على قواعدها فلا يخرج على شروطها ولا يغير في حروفها ولا يقطع من اصواتها ولا يستخدم من صيغها مالم يكن له اصل في اصولها . ولا يلحق في قواعدها ولا يغير دلالات كلماتها تغييرا يفقدها قيمتها او يضيّع اصالتها ، ولا يقتصر الالتزام على اللغة وانما يمتد الى مراعاة المقاييس المستخدمة في التقويم الاجتماعي فيستخدم فيها ما يراه مناسبا ، وينتقي ما كان متفقا ويلتزم بما هو مألوف في بيئته . مستمدا من خصائص واقعه ومميزات بيئته لانها تحمل العناصر الكفيلة بانجاح حركة المجتمع في اطار الواقع الحقيقي .

ان هذا الجانب يشكل خطا آخر في الالتزام ويمثل نمطا ثابتا من انماط الصراع الذى تعانيه الحركة التقدمية المعاصرة لان الالتزام بالتعبير عن القضايا التي تعانيها الشعوب ، وتتحمس لاهميتها الانسانية تحتم على روادها ان يكونوا ملتزمين بوسائلهم التعبيرية الموروثة لانها تحمل قيما تعبيرية اصيلة وتتمتع باهلية زمنية طويلة ، وان الابتعاد عنها يعني الابتعاد عن الاصول التي استعانت بها هذه الشعوب ، لان اللغة وسيلة تنمي طرائق

الاتصال الخاصة بها ، ولايمكن لاية وسيلة ان تقوم مقامها او تؤدي وظيفتها، وان طرائق الاتصال هذه تكون سببا في خلق حاجات معينة ، وسببا في ايجاد مبررات خاصة ، وانها تقود الى تطوير انماط معينة من التفكير ، فالصلة بينها وبين التفكير مثبتة ، ووحدة ترابطها وحدة متشابكة ، وان محاولة تفتيت هذه الصلة ، او تفكيك هذه الوحدة يؤدى ـ بلا شك ـ الى تفتيت التفكير ذاته وتفكيك المعنى الذى يريده الاديب من وراء استخدامه ، ولهذا كانت الدعوة الى الالتزام باللغة وما يتفرع منها ، وما يحيط بدائرتها وما يتصل بها دعوة اساسية وان التفريط فيها او التهاون في امرها يفقد العمل الادبي قدرته ، ويزيل عنه طابع التقيد ويبعده عن التجربة الطويلة التي استطاعت اللغة الحصول عليها .

ان الدعوة الى الالتزام بالفكر والالتزام باللغة هي الدعوة الى اكتساب الشخصية المتميزة القادرة على المعالجة التي تراها صالحة في المواضع التي تحدد .. وان الفنان او الاديب او الفيلسوف او المفكر قد حاول ـ وهو يتحسس بالاحداث التي تحيط به ـ ان يجد له طريقا يعبر فيه عن فكره ويترجم بواسطته الوقائع التي يراها والاحداث العامة التي تمر به ، والصور البارزة التي يجد نفسه مقتنعا بتحديدها ، وقد استخدم من اجل ذلك ـ منذ ان وجد ـ الرمز والصورة والاشارة واللمسة واللحن ، وظلت هذه الافكار والصور والاحداث والوقائع تتعانق وتتشابك وتتحد وتتداخل مكونة التاريخ الحضارى ، ومصورة الابداع الانساني ، ومحددة الفكر البشرى الخلاق . وان جحافل الانسانية لايمكن ان تنسى وهي تؤرخ للحضارة والثقافة والفكر ما قدمته الثقافات القديمة من الوان المعارف وضروب الافكار ابتداء من حضارة وادى الرافدين وبلاد الصين والهند ودمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وانتهاء بعصر النهضةالحديث. ان هذا التاريخالذىامتد فوق هذه المساحة الواسعة قد انبثق عن قدرة الانسان الذى عاش فوق هذه الارض

واستوعب أحداثها وقد استطاع بفضل قدراته ، وان يقدم واقعا ثقافيا عالميا ساهمت في ابرازه عقول الابناء الذين ارتبطوا بمصير اممهم ارتباطا وثيقا وقد استطاعوا من خلاله ان يفرضوا وجودهم فكريا وثقافيا وادبيا وعلميا لان تعاملهم كان تعاملا انسانيا ، واستجابتهم استجابة حقيقية لا يقومها الا الارتباط المحكم بالمقومات الاساسية التي ارتكزت عليها الثقافة .

ان العمل الانساني الملتزم لا تحدده طبيعة ، ولا يستجيب لنداء ذاتي خاص ، لانه ينبع عادة من المصالح المشتركة التي لا تربطها مصلحة ، ولاتنطلق من اطار محدد ، وهذا ما جعل امثال هذه الاعمال خالدة في ضمير الوجود الانساني ، لانها اصبحت نماذج يهتدى بواسطتها وافكارا يحتذى بها ، تذكرها الشعوب فتجد فيها ابطالها ، وتقرؤها الامم فتجد فيها اقدار وجودها وافكار قادتها . اما اصحابها . اما مبدعوها فان اسماءهم ظلت مقترنة بالعمل الادبي او الفني او الفكرى ، الذى خلد .. وان هذه الاعمال ستبقى حافزا يلهم الفنانين والادباء بالاعجاب ، ويثير في نفوسهم مظاهر الاعتزاز بالامم التي انجبت هؤلاء لانهم تركوا للبشرية ثروة فكرية اضافت الى تراث الانسانية ما اغناها ، وقدمت لمسيرتها ما اثراها . وستبقى الامم الحية مراكز اشعاع ثقافي للبشرية ، تغدق عليها من كنوزها ما يعيد اليها قدرتها ، ويمكن ابناءها من اكمال مسيرتها امة من امم الحضارة وشعبا من شعوب الثقافة والفكر .

لقد اصبحت صورة الالتزام واضحة المعالم ، محددة الاهداف، ولابد لنا ان نعود الى تحديد جوانب الالتزام ، وضوابطه وقواعده ، لان هذا التحديد يعطي الاديب قدرة على التحرك ، ويمنح الفنان موهبة الابداع ، وكلاهما قادران على معالجة الموضوعات معالجات نابعة من الاساس الذى ارتكزا عليه في التكوين الاول . والانسان بطبيعة تكوينه ملتزما ، قد حاول ، وهو يسعى فوق هذه الارض ، ان يثبت موقفه ، ويحدد موقعه ، حاضرا ومستقبلا ، عندما نظر الى الكون وفكر في ابعاد الحياة التي احاطت

بـه وقد تعددت جوانبها ، واختلفت مشاربها ، وتنوعت حاجاتها • وقـد استطاع هذا الانسان ان يعبر عن نفسه وطموحـه وتصوراته وافكـاره وانطباعاته ومشاهداته وهو يجول في معاني الكون ، ويتأمل قيمه ، ولابد ان يكون التعبير متفقا مع الاشكال التي كان يعبر عنها ولهذا كانت وسائله متعددة وتأثره بها تأثرا محسوسا وتأمله في موجوداتها تأملا نابعا من نظريتين مختلفتين ، نظرة موضوعية بحته ، يتفحص فيها الامور تفحص المجرب ، ليرى مقدار ما يمكن ان يسخره منها ، او ينفعه في تطمين حاجته ، او تأمين رغباته وقد التصقت هذه النظرة باساليب علمية الى حد ما ، لان المعرفة كـانت وسيلتها ، وقد ادت هذه النظرة الى ايجاد اوليات العلوم ، وايجاد اوليـات الوسائل التجريبية التي اصبحت من مقدمات العلم ••• ونظرة خياليـة ، اعتمدت الرمز والاسطورة باعتبارهما اشكالا من اشكال الايمان وانماطاً من انماط السلوك ، وكثيرا ما كان يلوح من خلال هـذه النظرة الاندفـاع العاطفي البدائي لانه في الغالب كان تعبيرا ذاتيا من ملامح اختزنتها ينابيع الشعور الانساني، وقد كانت هذه المشاعر تختلط بصور التعبير عن مظاهر الكون وما تحف بـه والحياة وما يدب فوقها فتبدو اشكال التعبير فنيـة تتحـرك من خلالها قوى الادراك ، لتعطي هذه الاشكال ما تراه مناسبا ، وعنـد ذلك نراها مجسدة في قطعة ادبية سامية ، او لوحة منحوته او ملحمة بطولية خالدة ، او قصة شعرية متناسقة ••

والانسان الذى استقطبته هذه الاشكال ، وتمكنت من دفعه في طريق تخليد مظاهرها وتأكيد ارتباط حياته باحداثها ، ادرك مهمته الحقيقية في متابعة الظاهرة ، ورصد اطرافها رصدا اهّله لوضعها في خدمة قضاياه وحاجاته • وتلك اولى مراحل هذا الانسان للتعبير عن العالم الذى وجد فيه ، والتعبير عن القيم التي يتعامل معها ، والسـلوك الاجتماعي الـذى ساد حياتـه ، والمظاهر الانسانية التي وجد فيها صورة لما يطمح ان يعبر عنـه ، وقـد

استخدم ـ وهو يقدم النماذج ـ الرمز والاسطورة والخيال والفن ، وان استخدامه لهذه الاشكال كان يعطينا صورة عن المهمة التي كانت تتحدث عنها هذه الاشكال ، لانها كانت تحمل سمات الدعوة الى المعرفة والحكمة وقضايا الانسان التي تشغل حياته والافكار التي كانت تسود مجتمعه والمؤثرات التي تستحوذ على فكره وهي امور ظل الانسان يعاني من مشاكلها ، وظل الصراع العاطفي والفكرى في مجالاته يقف عاجزا امام حقيقتها التي كانت ترهبه وتخيفه ، فالحياة والموت كانا مركزين ثقيلين من مراكز الصراع ، ومجالين واسعين من مجالات الاجتهاد وميدانين فسيحين من ميادين الحركة الفكرية ـ بكل اشكالها ـ في مجتمعه • وقد التفت اليهما الادب التفاتة بارعة فاعطاهما من حديثه ما جعلهما قمة كل عمل • وحدد لهما من الصور ما كشف عن عمق اصالتهما في نفسه وشدة صلتهما بكثير من اعماله وتحركاته ••

اما الخلود فكان موضوعا آخر من موضوعاته ، وقد بقيت صوره واشكاله ونماذجه ومظاهره في فكر الاديب القديم راسخة لان الانسان كان يفتش في عالمه عن الحماية ويبحث عن العقيدة ويركض وراء الحقيقة ولم يكن في ذهنه الا صورة من هذه الصور ولهذا كانت وسائله اليه تثير الدهشة ، وتخلق المتاعب أو تبدو وكأنها ضرب من ضروب المستحيل ، ان حب الحياة ، والتشبث باهدافها ، والصراع في سبيل البقاء ، والسعي وراء تطمين النفس باسطورة الخلود كانت مرتكزا آخر من مرتكزات الانسان الذى خصص لها من ادبه ما اعطاها الاسبقية ، وهي حقيقة اخرى تؤكد ان هذا الانسان كان يحرص على تسخير ادبه وفنه في سبيل الوصول الى ما يحقق لرغباته ورغبات الاخرين الاطمئنان ، وان هذا الادب بموضوعاته التي كانت لا تخرج في اطارها عن الحيرة التي يبديها هذا الانسان وهو يقف مبهوتا امام جبروت الحياة •• اقول كان ادبا معبرا وادبا استطاع ان يحدد لهذه الجحافل البشرية

خطها الذى التزمت به ، وتفكيرها الذى عبرت عنه ، وطموحها الذى اصبح صورة المستقبل في كل مأثوراته ..

وقد استطاع هذا الانسان ان يستمد من زحمة الحيرة التي كانت تلف حياته عزيمة الانطلاق لبناء المجد وصنع الخلود وقد تجلى ذلك في التفكير بالعمل والسعي في تحقيقه واثبات ارادة الانسان في التشبث وقدرتها في تحقيق الانتصار وتمكنها من التغلب على كثير مما يعترضها من مشاق ، وقد اصبحت هذه الفكرة اساسا لفكرة التحدى ومنطلقا لارادة التجاوز ، وكثيرا ما كانت هذه الافكار تقترن بافكار اخرى تتصل بالجانب الاخلاقي الذى تؤكده الاعمال الادبية وان الدعوة الى وضع النفس موضع الامتحان وتركها لمصارعة الرغبات الجامحة ، كانت تعطي هذه النفس الفرصة لاختيار الجانب الذى يمكن ان يحقق لها الخلود ، وكثيرا ما كانت هذه الاعمال تختتم مهمتها بانتصار ارادة الاخلاق .. وعندها تتوج الاعمال الادبية باطارين خالدين ، اطار الخلود واطار الاخلاق ، وكلاهما اطاران يعبران عن الطموح الذى ظلت البشرية تسعى لتحقيقهما ، لانهما اساسان مهمان من اسس التقويم ، وقد ظل الانسان حريصا على الالتزام بهما في كل احواله واطواره كما ظل الادب حريصا على تأكيدهما في كل اعماله ..

لقد اصبح التعبير عن الحياة جزء من اجزاء الالتزام الادبي لان الانسان كان يشعر بان وسائله التي يستخدمها ، وحاجاته التي يسعى الى تحقيقها ، وقدراته التي يستطيع بواسطتها ان يحقق تلك الحاجات . لايمكن ان تكون بعيدة عن تصوره أو خارجة عن حدوده . لانه يرتبط بها ارتباطا مصيريا ، ويحدد بسوجبها حركة حياته تحديدا يتلاءم مع الطموح الاني الذى كان يدور في نفسه . وقد حقق له ذلك في مجالات الحياة اشكالا وانساقا لنماذج من الارتباطات ، كانت في مجموعها تشكل الصورة الكاملة في مستوى تصوره ، ولعل التاريخ والحضارة ودراسة الفكر قادرة على الوقوف عند تلك الاشكال وقوفا اطول ..

ان النظرة الاجمالية المتكاملة للتعبير عن هذه الحياة كانت تعبيرا عن الادراك الحسي والفكري الذي استطاع هذا الانسان ان يستوعبه من خلال التبدل المستمر والتطور السريع الذى كانت تفرضه عليه صلاته الاجتماعية. واحساسه الفكري وتصوراته الذهنية التي كانت تفسر ـ وفق مفاهيمه السائدة ـ طبيعة العلاقة التي كانت تشد بينه وبين القوى العليا ، وان هذه القوى ظلت تشغل مساحات كبيرة من فكره وهو يحاول الوصول الى طبيعتها، ويكيف نفسه الى الخضوع لارادتها ، ويقنع فكره بانه قد توصل الى تلك الطبيعة من خلال التفسيرات الوهمية احيانا والتفسيرات الحقيقية في الاحايين الاخرى ، وهو في حالتيه يحاول التعبير عن افكاره التي كانت تسعى بشكل او بآخر للوصول الى الطريقة المثلى في تحديد الموقف المناسب من الحياة الغريبة والكون العجيب ، وما هذه المحاولات التي حاولها ، او انواع التفكير الذى بذله الا نموذجا من نماذج الارادة الحقيقية التي تكشف عن الموقف الذى اراد الانسان ان يتخذه تجاه هذه المظاهر فهو انسان ملتزم ، اراد ان يجد له موقعا ، واراد لوجوده ان يأخذ حجما ، واراد لفكره ان يشغل مساحة من البعد الكوني ، ولا يمكن الحديث عن هذا الانسان بمعزل عن .

١ ـ القدرة التي يمتلكها لتحديد الموقف من خلال العقل .

٢ ـ الايمان بحركة التعبير التي تعترى هذه الحياة .

وقد ظل هذان العاملان يحتلان الجانب الفكرى والحضارى في حياة الانسان وقد استطاعا ان يساهما في رسم المظاهر وتوجيه الفكر وتحديد الوجود والعلاقة بينه وبين الكائنات الاخرى من خلال الخيال ـ وقد اخذ شكل الاسطورة ـ والفكر الذى اخذ جانب العقل ، وقد استطاع الجانب الخيالي ان يفرض بشكل واسع وعميق ويؤثر في التوجيه تأثيرا بارزا فكانت الاسطورة والطقوس وما يدور حولهما من اقاويل ومعتقدات تمثل السلوك الفردى والاجتماعي الذى ارتبطت به حياة هذا الانسان لانها اصبحت الصورة

التي يمكن ان يعبر بواسطتها ، والفكرة التي يدور حولها ، والوسيلة التي يستطيع ان يصل بها الى الغاية . فالاسطورة في الفكر كانت حقيقة ، او مجموعة حقائق ، لانها كانت تمثل الواقع الحقيقي الذى كان يتعامل معه الانسان، وتمثل الشكل الذى حقق له الطموح المنشود، ولهذا كانت سمة بارزة من سمات الادب وقوة ابداعية من قوى الانتاج الفكرى ، وشكلا متميزا من اشكال الانطلاق والمعالجة . ويتحسس بها الاديب حقيقة ، ويتفاعل مع احداثها وجودا ، ويستمد من احداثها فكرا وخيالاً ، وان الانصراف وراء متابعة احداثها ، والسير في مجرى شخوصها ، ومتابعة ما يترتب وما يدخل في اطار كل حدث وفي ظل كل شخص يعد الالتزام الواعي لمعالجة الاسطورة، والارتباط المدرك للانتفاع منها . لان الاديب او مجموعة الادباء استطاعت ان تسخر الاسطورة بكل ما فيها ، والافكار بكل ابعادها في خدمة التطوير والتنشئة والاستجابة والاستطلاع وفق الانماط الاجتماعية والانسانية ، والفكرية التي سادت الفترة ، كما انها اصبحت قادرة على تحقيق كل الرغبات التي كانت تتصاعد في اذهان المفكرين وتجمع الاصناف البشرية والجماعات، وتوحد بين مواقفها في مجابهة العالم ومواجهة الآلهة ومعاملة المجتمع ، وكثيرا ما كانت احداث الاساطير ، والمواعظ التي تقدمها ، والنماذج التي تعبر عنها قادرة على تقديم كثير من الحلول لمشكلات العصر وتساؤلات الفئات الاجتماعية ، لانها تستطيع ان تشبع الرغبات ، وتحقق الامال التي كانت تشغل افكار تلك الجماعة البشرية . وتعامل الاديب مع الاسطورة لم يشكل مرحلة من مراحل الايمان بأن الاسطورة كانت بديلا او تعويضا او رمزا يستعين بها للتعبير عن حاجات اخرى ، او انها كانت تمثل ترفا ادبيا يستخدمه الاديب او الانسان في سبيل ادخال التسلية الى النفوس او اغناء الحدث الادبي بصورة مأساوية يمنحه بعدا من ابعاد الغرابة او التشويق او الاضافة ، او متعة ادبية تضيف الى النص لونا من الوان البديع وانما كانت الاسطورة وما تتضمنها تمثل حقيقة من الحقائق التي آمن بها الانسان في مرحلة معينة ،

وتشير احداثها الى معاني مطلقة كانت تدور في نفسه وتفسر احداثها حقائق كونية تمثل فكره واعتقاده ان الاسطورة كانت بكل ابعادها حقيقة ، تعبر عن هذا الانسان وفكره وعمله وما يدور في محيطه من احداث وفق المعالجات الفلسفيةالاساسية التي تعتمد الفكر والمنطق وتستخدم الاستدلال والاستنباط، وتنتهي الى النتائج التي تتحدث عن مشاغل العصر في تلك الفترة وتصورات الانسان التي كانت تتيه في تحديد اصول الاشياء ووجودها وغاياتها وخلق الانسان ومصيره ونشأة العالم • ومن هنا كان التناقض واضحا بين تصورنا نحن لمفهوم الاسطورة ، لاننا نبدأ من نقطة الترابط بين الاشياء ، وتوثيق الصلات بين عللها وايجاد العلاقة بين مسبباتها ، وبين تصور الانسان القديم لمفهوم الاسطورة ، التصور القائم على عدم ايجاد تلك الصلات وعلى عدم ايضاح العلل الحقيقية، وعلى عدم متابعة الروابط بين مسبباتها • فالمفهومان متغايران ، ومن هنا كانت الاسطورة في عرف ذلك الانسان حقيقة ، وكانت في عرفنا خيالا •• ولعل ما قدمه العلم الحديث ، وما توصل اليه في المجالات المتعددة كان عاملا مهما من عوامل تحويل المفهوم وتغيير دلالالته •

ان حديث الاساطير باعتبارها جزء من حياة الانسان كشفت لنا عن مدى ارتباط الاديب بالتعبير عنها والالتزام باحداثها ، ولابد ان يكون هذا الالتزام قد جعل الشاعر يرتبط باحداث قومه ، ويلتصق بواقعهم ارتباطا والتصاقا يدلل على عوامل الشد المحكم بينه وبينهم ، وقد تجلى ذلك واضحا في الصورة الرائعة التي قدمها اديب وادى الرافدين من خلال ملحمة جلجامش ، والمدى البعيد الذى حققه من اجلها ، والاغراض الفكرية التي عبر عنها ، والمشاكل الانسانية والذاتية التي عالجها وهو في كل ابداعاته ومعالجاته ينطلق من نقطة الاحساس بالمشاركة الوجدانية والمصيرية التي كان يعبر بها او يتحسس وجودها • وربما كان خلود الاسطورة ، واساليب

التشخيص وتثبيت الزوايا الحساسة ، واستيعاب الفكر والمؤهلات التي كان يتمتع بها الانسان واشباع رغباته وفق النماذج المحببة وارضاء طموحه بما يناسب الواقع ، من العوامل التي تؤكد هذا الوقوف وتثبت الاطراف الحقيقية التي كان يستند اليها في هذا الالتزام •

ان الادراك الذى تمتع به هذا الاديب ، والبعد الفكرى الذى كان يتحدث من خلاله والتوفيق الفني الذى صاحبه وهو يتابع احداث الملحمة ، والاثارة التي استطاع بواسطتها ان يستقطب اهتمام الرأى العام المعاصر له والعواطف الانسانية التي بثها في الموضوعات الحساسة من الملحمة او المواقف البطولية التي ابرز جوانبها ، والقدرة الشعرية التي تميز بها وهو يقف عند ابعاد كل حدث تشكل الشد الفني الذياستطاعهذا الاثر الادبي ان يحققه ، ولعل هذا النموذج يمثل وحدة من وحدات كثيرة تتفاوت من حيث الابداع والقدرة الفنية ، لم تستطع اليد الاثارية ان تتوصل اليها في الوقت الحاضر• وان كانت النماذج الاخرى التي عثر عليها تشكل وحدات فنية جيدة ، عالج من خلالها الاديب القديم موضوعات لها صلة مباشرة بالحياة كالمفاخرة بين
من خلالها الاديب القديم موضوعات لها صلة مباشرة بالحياة كالمفاخرة بين
الراعي والفلاح والفأس والمحراث ، وهي مفاخرات ترسم طريق التعبير عن هذه المهن ، وما تقدمه كل واحدة منها الى جانب القيمة الحرفية التي دفعت • الاديب الى تقديم النموذج المتكامل للراعي باعتباره انسانا يساهم في اغناء الحياة ، ويساهم في استدامتها ورعايتها والحفاظ على عناصرها ، وتقديم النموذج المتكامل للفلاح باعتباره العنصر المحرك لاسباب الحياة ، وباعتباره العنصر الفعال في سد حاجات الاخرين • ومن المرجح ان يكون الاديب السومرى على صلة وثيقة بالمعطيات التي يقدمها كل واحد ، وربما كانت هذه الصلة هي الدافع الحقيقي الذى جعله يعقد هذه المناظرة او المفاخرة • اما التنافس ، اما الابداع اما السعي وراء تقديم العطاء الخير فربما كانت من

الدوافع الاخرى التي حاولها الاديب وهو يعبر ، باسلوبه وحكاياته واساطيره، تمجيدا للمهنة، وحبا لها واخلاصا لماتقدمه من عطاء، ولعل المفاخرة الاخرى التي جاءت على لسان الفأس والمحراث تعد صورة اخرى مكملة من صور التفاخر والتباهي في سبيل وضع الادوات في مواضعها الحقيقية باعتبارها مقومات اساسية من مقومات الحياة ، فالفأس لها صورتها الحادة في تغيير العالم، ولها قدرتها الخلاقة في تفتيت ماتراكم عليها، ولها قوتها في تهديم ماتطاول وتجبّر، وهي في الوقت ذاته وسيلة من وسائل البناء والتعمير وساعد مفتول من سواعد الارتقاء والتسامي ، والمحراث رمز من رموز الحياة ، ولمحة من لمحات الخبر
الارتقاء والتسامي ، والمحراث رمز من رموز الحياة ، ولمحة من لمحات الخير اقترنت صورته في تطاول السنابل ، وتماوجت حركاته بتماوج البيادر الذهبية .

ان الصورة الادبية التي قدمها الاديب السومرى تحمل بوارق التعبير عن اصول الحياة ، وتحمل دلالات الالتزام بالانصراف الى معالجتها معالجة تتناسب مع القيم التي تحملها هذه الصور ، وان التفكير الذى ساور المؤلف وهو يقدم هذه المناظرات ينطلق من الايمان بقدراتها والايمان باهميتها في التوجيه والحياة وبانها تشكل العناصر الرئيسة في مقومات المجتمع السومرى آنذاك .

وكما ساهم الاديب السومرى في تقديم الواح الحياة باشكالها ونماذجها فقد ساهم الاديب الاكدى في تقديم الواح اخرى كانت تقف شامخة في مجال التطوير والبناء . فالمفاخرة بين النخلة وشجرة الاثل ترسم الوانا واضحة من الوان الزهو والاعتزاز بين هذين النموذجين الفريدين اللذين عرفا بانتصابهما فوق ارض الرافدين ، وكما كانت النخلة موردا من موارد الخير والعطاء والرزق والحياة والزهو والازدهار كانت شجرة الاثل رمزا من رموز الصحراء ومظلة من مظلات الاحتماء من لهيب الصحراء اللافح وموطنا من مواطن الالتجاء ، وكذلك المفاخرة بين الحنطة والشعير او الثور والحصان .

ان هذه النماذج من المفاخرات لا تشكل التقاءات اعتباطية عائمة ، او صياغات ادبية وحدت بينها عوامل معينة • وانما هي نماذج توحي بما كانت تمثله هذه العناصر فوق ارض الرافدين من اهمية ، وصلتها بالانسان ومقدار اهميتها بحياته ومستقبله ، ومدى ما يستطيع تحقيقه من خلال وفرتها ومن الطبيعي ان يرتبط كل عنصر من هذه العناصر بوسيلة التفكير وما توحيه هذه الوسيلة وما توجبه من مستلزمات قد يكون اغلبها نابعا من طبيعة التفكير الاسطورى ، ومحددا بالاسلوب الخيالي المقترن بالطبيعة او المصاحب للانسياق وراء الاعمال الخارقة للآلهة ، وقد اعطت هذه الصلات للعمل الادبي حيوية الابداع في التصور ودفعته الى ان يستمر في ايجاد الحل للمشاكل التي كان يعانيها وفق التفسيرات الحائرة ، او الحلول الآنية التي كان العصر يفرضها على أبنائه •• وقد اخذت الاسطورة حتى في هذه الحالات دورها الكبير في تجسيد الاهمية الثابتة لكل عنصر من عناصر الحياة ، لان الغاية الحقيقية التي كانت تؤديها تقع ضمن الاطار العام لاستمرار الحياة ، والانتفاع من القدرات الموجودة باشكالها المتباينة ، وربما تفسر لنا هذه الظاهرة ، وما رافقها من اندفاع الانسان بكل قابلياته واحاسيسه وافكاره ، وصاحب هذه العملية من سعى وراء تثبيت قدرات تلك القابليات تفسر قدرة الانسان على تقديم العطاء الحضارى الخصب ، والمجد الانساني الخلاق الذى اصبح رمزا من رموز الانسانية ومثالا نادرا من امثلة الاحترام والاعتزاز •

لقد ادرك الاديب العراقي قديما قضية التوفيق بين عدل الآلهة وبين وجود الشر وقد حاول ان يعالج ذلك في كتاباته بشكل مفصل وكان التركيز ينصب على معالجة العدالة الالهية لانها تمثل الواجهة الحقيقية التي كانت تنتصب امامه ويعجز في كثير من الاحيان عن ايجاد الصيغة المقنعة التي يمكن ان تخفف عنه اعباء الحيرة ، ولعل فكرة المحاورة التي طرحها من خلال ادبياته التي مرت تمثل البداية الحقيقية للتفكير وهو يتدرج من مرحلة الى اخرى ، لانه بدأ

يشعر بأن التحاور والتناظر يحدد اقدار الاشخاص والاشياء ، ويحدد قيمتها وواقعها ، وان هذا التحديد يثبت الابعاد الحقيقية ويؤكد الوجوه التي يمكن ان تستخدم فيها ، وان التفاضل في اساسه • يدل على استيعاب مرحلة التفكير، واستقطاب المسائل التي يمكن ان تشكل المنطلقات الاساسية للعملية بمنظارها الشامل • لانها تقوم على الحجة ، وتستخدم المنطق ، وتستدل على الوجود من خلال القيمة الحقيقية ، وهذه امور لايمكن ان تتجاوز عند تقويم كل عمل ادبي مثل هذه الاعمال •• وهي بالتالي تمثل الصيغة المتكاملة للتعبير عن اوجه الحياة التي شغلت فكر الانسان منذ ان وجد فوق هذه الارض • وما هذه النماذج التي وجدناها عند الاكديين او السومريين الا نماذج متكررة لمواقف انسانية خاضتها البشرية وهي تقطع مراحلها ، وقد استطاعت هذه النماذج ان تلم احداثا الى جانب احداثها ، وافكارا ازاء افكارها ، وصورا تداخلت في صورها ، تحولت من جيل الى جيل ، وانتقلت من مجموعة الى مجموعة ثم استقرت في هذا الوادى ، وربما استقرت امثالها في مناطق اخرى ولعل تلك المناطق كانت تجربتها انضج ، وتعاملها افصح ، وتصويرها اقوم ، ولكن لم يكتب لها ان تدون ، او تظهر ، او تكتشف ، ويجوز ان يهتدي العلم عاجلا او اجلا الى معرفتها لتضيف الى التجربة تجربة اغنى ، ليعرف العالم ان الامم السالفة قد ادركت بعض ما ادركناه وتلك امور لايمكن الاهتداء اليها في هذه المرحلة • لان الوثائق غير موجودة ، ولكننا يجب ان نؤمن بان هذا الادب الذى وصل الينا من وادى الرافدين هو ثمرة ناضجة من ثمار تجارب انسانية طويلة ، وحصيلة فكرية متداخلة لامم عاشت في اذهانها هذه التجارب فاضافت اليها أو اختصرت منها أو عدلّت في بعضها الآخر • وقد ظل الانسان في كل الاحداث الادبية مرتكزاً ثابتا من المرتكزات لانه يشكل القاعدة في التعبير، والقاعدة التالية في تسجيل العواطف والتعامل مع الاحداث ، وتصوير الواقع وتوثيق الصلة بينه وبين الاخرين وتحليل المواقف وتفسير السلوك •

وافتراض الاحوال واعطاء الحلول • وبالتالي اصبح العامل المؤثر في صياغة الطقوس ، واشكال ممارستها ، والمبالغة في الالتزام بها ، والانسان في كل دورة من هذه الدورات ، او مرحلة من هذه المراحل يخوض تجربة ، ويطور اسلوبا ، ويحكم قاعدة تبدو في هيكلها مغايرة بعض المغايرة ولكنها في واقعها تمثل نموذجا من نماذج التطوير ، واسلوبا متقدما من اساليب التعامل •

والانسان في الادب العراقي يمثل انسان التحدى لانه لم يقف امام جبروت الموت حائرا ، ولم يستسلم لغفوته طائعاً ، ولم يكن انسانا مؤمنا بالهروب من الواقع يعيش عيشة الضائعين او يتيه مع قوافل التائهين ولم يكن غارقا في لذته فتتهاوى اقداره على عتبات النعيم او تموت على مدارج العبث ••• الانسان في الادب العراقي كان متحديا لكل هذه الاتجاهات لانه آمن بالخلود وامن بالبقاء ، وآمن بالعمل الخير ، •• وان هذا الايمان قد اورثه طبيعة البحث عن ايجاد الصيغة المقبولة التي تؤمن له هذه الفكرة وقد استطاع ادراكها على الرغم من المتاعب التي صادفته والاعياء التي ناء بحملها فكانت رحلة الخلود الحافلة بكل الذكريات ، وكانت رحلة الوفاء لكل الذين ساهموا في قطع مراحلها وتمهيد طريقها وتسجيل انتصاراتها • ان هذا الانسان الذى ابرز عواطفه الانسانية الثقيلة وهو في اعنف مراحل الصراع ، وسجل حنينه وذكرياته ورثاءه وبطولته يمثل الانسان الحقيقي الذى استطاع بجدارة ان يخلد امة ويمجد حضارة ويبني فكراً وادبا ••• وهو الى جانب هذا التخليد استطاع ان يقدم لوحة متكاملة لابعاد حياته الانسانية بكامل اطرافها ويرسم منظومة اجتماعية دقيقة لجانب اجتماعي وسلوكي أوشكت وقائعه ان تتناهى في خضم الزمن وصوره تذوب في اكداس الاعمدة والجدر والروابي •• ومن هنا كانت عظمة هذا الانسان الذى لمّ في ادبياته الواقع والفكر ، وجمع في تعبيره الصورة والاحساس • وشد في معالجته المجتمع والفرد فكانت قدرته خارقة . وملحمته رائعة ومنطلقاته ملتزمة •

ان عالمية الانسان العراقي لم تكن مقتصرة على عالمه المعروف •• وانما امتد اثره عبر عالمه المعروف في ذلك العصر ، فكانت اثاره تجوب الاطراف المعمورة وافكاره تخترق الحواجز المعروفة لتبسط سلطانها فوق كل ارض، وتحقق عالمية وجودها الفعلي عند كل مملكة •• ولابد ان يكون التأثير قد اخذ ابعاده في المأثورات الادبية ، والتطلعات الفكرية ، والتشكيلات الحضارية، لان الذى يبدو من خلال المناطق التي عثر فيها على اجزاء من ملحمة كلكامش انها كانت مناطق متباعدة • واطراف تفصل بينها المساحات الشاسعة ، ولكن تلك المناطق والاطراف لم تعدم اوجه التأثر فبرزت باشكال واضحة وارتسمت على هيئات متميزة •

ان هذا الانتشار والتأثير يعني ان المجتمعات القديمة وجدت في الملحمة ابعادا تتفق مع الابعاد التي تؤمن بها ، ووجدت فيها من المشاعر والاحاسيس اشكالا تتفق مع مشاعرها واحاسيسها ، ووجدت من الملامح الانسانية ما يحقق لها انسانيتها • وقد ظلت آثار الملحمة تأخذ مواقعها على صفحات الآداب الاخرى اشكالا ونماذج وافكارا ، وبقيت اجزاء من اساطيرها تملأ الفكر الانساني وتبسط سلطانها بقناعة في تقاليد الامم التي كتب عليها ان تقرأها او تسمع احداثها ، او تتأثر بافكارها ومعالجاتها ••• ومن الجائز ان يكون الادب العربي قبل الاسلام قد غارت في اعماقه نسمات هادئة من نسماتها ، فلونت جوانب من جوانب اعمال ادبائه ، وصور شعرائه •• ولعل البعد الزمني السحيق واندثار المأثور العربي القديم قد قطع خيوط الصلة وبدد ملامح التأثير ، ومهما يكن من امر هذه التأثيرات فانها تعني ان الاديب القديم كان انسانا يدرك معنى الخلود ويسعى من اجل الوصول اليه، ويعي مشكلة العصر ويقاوم بقوة من اجل تذليلها، ويتحسس طموح البشرية التي تعيش معه، ويحاول التعبير عنها ، وقد استطاع هذا الانسان ان يكون اهلا للادراك والوعي ، كما استطاع تحقيق وجوده انسانا له قيمته الحضارية في التأثير

وقدرته الخلاقة في الابداع ، وانسانيته الشاملة في الاستيعاب .

ان تحقيق الفكرة التي راودت الاديب في التعبير عن الحياة وفي التساؤل عن اسباب الوجود والتساؤل عن المصير الذى كان يشغل الجزء الاعظم من تفكير المجموعة البشرية ونضوج التجربة التي استطاع ادراكها من خلال الوقائع المكررة والاحداث التي اجتازتها الانسانية في مسيرتها الطويلة ، والمعالجة الواقعية التابعة من استيعاب وتشخيص العلل وتسمية المسببات هذه المسائل تكشف عن مرحلة ناضجة من مراحل الانسان ، وقد استطاع هذا الانسان ان يعبر عن كل هذه المعطيات من خلال التعابير والاغراض والصور التي كانت تحيط بالنص ، ومن خلال الاساطير التي يمكن اعتبارها وسيلة هذا الانسان في تحقيق الاهداف ، وقد وجدنا اصداء ذلك يتناثر على اشكال مكثفة احيانا وعابرة في الاحايين الاخرى ، وكما شغلت مسألة الخلود افكار الاديب العراقي في وادى الرافدين فقد شغلت هذه المسألة بشكل اكبر افكار الاديب المصرى في وادى النيل وقد سيطرت عليه هذه الافكار سيطرة دفعته الى الابداع في التحنيط وحفظ الجثث ... ولا اريد ان ادخل في هذا المجال لان المعالجة الحضارية والفنية والتاريخية قد وقفت عندها الموقف المناسب ، ولكنني اردت من حديثي ان اثبت الفكرة التي جالت في ادبيات الواديين ، ولعل تأثير ادب وادى الرافدين قد ساهم في تثبيت الفكرة ، واكد اشكال المعالجة من خلال ملاحمه واساطيره وحضارته وتاريخه .. وان الاديبين قد قدما النموذج الصالح للمعالجة . وفق الالتزامات الانسانية او التشابه بين الاساليب المستخدمة التي فرضتها طبيعة المعالجة واذا قدر لموضوع الخلود ان يشغل مساحة واسعة في آداب الحضارتين ، الى جانب الحضارات الاخرى فان قضية الحنين هي الاخرى قد شغلت اطرافا اخرى من هذه

الآداب ، وهي قضية يمثل الوقوف عندها امتدادا ادبيا معينا ، والتزاما قوميا له ابعاده في المجال الزماني والمكاني لانه يعني الارتباط بالارض والوفاء لها والدفاع عنها ، وان هجرها يمثل الضياع والحيرة ، وتركها يمثل الانقطاع ودفن الماضي وموت المستقبل ، لان الارض هي الوطن والحنين الى الوطن اول علامة من علامات الشعور بالانسانية وقد عالجت ملحمة كلكامش هذا الجانب في اول مقطع من مقاطعها فكانت : هو الذى رأى كل شي فغني بذكره يا بلادى ...[1] .

ثم تقول الملحمة ..

اقترب من ( اى ـ انّا ) مسكن عشتار
الذى لا يماثله صنع ملك من الاتين ولا انسان
اعل فوق اسوار اوروك وامشي عليها متأملا
تفحص اسس قواعدها وآجر بنائها .
افليس بناؤها بالآجر المفخور

هذه وقفة هادئة وواعية يقف فيها الانسان امام رحلته الطويلة وهو يحدد خطوطها ويرسم الواحها ويدخل فيها قدراتها ومطامحه وفي اول فقرة من فقرات اللوح الاول يقول : هو الذى رأى كل شي فغنى بذكره يا بلادى .

ان هذا الغناء الذى افتتحت به الملحمة هو غناء الوطن ونشيد الارض ولحن الوفاء ، وهو بداية توحي بحب البلاد ، ويدلل على تقديم هذا الحب على كل شيء .. ان هذه البلاد التي يدعو الى التغني بها هي مسكن عشتار الذى لا يماثله صنع .. ومن الطبيعي ان تكون فريدة لانها الارض التي

(١) ملحمة كلكامش . طه باقر ، ٥٤ .

نشأ فيها هذا الانسان وعاش فوق ترابها عيشة الاعتزاز فهي مدينة لا مثيل لها ولا شبيه •• اما اسوارها فقد اسست قواعدها تأسيسا قويا وكان آجر بنائها مفخورا •• وتلك اكبر آية من آيات المقاومة وبراعـة الصيغة • ان الدعوة الى تأمل السور ، والدعوة الى المشي عليه بتأمل يثبت فكرة الارض التي لم يجد الانسان اعز منها وجودا ، واغلى منها تراباً ولهذا كان التصاقه بها شديدا ، ووقوفه عندها وقوفا انسانيا يحمل دلالات الوفاء والانسانية ••• ان الحنين الى الارض التي افتتحت به الملحمة هو النهاية التي ختمت بهـا • وكأن الاديب الانسان اراد ان يبدأ بالوفاء ويتوج ملحمته بحب الوطـن ، فكانت ملحمته نموذجا من نماذج الالتزام ، وكانت صوره ادلة من ادلـة الاعتزاز والوفاء •• وقد بقيت هذه الصورة ، والصور المستخدمة في الالواح الاخرى بدايات انسانية واعية حددت للاداب الاخرى معالم الطريق ولونت ملاحمها بالوان المشاعر الانسانية النبيلة •

ان وقوفي على ظاهرة الحنين ، وهو اول بادرة من بوادر الملحمة • يحدد المؤشر الطبيعي لاديب وادى الرافدين قبل اكثر من اربعة آلاف سنة وهـو ينطلق من فكرة التفاعل مع الارض ، والتعامل معها تعاملا يشد بينه وبـين المراجع التي شهدت ايام حياته الاولى •• وتلك خصيصة بارزة من خصائص التحرك الوجداني الملتزم ••• وقد تركت هذه الحركة بصمات اصابعها على الآداب التي تلت عصور وادى الرافدين فكانت قصة ( سينوهي ) في ادب وادى النيل ، وهي قصة تصور لنا شدة الحنين الذى استبد بالبطل عندمـا تقدم به السن وادرك وعورة مسالك الحياة وقرب النهاية ، وان الاموال التي اغدقت عليه ، او حصل عليها عن طريق التجارة لم تستطع ان تلبي طموحـه نحو الوطن ، ولم تكن بديلا عن الارض التي كان يفتش عنها ، وقد حفلت

القصة بالوان عاطفية مثيرة ، وصور انسانية معبرة ، وهي تشكو البعد وتستبد بها نوازع الغربة وهي صورة اخرى من صور الوفاء للارض والالتزام بالعودة اليها باعتبارها الرمز الحقيقي الذى يوثق اواصر الانسان ، ويقوى نزعته بالمكان الذي شهد مراحله الاولى ، ونامت فوق احجاره ذكريات البقاء والوجود قبل ان تتفتح عناصر الحياة الاخرى .. ان حرص الاديبين على ايضاح الصورة ، وحرصهما على تأكيد النظرة الى الوطن واظهار الاعتزاز وفق الاشكال المناسبة تمثل الذروة التي حاولا ان يصلا اليها من خلال النماذج الادبية وتمثل الوقوع في دائرة الرغبة الحقيقية للتعبير عن المشاعر التي يتحسسها الانسان وهو يسجل لنفسه ولاجياله ملاحم البقاء واناشيد الخلود ..

# الالتزام والبناء الاجتماعي

ان الاحساس بمعطيات الحياة ، والادراك الحقيقي لما تثيره هذه المعطيات في النفس البشرية وما ينتج عن التفاعل المستمر بينهما يمثل الصورة الادبية في النتاج الادبي الذى يقدمه الاديب عبر المسيرة الطويلة التي قطعتها الانسانية ، ويمثل الالواح النفسية والاجتماعية التي انعكست فوق صفحاتها مأثورات الانسان وارتسمت على قسماتها عواطفه وهي تتلون اخلاصا ووفاء، تضحية وثباتاً ، مشاركة او انعزالا .. وقد استطاع هذا الانسان ان يؤكد وجوده وذاته ، ويحقق انسانيته وقدراته من خلال التجارب الادبية التي تركها شامخة في اثاره وبقاياه في صوره وحكاياه .. وقد منحتها اصالة العمل الفني قابلية الخلود واذا قدر لهذه البقايا ان تأخذ مواقعها من خلال الاحساس والتفاعل ، وتجد مكانتها الملائمة من ثنايا المطابقة الواقعية لما رافقها من احداث فان السبب الحقيقي الذى اكتسبتها تلك المواقع والامكنة كان ينطلق من المرتكز الواعي للتعبير عن الاساليب التي ارتأها هذا الانسان قادرة على ابراز المظاهر الحساسة في حياته واظهار الجوانب الحادة التي اخذت حدودها في لوحة المجد الانساني واذا كان انسان وادي الرافدين ووادي النيل قد انتزع اللوحات البارزة من حياته الحافلة بالاحداث ، واستطاع هذا الانسان ان يقف على اعتاب المجد الخالد الذى اعطى اعماله الادبية صفة البناء فان الاديب الاغريقي لم يكن بعيدا عن التأثر بتلك الآداب ، ولم يكن في معزل

عن التوجه العام الذى احتفظ به الطابع الادبي في ادب الواديين ولم تكن اعمالهم الادبية خارجة عن نطاق الدائرة التي تركت اثرها الواضح في مجالات الابداع والخلق ، ولعل الدارسين يدركون العمق الفني الذى احاط الادب الاغريقي ، ويدركون ابعاد الجسر الحضارى الذى امتد عبر الفينيقيين وهم يساهمون بشد هذا الجسر ، ويوثقون اطراف قدرته ، وينقلون من خلاله ملامح الحضارة ، وقيم الثقافة ومثل الفكر الذى عاش في الاعمال الادبية ، في المجال الفني ، وركز في المسائل التي كانت صلاتها مباشرة بالحياة •• ولعل الدارسين يدركون ايضا ان فلسطين كانت طرفا آخر من اطراف هذا الشد الحضارى لانها اصبحت في الفترات التاريخية حلقة وصل مكثفة من حلقات السلسلة الحضارية ، او الجسر الثقافي الذى عبرت فوقه قوافل الحضارة المصيرية ، وانتقلت بواسطته مجموعة القيم التي اكتملت عناصرها في تلك الحضارة ، وقد ظلت افكار الادبين ومأثورهما الفني الذى عاش في اذهان الانسان في كلا الواديين يشق طريقه ويحدد موقعه ويؤكد حقيقته التي برزت بوضوح في ذاكره الخيال الاغريقي الذى انصرف الى تمجيد الابطال وتخليد الانتصار والاعتزاز بالمجد الذى حققته جحافل المنتصرين وقد شحن هذا الخيال بالمشاعر المثيرة والعواطف الانسانية الملتهبة وغذى بالاعمال البطولية التي صيرتها الالهة وتحكمت فيها القوى ( فوق الطبيعة ) ولابد ان تكون هذه الاعمال قد خرجت عن الاشكال المألوفة ، وابتعدت عن الصور التي يستطيع ان يؤديها البشر ، وقد ارتبطت هذه الاعمال بالتصور السائد في الاذهان الذى اعتبر الالهة كائنات تسمو على البشر ، وانهم من البشر المتميز •

وقد استطاع هذا الادب ان يسجل الاحداث ، ويدوّن الوقائع ويرسم صور الابطال وهم يسجلون للامة امجادها ، ويحققون للتاريخ الاغريقي اساطين فخره وخلوده الى جانب التسجيل الحضارى الذى ارخ للحركة الاجتماعية صورها وللمشاعر البشرية روحها الوطنية وهي تعد نفسها لبناء

حضارة جديدة وترسخ اسس قويمة وتأكيد شخصية متكاملة .. وقد استطاع الادب في هذه المرحلة ان يبرز الدور القيادى لمجموعة الأدباء والشعراء وهم يساهدون في خلق الملحمة الادبية التي تسجل مجد الامة وتصور المشاعر القومية والوطنية من خلال الادوار والاناشيد والتراتيل وقد لونت احداثها بالواح الانتصار ، وتوجت اعمالها باكاليل الفتح المظفر . وهي عملية التحام ادبي موحد ، واتفاق فني يوحي بالاحساس الذى امتلك مجموعة الادباء وهي تتوحد ، ومجاميع الجماهير وهي تنشد وتستمع وتضيف وقد اكتملت هذه الاناشيد شكلا وموضوعا ، واتفقت هدفا وفكرا لتسجل لهذه الامة حيوية ادبائها ، وادراك شعبها ، وقد ظلت هذه الاناشيد في اطار الملحمة الخالدة تثير في نفوس الشعب الاغريقي نوازع النشوة بالانتصار ودوافع الاحساس بالمجد الخالد الذى شيده الابناء الى جانب كونها نماذج ادبية رفيعة احتوت الفاظ الشعر الساحر ، واكتست اردية الخيال الرفيع ، واحيطت بالمشاعر الانسانية الصادقة وقد اكسبتها هذا الواقع سمة الاعتزاز والتبجيل فاصبحت تراثا اغريقيا مأثورا ، وعاشت في ضمير الشعب احداثا لا يمكن ان تنسى وذكريات لا يكتب لها الزوال مهما تقادم عهدها وتباعدت احداثها ..

ان الاديب الاغريقي الذى خلّد لامته وجودها ، وحقق لها البقاء في وجدان الانسان الاغريقي لم يترك لوحاته باهتة الملامح او باردة الاحساس وانما كانت اللوحة الادبية مملوءة بكل ما يبعث على الخلود . وقد اضفى عليها من نفسه ووجدانه ما جعلها دافقة مبتهجة ، حافلة بالحب الذى يمثل العاطفة الانسانية لكل البشر ، وهي عاطفة كانت تأخذ حجمها من خلال التعابير والمشاعر والعواطف لان الحب كان في الادب الاغريقي لونا انسانيا يراه الناس في كل شيء ، ويتحدثون عنه في كل امر، ويقفون في التعبير عنه عند كل بارقة من بوارقه ، وقد ساهم هذا الاحساس مساهمة واضحة في تأكيد الخلود المقترن بالعاطفة الصادقة ، ولعل القسمات التي اكدتها الحضارة الاغريقية في الجوانب الحضارية والفنية تؤكد النظرة

الجمالية التي حملتها هذه الحضارة واكدتها الاعمال الانسانية التي ما زالت تظفر بالمسحة الرائعة لمظاهر ذلك الفن .. ان الاديب الاغريقي الذى اكد الجانب العاطفي في ملامحه ، وشدد على ابرازه تشديدا يوحي بالاهمية التي كان يعلقها على هذا الجانب لم ينس الحياة البشرية التي يحياها الانسان ، ولم يترك الفردية تحقق ذاتها من خلال اعماله ، وانما كان البشر في وجدانه صورة مطلقة يتحدث بلا حدود ، ويقف على احوالهم بلا تمييز وقد اصبحت المأساة ظاهرة من مظاهر بعض الادباء الاغريق على الرغم من المحاولات التي كانت تختفي وراء هذه الاعمال من تبريرات تحاول ان تبعد الالهة عن ارتكابها وهو اطار فكري كان يدور فيه الاديب الاغريقي ويستمد من معطياته احداث وجوده وتكوينه واعماله . وكثيرا ما كانت الاخلاق والالتزام بها والفضيلة والدعوة اليها والعدل والتمسك به وكل القيم التي تساهم في التكوين الجمالي وتؤكد الصفاء الذى يعطي هذا الجمال رونقه وصفاءه .. هذه الخصائص كانت تشكل وحدات مترابطة في النموذج الادبي ، وتمثل الطابع العام الذى كانت الوانه تبرز من خلال النص الذى يقدمه الاديب .. وفي هذه المواقع يصبح الاديب طرفا متحركا في التوجيه والاصلاح ، وصانعا حاذقا في تقديم الاثر الذى يترك البصمات الاصلاحية واضحة الملامح . وهي فكرة تتحدد من الموقع الريادي الذى يتمتع به باعتباره اداة من ادوات التغيير او التوجيه وكانت هذه الاعمال تجد صداها في نفوس الجماهير التي كانت تتابع اعمال ادبائها لترى الصورة المختارة ، وتشاهد الحدث المقبول لتقتدى به او تنفر منه . ولعل التكريم الذى حظى به ( سوفوكليس ) والجوائز التي انهالت عليه والتقدير الذى كانت تغدقه عليه الجماهير يؤكد الاهتمام البارز الذى يمكن ان تقدمه الجماهير الى روادها اذا ادركت هذه الجماهير ان اولئك الرواد جديرون بالقيادة وقادرون على ان يمسكوا بالزمام الحقيقي لحركتها الادبية الفاعلة ..

ان معالجة الموضوعات الحادة التي كانت تمثل الاطراف الحقيقيه في الصراع لم تكن وحدها بارزة في الادب الاغريقي ، ولم تكن احداثها بما عبر عنه الادباء هي الاحداث المعزولة التي وجدت مكانتها في مجال المعالجة ، لقد تجاوزت الاعمال الادبية المظاهر البارزة ، واوغلت في النفس البشرية التي عرفت الصراع بمظاهره ، وعاشت الاحساس بما ولده هذا الصراع ، فكانت نوازع الاديب تتوزع بين ابراز العواطف في احوالها ، واظهار الجانب الملتزم منها ، وكثيرا ما كان التأكيد على الاخلاص مثلا من مثل الوفاء ، والواجب نموذجا حيّاً من نماذج القيم النبيلة ، ويبرز بصورة شامخة ويؤكد من واقع الحياة الانسانية التي دعا اليها هؤلاء الادباء .. وكانت تنبثق من هذا الحوار الانساني الذى يمسك الحب بجانب من جوانبه والعاطفة بجانب آخر ، افكار اختزنتها الذاكرة الانسانية آمادا ، ونشرتها عبر سطور المحاورة ومن خلال المقولات . فكرا تتوالى عليه التعقيبات وموقفا تتبناه القوى الفاعلة في ذلك المجتمع ...

ان قدرة الاديب الاغريقي الذى استطاع ان يغني التراث البشرى باعماله الأدبية قد قدم النموذج الانساني السليم الذى ظلت آماله معلقة في مضامين الأفكار الانسانية النبيلة ، وقدم العمل الادبي الخالد الذى تجلت فيه مطامح الجماهير وهي تنصرف الى الانواع الادبية المعروفة ، وقد وجدت في حوارها اوعية لفظية صالحة ، يمكن الاخذ بها او استخدامها من اجل التعبير والتوجيه ، والتوعية والانتفاع ، وكان الادباء يسلكون ــ وهم يستخدمون هذه الصيغ ــ مسالك التعبير الواضح ، وفق الاشكال المقبولة وفي اطار الحدود المتفق عليها ..

ان موقف الاديب في الحضارات القديمة ــ على الرغم من الاساليب التي عالج فيها مشاكله ، والتفكير الذى احاط بالطريقة ــ يشكل موقفا محددا ازاء الاحداث ، وموقفا محددا امام العناصر التي حاولت ان تتحدى قدرته

ووجوده ، وقد اهتدى عبر هذه المعالجات ، الى وسائل ساعدته على تحديد هذا الموقف •• ولم يكن تفكيره بعيدا عن الثقافات الانسانية التي كانت دفقاتها تتماوج فوق الارض المعمورة ، فتغني بعطائها الفكر ، وتثرى نتاج العقل ، وتتفاعل مع الواقع تفاعلا حضاريا ، وقد ادى ذلك الى ان تظل الحضارات رسلا من رسل الانتقال ، وجسورا من جسور العبور الى المواقع التي وجدت نفسها قادرة على الاستيعاب ، ومالكة زمام المبادرة ، فكانت عناصرها تنتقل ، ووحدتها تبرز وفق الاشكال التي تعيشها كل جماعة •• ولم تكن جزيرة العرب بمعزل عن العالم كما يتصور البعض ، او ان انسانها بعيدا عن الاحداث والافكار التي كانت يحكم وجودها تأخذ مكانتها ، ولم يكن الادب الذى نبت اصوله وازدهرت فروعه فوق الارض العربية خاليا من التأثير او منصرفا عن المهمة التي اضطلعت بها آداب العالم القديم ، لانه جزء منها تأثر بما تأثرت به ، ووقف الموقف المناسب من المسائل التي عرضت لتلك الآداب او صادفت اصحابها • وكان الاديب العربي يختزن في فكره من رواسب الحضارات ما اهله ان يوجهها التوجيه الملائم وكانت آثار ذلك الاختزان تتعالى على شكل اساطير مقطوعة ، وملامح غير متكاملة ، او عادات وتقاليد لها صلة تبدو غير واضحة ، استخدمها في ادبه وانتفع منها في حياته ووقف عندها في حله وترحاله •• وقد منحته هذه الرواسب تصورات انسانية شاملة، ومكنته من اضفاء طابع الادراك على كثير من اعماله الادبية •• وقد تركت هذه الآثار الوانها البارزة فوق سمات الخلود التي اكتسبها هذا الادب ••

لقد ظلت ظاهرة الرفض والاباء وعدم الرضوخ ومجابهة التحدى وحب الخير معطيات انسانية كريمة تأتلق ملامحها من خلال المسيرة الزمنية الطويلة التي قطعها الادب العربي ، وتتجلى صورها بشكل بطولي عبر الاعمال الشعرية التي قدمها الاديب العربي ، وان كانت هذه المعطيات تأخذ ابعادا محدودة في بعض الاحيان ، او تنحصر في اطار قبلي ضيق ، ولكنها ترسم

في كونها العام وافكارها الشمولية الوانا من الوان الاتساع في المعالجة ، واستيعابا للمشاكل التي يعانيها الانسان وتعبيرا حيا من تعابير الادراك للواقع البشرى الذى رافقت خطراته المتألقة احاسيس وجدانية بارزة •

لقد التزم الشاعر العربي بالدفاع عن قضية قبيلته ( في المفهوم الشائع ) وامته ( في المفهوم العام ) عندما كانت هذه الامة تقف في موضع الاختبار بين الخضوع او التحدى ، وكان صوته ـ على الرغم من محاولات الخنق الكثيرة التي يتعرض اليها ـ يشكل تيارا بارزا له سمات التأكيد ، ويحمل خفقات الاحساس الذى يمنح الصوت قدرة العبور والتجاوز والانتشار • فالجور الذى لحق ببعض القبائل جراء ارهاقها بالضرائب الثقيلة ، والاتاوات الباهضة والجبايات التي كانت تؤخذ بالقسر والقوة حملت الشعراء على التعبير عن ظاهرة الشعور بهذه المظالم ، وتمكنوا من الافصاح عنها باسلوب عنيف وباباء شامخ وتهديد جرىء ، ولم يتركوا للخوف في نفوسهم مكانا او يجعلوا للاحساس الذاتي او المصلحة الفردية مجالا يطوى الاحساس الكبير بموضوع الالتزام ، او يغفل المهمة الاساسية التي يجب ان يؤديها الشاعر في المرحلة الحاسمة وكان جابر بن حني التغلبي اشارة لامعة من الاشارات التي تركت صورتها واضحة بارزة وهو يظهر حزنه على ما كان من تفرق قومه وتشتت امرهم بعد الوحدة والعزة والقدرة حتى اصبحوا يرضخون على الرغم من الضرائب المرهقة التي كانوا يقدمونها والاتاوات الباهضة التي كانت تجبى بالعنف والقوة ، وكانت ثورته صاخبة ، وصرخته عنيفة وتهديده للقائمين على ذلك قوية وشديدة •• وقد استمد هذه القوة من ماض زاخر بالبطولات ، ومجد مليء بالمفاخر •• فيقول[٢] :

لتغلب ابكي اذْ اثارتْ رماحها     غوائل شر بينها متثلّم
وكانوا هم البانين قبل اختلافهم     ومن لا يشد بنيانه يتهدم

(١) المفضل الضبي • المفضليات ٢/١٠ـ١١ •

وفي كل اسواق العـراق اتـاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
نعاطي الملوك السلم ماقصدوا بنا وليس علينـا قتلهـــم بمحـــرم

ان الوقوف عند مظاهر التحدى ، والتعبير عن الاحساس الصائب الذى كان يشكل الاساس الحياتي للانسان العربي كان ظاهرة تكتسح كل الظواهر الاخرى ، وقد وجد الشاعر العربي نفسه ملزما بالتعبير عن هذا الاحساس ، وملزما بالوقوف الى جانب قومه وهم يؤكدون الحقائق التي اصبحت جــزء من حياتهم وانهم كانوا لا يتورعون في تقديم اغلى ما يملكون في سـبيلها . ولهذا كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيهـا شاعر اتت القبائـل فهنأتهـا ، وصنعت الاطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الاعـراس ويتباشر الرجال والولدان ، لانه حماية لاعراضهم ، وذَبٌّ عـن احسابهم ، وتخليد لمأثرهم ، واشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، او شاعر ينبغ فيهم ..

ان الصورة من خلال هذه الاهمية تحددها هذه الاعراف ، وان الشاعر العربي يتحرك في اطار المهمة التي اوكلتها اليه القبيلة في التحديد الضيــق والجماهير في النطاق العام ، وان الاهمية التي كانت تعلق على نبوغه كانت اهمية لها صورتها في المجال القومي والانساني والحياتي بحيث تعم البشائر ، فالشاعر يحمي العرض ويدافع عن الاحساب ويخلد المأثر ويشيد بالذكر وهي قيم انسانية تؤكد المثل التي تبني المجتمع ، وتقوم اسسه ، وتشد بين ابنائه ، وهي قيم تخلد الاعمال الجليلة ، وتبرز المفاخر الاصيلة التي تترك اثارهـا في نفوس الناشئة ليترسموا الخطى ويقتفوا الاثر ، ويمجدوا الانسان البطل الذى خط لامته المجد ، وسجل لها المفاخر . وهي مهمة الاديب التي اصبحت مهمة مزدوجة بين التوجيه والتخليد .

ان تحديد الالتزام لم يكن مقتصرا على المحتوى الذى يعالجه الاديب او الغرض الذى يحدده الهدف وانما الالتزام عند الاديب اصبح يعني الجانب

الاخلاقي والخلقي ، فحلاوة الشمائل وحسن الاخلاق وطلاقة الوجه وبعد التفكير وأمن الجانب وصدق العقيدة وسلامة الطوية اطراف متصلة تتشابك في صورة الالتزام لان وحدة الصورة لابد ان تكون متكاملة بين التعبير الصادق والتعبير الملتزم وكلاهما يؤدى مهمته في النص لان الاقتران والتوافق يحكم الصياغة ويثبت المفاهيم • ومن الطبيعي ان يساهم ذلك في تقديم اللوحة الانسانية •• ولعل التزام الشاعر بالوقوف طويلا عند ذكر الوقائع وتسجيل الايام وابراز الملاحم يكشف عن الجانب الموضوعي الذى اخذ الشاعر نفسه به فاصبح مسؤولا عن احياء مكارمه، وتجسيد بطولاته، وتقديم صورة تتعالى فيها اوجه القوة، وتتلألأ بين معانيها صور التضحية، وتندفع في ثنايا دلالاتها قدرة الوفاء في سبيل المجموع ويسوت نموذج الفرد في خظم الجماعة ، وتحيا لوحة البطولة ••• وقد حرص الشاعر على ان يكون طرف التسجيل في البناء، وعنصر التفاعل في الاحساس لينقل المجد وقد وضحت معالمه ، ويرسم الثبات وقد اكدت شخوصه •• وتعكس من خلال مشاعره احاسيس التعاطف والوان النوازع لان القوم قومه والنصر نصره •• وقد ظل شعر الايام الواحا فريدة من الواح التاريخ والحضارة والمعتقدات ، وبقيت قنوات الفخر التي ذابت فيها نوازع الشخوص تصب في المجرى الانساني الخالد الذى حاول الشعراء ان يتفقوا عليه على الرغم من المواقع التي كانوا يتحدثون بها لانها قنوات انبثقت من وجدان واحد ، وبرزت من خلال صفة انسانية متميزة هي صفة الامة التي كتب عليها ان تكون امة خير وبطولة ، ان الحرص على رسم الموقف والحرص على تسجيل معطيات هذا الموقف واثبات الدور الاساس الذي تحمله الايام كان بمثابة القوة التي ادخلت الشعراء في نطاق الحماية القومية لتثبيت موقف الامة في المرحلة التي سبقت الاسلام ، وتثبيت القيم التي اختزنتها هذه الامة عبر المسيرة التي قطعتها ، وان المساهمة الكبيرة التي اداها الشعراء وهم يرسمون خطوطها توحي بالدور الخطير الذى ادركه هؤلاء

الشعراء ، والدور الذى تركوا اثاره للاجيال التي تلت .. وان الاحساس الاجتماعي والادراك القومي الذى كانت اثاره تلوح من خلال الرصد .. يؤكد هوية الاديب العربي الذي شارك الامة حياتها وشاركها ايامها وهي تعاني المصاعب وتشق الدرب وتبني الدور الذى كتب عليها في عالمها القديم.

ان التزام الشاعر العربي بالارض ، وحرصه على التمسك بها ، وحنينه اذا اضطر الى مغادرتها ، وبكاءه اذا استبد به الوجد ، والم به الشوق يمثل التعاطف الحقيقي مع هذه الارض ، وان بكاء الديار والاطلال ، والمنازل والرسوم ، والمعاهد والعرصات ، والربوع والاثافي ، والدمن والاحجار يعكس الجانب الانساني الذى اصبح جزء من حياة هذا الانسان ، وبضعة من نفسه ، ولهذا كان شعره وهو يتحدث صورة حقيقية وواقعا انسانيا ، وخفقة وجدانية من خفقات الاحساس ، فالشاعر لا يبكي نفسه ، ولا يندب حظه ، وانما يبكي الفرقة ، ويندب الغربة ويسكب الدمع بعد التفرق والتمزق، ويسائل الاحجار والاثار عما تركه الاهل وديعة بين بقاياها ، وذكريات في بطون حفرها وزواياها ، واحداث عزيزة تمثلت فوق حبات رمالها او في طيات ثناياها ودروبها ، فالبكاء لم يكن فرديا ذاتيا ، والوقوف لم يكن انانيا وانما هو بكاء الاحساس بتفرق الجماعة ، وفقدان الترابط ، وبعثرة الوحدة ، والاستشعار بالرحيل الذي كتب عليه ان يلتزم به بسبب الحياة القاسية . فكان على الشاعر ان يشارك الاهل فرقتهم ، ويشاطر الاصحاب تمزقهم ، ولابد ان تكون الصورة بالنسبة اليه موحية لاستحضار الواقع القديم ، واستذكار الايام الخوالي التي كان فيها الاهل مجتمعين ، تشد بينهم الاواصر ، ويوحد قلوبهم التعاطف القبلي او القرابة ، ولابد ايضا ان يعود الانسان في مواضع الاستحضار والاستذكار الى ايام الشباب وقوته ، والصبا وملاعبه ، والبهجة ومسراتها ، وما كان يطوى هذه الحياة من مواقف تثير الاعتزاز ، وتبعث على التأسي .. ومن خلال المقارنة الجادة بين واقع ضائع

وتشرد واقع وماض مزدهر وقديم موحد تأتلق لمحات الاحساس بالمرارة ، وتتصاعد ومضات الشعور بالاسى • وفي هذا التلاقي الحاد ، والاحتدام القاسي ، تشتد خفقات الالتزام بالمقارنة ، وتنطلق قدرات التعبير عن الصورة الحقيقية التي تلمسها الشاعر بصدق ووقف عند مراكز التأثر فيها ، ومن هنا كان التعبير اليما ، وتدفق العبرات غزيرا ، ومجال اظهار الحسرة مقبولا ، لان الصورة في النفس اصبحت قاسية ، وادراك ما تؤديه من اوجاع مفرطة في التباعد • ولا غرابة في ذلك اذا لمسنا في هذا النوع الادبي من تصاعد العواطف وتفجر المشاعر ما عجزت عنه الانواع الادبية الاخرى •• وقد بقي الالتزام بالوقوف فوق المرابع ، والحديث عن الاطلال ، والانطلاق من نقطة الارتكاز في التجاوب الحقيقي مع هذه البقايا ظاهرة مؤتلقة من ظواهر الشعر العربي حتى في المجال التقليدى الذى مارسه الشعراء في العصور المتأخرة ، لان نزعة الارتباط بالجماعة ، ونزعة الالتصاق بالارض ونزعة التعاطف الوجداني مع ما يحمله الفرد لهذه البقعة الصغيرة ، والتعبير عن شعور الجماعة بدافع الاحساس بالمصلحة المشتركة ، ومقاسمتها ما تلاقيه من مؤثرات ، ظلت صفة قائمة عند الشعراء على مختلف نزعاتهم • لان التخلي عنها ، والتنازل عن هذه القيم يفقد الشاعر صلة الارتباط ، ويفقده مهمة التعبير التي اعطى من اجلها الشاعر اهمية كبيرة في قومه وقبيلته وعند جماهيره • ولعل الصورة كانت تتغير وفق الاشكال الجديدة التي بدأت تستحدث ، ووفق الصور التي اوجدتها طبيعة العصور التي تلت العصر التاريخي قبل الاسلام فكانت صور المدينة والقرية والدولة والحاضرة هي الاشكال التي بدأ الشاعر من خلال ضياعها يستعيد المظهر القديم ويحقق الارتباط الملتزم ، ويؤكد الاحساس العميق بالمشاعر الاولى التي وجدت عند زميله الشاعر القديم •• وقد وقفت قليلا عند هذه البداية في حديثي عن ملحمة كلكامش التي ابتدأها بالحديث عن بلاده وضمنها الحديث عنها وتلك اروع صورة من صور الالتزام ••

ان وقوف الشعراء عند ذكر المنازل والديار ، والمغاني والاطلال - والمربع والدمن والرسوم والمحال والمعاهد والمعالم والارض والاوطان والمدن والبلاد، يثير الدهشة لهذه الظاهرة ، لان الوقوف لا يمثل السكوت او الصمت ، او البكاء او الوجوم ، وانما يمثل الاستثارة والتساؤل والاستحضار والاستذكار والاسترجاع والاستخبار ، وكثيرا ما كان الشعرا ءيتخذونها مداخل للحديث عن الوحدة واسباب تقويتها ونبذ التفرقة والتمزق ، لانهم كانوا يجدون فيها مدعاة الى القوة ، ومدفعا من مدافع التحصن والاعتزاز ، ويجدون في حديثهم اندفاعا نحو التعلق بها على الرغم من درسها وخرابها ، وضياع معالمها واندثارها، لانها عزيزة على النفس ، قريبة الى القلب ليس من السهل التهاون في تركها او التسرع في مغادرتها . فهي موطن الحنين وارض الجدود ، وموئل الاعتزاز،.. ولهذا كان الوقوف عندها والالتصاق بترابها ، والعودة اليها يحمل معاني الاخلاص ويجسد معالم الالتزام ويروي غليل النفس التواقة الى العودة لما كانت تذكره في حالة الابتعاد . وقد حفل الشعر العربي بصور مثيرة لهذه المظاهر وهي صور تؤكد الوقوف والالتزام ، وتحقق الرغبة الانسانية التي تصاعدت في نفس الشاعر وهو يتحدث عن الارض التي شهدت ايامه وطفولته ، وشهدت فتوته وشبابه وشهدت ايام عزه وعز قبيلته ، وتجمعه وتجمع قومه ، واذا كانت احاديثه ممزوجة بالبكاء ، او مقترنة بالعاطفة الحادة فتلك مكرمة من مكارم الرجال ، ومحمدة من محامد النفوس التي تحس بالتعاطف وتدرك القيمة الانسانية لمن تضيع ارضه ويفقد بيته وتنتزع مرابعه ودياره ...

ان الارتباط بالارض ، والالتزام بما تحمله هذه الارض من معان لم يترك الشاعر عبدا لها او خاضعا لما تفرضه عليه من التزامات ، لانه عندما كان يجد نفسه غير قادر على المقام بها او العيش فوق ارضها لاسباب تخرج على طاقته ، وتبتعد عن القدرة التي يستطيع بواسطتها ان يدفع عن نفسه ماتؤديه التزاماته وهو يرضخ لها . هذا الانسان كان يرفض البقاء ويأبى الخضوع

ويتحدى التقاليد • لان الارض واسعة وفيها منأى للكريم عن الاذى ، وفيها لمن اراد التحول بعد شعوره بالبغض مجال ولعل في لامية الشنفرى التي يذكر فيها قولـــه:[٢]

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى | وفيهـا لمن رام القلـى متحـول
لعمرك ما بالارض ضيق على امرىء | سرى راغبا او راهبـا وهو يعقل
اديم مطال الجـوع حتـى اميته | واضرب عنـه الذكر صفحا فاذهـل
واستف ترب الارض كيلا يرى لـه | علي من الطـول امـرؤ متطـول
ولولا اجتناب الذأم لم يلف مشرب | يعاش بـه الا لـدي ومأكـل
ولكن نفسا حـرة لا تقيـم بي | عـلى الضيم إلا ريثمـا اتحـول

ان صرخة الشنفرى هذه تمثل لون التحدى ، لانه يعتقـد ان الارض جميعها ارضه وان انتقاله من مكان الى آخر هو انتقال على الارض التي من حقه ان يتحرك فوقها ، فاذا احس بأن لونا من الاذى قد وقع عليـه او ان قبيلته اساءت اليه فان من حقه ان يترك ارضه الى ارض يكون فيها كريما ، والى مكان يكون فيه عزيزا • وقد ظل الشاعر امينا على هذه المشاعر ، حريصا على اظهارها ، التزاما بالمبدأ العام الذى اصبح حقا من حقوق البشر عندمـا يجدون انفسهم غير قادرين على رد الظلم ولكنهـم قادرون على التحـرك ، وقادرون ان يقولوا للاخرين ان الارض واسعة وفيها رحابة لمن يشعر بـان ظلما قد وقع عليه ، وان الاقامة على الذل لا تليق بالانسان ••

لقد حرص الشعراء على ان يكونوا واضحين في تعابيرهم عن انفسـهم وعن الجماعة التي ينتمون اليها ، وكانوا يشعرون بان هذا الوضوح والتعبير عنه يشكل المرتكز الاساس في المنزلة التي يتمتعون بها ، فهم السنة القوم ، دفاعا وتخليدا والتزاما ، يردون عنهم سهام الخصوم ، ويؤكدون حقهم فـي

(٢) الزمخشري • اعجب العجب في شرح لامية العرب • دار الوراقة ، ١٨ •

الحياة . ويمسكون زمام المواقف ، وينشرون الوعي القومي من خلال الوقائع الخالدة ، والايام الحاسمة والامجاد التي رسمها الاباء والاجداد ، وهم ينشرون الوعي الاجتماعي من خلال تأكيدهم المثل الاصيلة والدفاع عنها بشكل يؤكد وجوب الالتزام بها ويستشهدون بالحوادث التي اصبحت امثلة في الاستدلال ونماذج في الاستشهاد وينشرون الحس السياسي من خلال التأكيد على الترابط والاتفاق ونبذ الفرقة والابتعاد عن مظاهر التفرقة والوقوف بوجه الخصم • ولعل مواقف الثبات في الحرب واستلهام معاني الحماسة وابراز الروح البطولية التي تجلّت في كثير من المعارك وجعلها منطلقات في التقويم ، ترسم الصورة الحقيقية التي كان الشعراء يحملون عبء تأكيدها ، ويأخذون على انفسهم المهمة التي من اجلها تصبح هذه المهمات ثابتة الاركان ، قوية الدعائم •••

اما الجانب الوجداني والحسي فكان الشعراء لايتركونه دون معالجة، فالشعراء الصعاليك حملوا اعباء الدفاع عن الوضع الاجتماعي الذى تعيشه فئات معينة من الناس ، والتزموا بالوقوف الى جانبهم ، يتعاطفون معهم ، ويتحدثون عنهم ، ويذكرون فعالهم ، ولهذا كانت الفاظ الجماعة والاصحاب والرفاق والقوم والفتيان تتوالى في شعرهم ، وهي تحمل مشاعر الاعجاب بهؤلاء الذين كانوا يحمون ظهور اصحابهم ويدافعون عن انفسهم وكانت وجوههم في صور القصيدة لامعة مشرقة ، وعيونهم نفاذة تتوقد حماسة وتأتلق جرأة واقداما ، لقد حرص الشاعر الصعلوك على تحديد ابعاد الحركة الجماعية التي كانت تتحركها الجماعة ، لانهم كانوا فئة مترابطة ، امتازت بما امتاز به كل مغامر اخذ على نفسه هذا السلوك الاجتماعي ، وكثيرا ما كانت الملامح اكبر من الواقع لان التعاطف الحقيقي كان يدخل عاملا مؤثرا في تحريف الصورة واضفاء جانب المبالغة •••

ان التزام الشعراء الصعاليك في ابراز ظاهرة الفقر التي كانت تمثل

ابرز عامل من عوامل الاتجاه الاجتماعي في حياة هذه الطبقة كان مدار حديثهم ومن اكثر الموضوعات التي عالجوها في شعرهم فتحدثوا عنه ظاهرة اقتصادية واجتماعية وتحدثوا عن اسبابه وتأثيره في حياتهم واحسابهم وما يتركه في نفوسهم وعلاقاتهم والوسائل التي يمكن ان يتخلصوا بواسطتها من شدته وقوته ، وكان حديثهم عنها حديث الاحساس بسطوته ، وكثيرا ما كان الشعراء يقفون فيه على ذكر الاهل والابناء والقرابة الذين كانوا ينتظرون الطعام وقد شدت عيونهم بمسالك الطرق في صحراء لا ترحم جائعا ولا تستجيب لصرخات اطفال تستبد بهم نزعات الرغبة الى الطعام .

ولا بد ان يتحدث هؤلاء الشعراء عن الذلة التي كانت تحيط بهؤلاء الجياع ، لتكون الصورة اشد تأثرا واكثر ايقاعا في النفوس .. ولكنهم كانوا يعودون بعد هذه الوقفات الى كرم نفوسهم وابائها ، وفخرهم بمغامراتهم في سبيل الحياة ، واقدامهم على المخاطرة لانتزاع اسباب العيش ويخلصون من ذلك الى الحديث عن خصالهم الحميدة والتزامهم بها ، ولم تكن صورة التجريد التي لمسناها في كثير من نماذج الشعر العربي بعيدة عن تصورهم وهم يذكرون العاذلة التي تلوم على الانفاق واهلاك المال الذى يستطيع الانسان ان ينتفع منه ، وهي اسقاطات حاول الشاعر ان يستخدمها للحديث عن كرمه وفلسفته وعطائه عن طريق هذا التصور الذى جرده من نفسه ليجد وسيلة ومبررا للحديث عن الخصلة اللامعة التي يريد التعبير عنها . ولم تكن صورة التجريد هذه مقتصرة على الكرم وانما امتدت الى الحديث عن المغامرة والمخاطرة والاندفاع وابراز صورة الصعلوك الجرىء ، وهي ملامح تؤكد انتفاع الشاعر من هذه الحالة التي وجد فيها انتصارا لفكره ، واقتدارا على التعبير عن طموحه الوثاب .

ان صورة الفقر الجماعي ، وحالة البؤس التي لازمت هذه الفئات من المجتمع استطاع الشعراء الصعاليك ان يبرزوها بشكل واضح ، ويعبروا عنها

بصورة مجسّدة استخدموا في ابرازها ما كان يدور في نفوسهم وتتحسسه مشاعرهم •

فالهزال والضعف وحرقة الشمس اللاهبة والاغماء والدوار والتحرق الى الطعام والم الجوع المضني ، وحرارة الجوف الخاوي • كانت نماذج متألقة من نماذج شعر هؤلاء • وقد عبر عن بعضها السليك في قوله:[٣]

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة     وكدت لاسباب المنية اعرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني     اذا قمت تغشاني ظلال فأسدف

وعبر عنها عروة بن الورد والاعلم الهذلي والشنفرى وتأبط شرا وكل الشعراء الذين وقعوا تحت طائلة الجوع ، وخضعوا لسطوته القاهرة ، وهم في تعبيرهم هذا كانوا يرسمون صور هذا الداء الذى اعترى المجاميع الكبيرة من الناس الذين كتب عليهم ان يكونوا في هذه المواقع ، وكانت هذه الصرخات تجد صداها في النفوس للتجمع والاستعداد لانتزاع الحق واستعادة الموقع المناسب ، فكانوا شعراء التزام ، شدتهم نزعة واحدة ، ووحدت بينهم ظاهرة ملحوظة ، فاندفعوا بايحاء من واقع متميز ، الى تحديد اشكالها الموضوعية وتشخيص اسبابها ، وتوجيه الجماعة وجهة التزام اخذت على عاتقها التعبير عن هموم الفئة المحرومة •••

ان شعراء الصعاليك يمثلون جانبا مهما من شعراء الالتزام للدفاع عن القضية التي ادركوا ابعاد حجمها في المجتمع العربي وقد دفعهم هذا الالتزام الى الاستهانة بالحياة من اجل تحقيق الوصول الى هذه القضية الحادة في حياتهم ، وصولا الى المكانة التي تؤهلهم لتسلم مواقعهم الحقيقية • ولهذا كانوا جريئين في الوصول ، اقوياء في تحقيق الهدف ، لاتمنعهم قوة ، ولاتحول دون هذا التحقيق فئة ، وقد ظلت فكرة الوصول عن طريق القوة ، وفرض الواقع الذى رسموا صورته في انفسهم ، تراودهم بشكل جماعي ، تعالت

(٣) ابو الفرج · الاغاني ١٨/١٣٥ والميداني **مجمع الامثال ١/٣٩٩** ·

صوره نفثات القصائد المتفرقة ، وتوافقت وحداته من خلاح النماذج الموضوعية التي استطاعت ان تقف متميزة عن صور الشعر العربي وهنا لابد من ايضاح صورة الموت الذى يمثل المرحلة النهائية من حياة البشر ، وقد جعلته فئة الصعاليك خاتمة مشرفة اذا لم تتحقق لهم الحياة الكريمة ، ولم يجدوا انفسهم واقعة في المواقع المحددة لها في المجتمع(٤) .

اذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح    عليه ولم تعطف عليه اقاربه
فللموت خير للفتى من حياته    فقيرا ومن مولى تدب عقاربه

لقد ظلت الصورة تتكرر ، وظل اندفاع الصعاليك يزداد في سبيل تحقيق الهدف . فالحياة عندهم ليست حياة وداعة ولين ، وهي لم تكن بطرا يمرون من خلالها مرور العابرين ، ولم يكن خوضها خارجا عن حدود الارادة الأنسانية ، ان الانسان في عالمهم عامل يؤدى دوره ، وفرد يساهم في بناء الحياة ، وفرد يسعى في سبيل العمل ، وهو لهذا ملزم باداء ما فرضته عليه طبيعة الحياة ، فالدور الذى رسم له لابد ان يؤديه على وجهه الاكمل ، ومن هنا نضجت فكرة العمل والسعي والكفاح والمغامرة وكانت صورة الرجل العامل تأخذ بعدها الحقيقي في معاني الشعراء الصعاليك لانهم كانوا يجدون فيها النموذج الحي فهو كضوء الشهاب المنور اذا لقي المنية لقيها حميدا واذا كتب له النصر عاش مُعزّزاً ..

ان انصراف الشعراء الى التعبير عن الادراك الحسي ، والتوجيه الاجتماعي ومحاولة استخدام الشعر في رسم الفكرة الاساسية لهذه الحركة تؤكد اهتمام الشعراء بهذا الجانب ، وخضوعهم الى المقاييس الانسانية التي جعلتهم يقفون هذا الموقف ويلتزمون بهذا الالتزام ، ويتحسسون مع الاخرين بما كانوا يعانونه وبذلك تقدم لنا هذه المجموعة الانسانية نموذجا ادبيا من نماذج الالتزام والتحسس ...

---

(٤) عروة بن الورد . الديوان ١/١٩١ .

ان تخصيص الصعاليك بهذا الحديث لا يعني ان الفئات الأخرى من الشعراء كانت تتخلى عن واجباتها ، او تنفض يدها عن التزاماتها ، وانما حاولت ابراز هذه المعاني ، للوقوف عند المحاولات المتقدمة التي عرفها الادب العربي ، ووضع لها الاحوال الطبيعية • وقد ظلت احاسيس الشعراء التي تدل على المشاركة ، واستشعار الالم ، والتعبير عن الخلجات تشكل علامة من علامات الوفاء الذى التزم به الشاعر العربي على الرغم من الاحساس الفردى الذى كان يبرز في بعض الأحيان • فالشاعر العربي ظل وفيا لقومه ، حريصا على تجمعهم ، ينتابه الاسى اذا تفرقوا ، ويستولى عليه الفزع اذا احس بدواعي التمزق ولعل نونية ذي الاصبع العدواني(٥) •

يا من لقلب شديد الهم محزون     امسى تذكر ريا ام هارون

تمثل النموذج الواضح لما كان يتحسسه الشاعر وهو يرى المأساة بين القبيلة الواحدة ، والتفرق والقتال الذى يصيب افرادها ، وقد حدد الشعراء مواقفهم في هذا الصراع، فكانوا يتميزون بالتعقل والحكمة والتأمل ويعالجون الاقتتال معالجة العارفين الذين يدركون العمق الحقيقي لاستمرار القتال ، وما يحمله من مآسٍ ، ويؤديه من فواجع ، وينتهي اليه من نهايات مريعة • ولم يكن الشاعر بعيدا عن هذا الواقع ، وانما كانت صرخاته تتعالى لايقاف نزيف الدم وكبح جماح الغارقين في فرديتهم ، ووضع الحد لكل التجاوز الذى يخلف التطرف في الاحكام ، ولم تكن مطولة زهير ببعيدة عنا عندما جعلها مخصصة لهرم بن سنان الذى وقف نفسه لاقامة الصلح بين عبس وذبيان واصبحت نموذجا فريدا من نماذج الالتزام الذى سخر الشعر لتوثيق الاواصر وشد العلاقات • لان الاقتتال بين العشيرة لا يؤدى الا الى الفناء •

وقد ظل الشعراء حريصين على علاقاتهم والتزاماتهم مع قبائلهم واهلهم على الرغم من البغضاء التي كانوا يتعرضون لها والجفاء الذى يفرض عليهم

---

(٥) المفضل الضبي • المفضليات ١/١٥٩ •

وربما كانت وجهات نظر الجانبين تمثل اختلافا بموضوعات فردية خاصة الا انها كانت تنعكس في كثير من الاحيان على الصلة التوجيهية التي اخذ الشعراء انفسهم بها • لانهم كانوا يدركون ان الموضوع الذى التزموا به لابد ان يخرج عن اطار المصلحة الفردية ، ويبتعد عن النزعات الانفعالية • وفي صورة ابيات المقنع الكندى ترتسم الملامح التي كانت تمثل النظرة الصائبة لموقف الشاعر من هذا الصراع حيث يقول[٦] •

| | |
|---|---|
| يعاتبني في الدّين قومي وانما | ديوني في اشياء تكسبهم حمدا |
| وان الذى بيني وبين بني ابي | وبين بني عمي لمختلف جدا |
| فان اكلوا لحمي وفرتُ لحومهم | وان هدموا مجدى بنيت لهم مجدا |
| وان زجروا طيرا بنحس تمرّ بي | زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا |
| وان هبطوا غوراً لأمرٍ يسرني | طلعت لهم في ما يسرهم نجدا |
| فان قدحوا لي نار زند يشينني | قدحت لهم في نار مكرمة زندا |
| وان بادهوني بالعداوة لم اكن | ابادههم الا بما يبعث الرشدا |
| وان قطعوا مني الاواصر ضله | وظلت لهم مني المحبة والودا |
| ولا احمل الحقد القديم عليهم | وليس كريم القوم من يحمل الحقدا |

ان اخفاء السلبيات التي تمثلت في الصورة الشعرية ، ومجابهته بما يعيد الى القوم وحدتهم كانت الرد الايجابي لمنطق الشاعر وهو يستعيض بها عن قومه ، ولابد ان تحمل هذه التصورات الجانب الاصيل الذى اخذ به نفسه ، وهو يحدد خطواته ، ويلزم بها منهجه الرائد الذى حملته به القبيلة •• كما تنطوى الابيات على التزامات تتداخل في ابراز كثير من الاوضاع التي عاشت في مجال العلاقات الفردية ولكن تجاوز الشاعر لها ، وتخطيه لما تعكسه من مردودات هو الرد الواقعي الذى عالج الواقع ، واوقف استمرار التفكك ، وانهى الصورة المتردية ••

---

(٦) المرزوقي • شرح حماسة ابي تمام ، ٣/١١٧٨-١١٧٩ •

ان مهمة الاحساس بالاسى في حالة التفرق والتضحية من اجل احياء القيم الخيرة التي حرص على احيائها المجتمع العربي القديم ، الى جانب التسجيل الوثائقي لكل الاحداث المهمة التي استطاع ان يؤكدها بانتصاره او اخفاقه وبكونه انساناً له موقفه المحدد في كل حركة والاعتزاز بالصفحات المشرقة التي رسمت للامة امل المستقبل الحقيقي .. هذه المهمات تركت بصماتها اللامعة على الانواع الادبية وتركت للاجيال الخيار في تقدير مسيراتها ، وتحديد جوانبها الانسانية . لقد مهدت الاوضاع العربية التي سادت الجزيرة العربية قبل الاسلام الى قبول الدعوة لالتقاء المثل العربية بالمبادىء السمحاء ، وكيانه الانساني تحقيقا لما كانت تسعى اليه ، وتأكيدا لقيمها التي الاخلاقية الرفيعة وتثبيت الاسلام لهذه القيم ، ووقوف الاعراف العربية والاصول التي بني عليها الاسلام موقفا موحدا من كل الاشكال التي تخرج في اصولها عن الطريق السليم ، وقد ادى هذا الالتقاء والاتفاق الى ان تجد الدعوة الطريق امامها سهلا ، فاستقبلت جحافل الامة مبادىء الدين بيسر ، وباشرته بقناعة والتزمت به عن وعي وادركت ان في نهجه القويم ، وتعاليمه السمحاء ، وكيانه الانساني تحقيقا لما كانت تسعى اليه ، وتأكيدا لقيمها التي شوهت بعض قيمها ، فطغت عليها تعاليم وعادات بعيدة عن العالم النفسي الذى كان يتملكهم . وقد اصبحت المدينة ، المركز الحصين للدعوة موئل الاشعاع الفكرى ، ومنار العقل الذى يدفع الحقيقة قوية في ربوع الجزيرة، ولم تعد ميدانا تتهاوى فيه الكتل البشرية صريعة العصبية او مدينة تحرقها وقود الاقتتال وتمزقها مرارة الاحقاد ، وانما تحولت الى قاعدة تهفو اليها القلوب التي تريد الاهتداء وموقع ترنو اليه الابصار .

ان اهتمام الدعوة بالتغيير الاجتماعي واهتمامها بالتغيير الاقتصادى لازالة الحيف الذى لحق بالمجتمع واعادته الى الطبيعة الانسانية التي تركت للمرء حق الحياة وتركت له حرية العيش استطاعت ان تستقطب المجاميع

البشرية التي ادركت جوهر الدعوة وعرفت مطامحها واستوعبت غايتها الانسانية وبذلك تمكنت مدينة الرسول ( عليه الصلاة والسلام ) ان تفرض هذا التغيير في البنية الاجتماعية والتركيب السياسي كما استطاعت ان تحقق لهذه المجاميع التي وقفت نفسها للدعوة تغييرا نفسيا واضحا تمثل في تألف القلوب بعد فرقتها ، وتوحيد الجهود بعد تشتتها ، وانهاء الاقتتال واستئصال جذور اتقاده وازالة اسباب الحقد ، وتطهيرها من عناصر الشغب التي كانت ترى في تلاحمها فرصة للاجهاز عليها ، وقد منحها هذا الموقع مركز الصدارة في احتضان الدعوة واحتضان قادتها واتخاذها مركزا تنطلق منها قوافل التحرير لاستئصال عناصر الاضطهاد وترسيخ قواعد الدعوة وتأكيد مثل العقيدة فكانت مبادىء الايمان والاخاء والفداء مبادىء صريحة تنادي بها الدعوة وتؤكد الالتزام بها في كل مجال من مجالات الحياة ، وقد اخذ هذا السلوك يشتد في النفوس ويتعمق في المشاعر حتى بلغ أغواراً بعيدة ، تمثل في ضروب التضحية التي قدمتها طلائع الدعوة ، وانواع الفداء الذى ارتسم في ساحات المعارك ومعاني الاخاء التي تحولت الى مودة دائمة .

ان الادب لم يقف امام هذه الاحداث موقف المتفرج ، وان الاديب لم يبتعد عن الدائرة وان وظيفته لم تقتصر على الاغراض التي اقتصر بعض الشعراء على استخدامها في العصر القديم وانما اصبحت الوظيفة الجديدة وظيفة تختلف من الاساس عن المهمة التي اضطلع بها ، لان الاوضاع الاجتماعية والسياسية اصبحت اوضاعا تفرض عليه الدخول في اطارها لتحمل المسؤولية ، وابراز الشكل الجديد للاهتداء به ، وتأكيد القيم للالتزام بها والحث على المثل العليا للاقتداء بمنطوقها الجديد ، ولابد ان يكون الشاعر قادرا على تطوير فنه على وفق الروح العصرية الجديدة لتستطيع افكاره ان تجد لها الموضع الحقيقي .

لقد فرضت الظروف الجديدة على شعراء الدعوة ان يأخذوا مواقعهم،

وفرضت عليهم ان ينزلوا الى الساحة مقاتلين ومدافعين ، موجهين ومرشدين، يستمدون العزم من سلامة الدعوة ، ويستلون الحجج من دستورها المبين ، مبطلين الحجج ومفندين الادلة ، وقد ادرك الشعراء الثلاثة حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة ، مهمتهم التاريخية في الوقوف امام شعراء المشركين امثال عبدالله بن الزبعرى وابي سفيان بن الحارث ، وضرار بن الخطاب . وقد استطاعوا ان يكونوا اندادا لهم في المقارعة يردون عليهم بالعنف الذى اوجبته طبيعة المعركة ، مستفيدين من المجد الذى استطاع الاسلام ان يقيمه خلال الفترة الزمنية ويعارضونهم بالوقائع والايام والمآثر ، ويعيرونهم بالمثالب كما كان عبدالله بن رواحة يغيضهم بالكفر ، وينعتهم بالشرك ، وكان ذلك اوقع في نفوسهم بعد ان اسلموا وفقهوا الاسلام .

ان نظرة واحدة الى دواوين او قصائد هؤلاء الشعراء تكشف عن الجهود الكبيرة التي بذلوها في استخدام الشعر في سبيل الدعوة ، دفاعا عن قيمها ومدحا لاصحابها ورثاء لشهدائها وقد شغلت غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام مكانا فسيحا للرد على المشركين ومناقضتهم والوقوف امام حملاتهم والرد عليها وفي هجاء المنافقين وكشف دسائسهم ، وتفنيد ادلتهم، وهتك حججهم ، والتصدى لخصوم الدعوة ، وفضح مخططاتهم التآمرية ، وما يبيتونه لصاحب الدعوة وما يثيرون من فتن ، ويؤججّون من احقاد ، ويرسمون من مكائد ، وفي تسجيل مواقف المدح لصاحب الدعوة وكبار الصحابة ، والاشادة بمواقفهم البطولية والانسانية ، وتمجيد تضحياتهم وتسجيل مأثرهم والفخر بما كانوا يقدمونه من اعمال في طريق المسيرة وفي رثاء الشهداء الابرار الذين كانوا امثلة فريدة من امثلة التضحية ، ونماذج رائدة في طريق الوفاء بما قدموه من اعمال نادرة ، وافعال جليلة ووقائع خالدة .

ان الشعراء الاسلاميين الثلاثة ، الى جانب الصيحات الاخرى التي كانت

تتعالى من أفواه الشعراء الاخرين كانت تسجل احـداث الفترة بواقعيـــة واخلاص وتستوعب الاحداث استيعابا متكاملا الى حد ما، لانها كانت تمثل سمو الموضوعات التي عالجتها ، ورفعة الهدف الذى قصدت اليه ، ونبل المعاني التي كانت تعرض لها ، فهي قصائد ملتزمة ، يسلك بموجبها الشعراء المسلك الانساني الذى حملته الدعوة ، وحاولوا اثبات الغاية النبيلة التي دعا اليها الاسلام ، والسعادة التي يحصل عليها الانسان في الدنيا والآخرة وتحبيب الموت في سبيل العقيدة ، وقد استطاع الشعر في هذه المرحلة ان يؤدى مهمته السياسية والدينية بشكل يثير الانتباه ، لانه استوعب الفكر واستجمع القوى ووجهها وجهة انسانية حققت لها الوحدة ومهدت امامها طريق التحرير الذى اصبح سمة من سمات الدعوة .. وكثيرا ما كانت الافكار تأخذ دورها في قوالب الشعر ، وصياغة الالفاظ لتحل في الموقع المناسب من خلال المقارنـة الهادئة ، والموازنة المنطقية وابراز الجوانب المحسوسة فالايمان لـه دلالته في النفس ، والمعتقد له قوته في الدفاع وهما بالتالي يشكلان القاعدة الركينة في بناء الشخصية المستقيمة ، ويقابل الايمان الكفر وما يترتب عليه ويتسرب منه وينطلق من التمسك به من ضياع وتفكك وقد ظلت هذه الصور وما يتفرع منها ، والمعاني وما يختفي وراءها مثار حديث طويل ، توغلت صوره فـــي النفوس وتركزت نتائجه في العقول ، احداثا متداخلة ، واثارا نفسية مثيرة ، وهم لم يتركوا المعاني التي كانت تتصل بالاحساب وتنصرف الى المآثر وتذهب الى تعداد المفاخر ، لانها كانت تشكل سندا من اسانيد التكوين الفكـــرى والحسي ، لان هذه المعاني كانت ما تزال قويـة في بعض النفوس ، ولعـل المقولة التي كانت تتردد من ان هجاء حسان وكعب لقريش قبل اسلامهم من اشد القول عليهم ، واهونه عليهم هجاء عبدالله بن رواحة ، فلما اســـلموا وفقهوا الاسلام كان اشد القول عليهم هجاء ابن رواحة . هذه المقولة تحدد لنـــا الطبيعة التي كان الشعراء يستخدمونها وهم يعلمون ان اختيار المعاني المناسبة كان له وقع في نفوسهم ، وان استخدام الصيغة المزدوجة المعتمدة على

المأثور والمعاصر كانت تشكل نقطة البراعة في هذه القصائد • وأن احساس الشعراء بالمهمة الحقيقية التي اضطلعوا بها في هذه المرحلة وقدرتهم على تحديد الموقع الذى حددوه لانفسهم يكشف عن العمق الفكري الذى اصبح من السمات البارزة في حياتهم ••

ان هؤلاء الشعراء لم يقتصروا في شعرهم على الدفاع عن الدعوة او رصد المناهضين لها وانما حاولوا ان يشاركوا في كل جانب من جوانبها فقد شاركوا في رثاء قتلاها وتمجيد شأنهم وتهديد اعدائهم وتوعد خصومهم• وتقدير مناقب الشهداء التي اخضعوها للقيم الجديدة وقد هيأت هذه الاحداث الى تحديد ملامح البطل الذى كانت القصائد تسعى لتصويره بطولة واقداما وتضحية ووفاء ، ولعل الصفات التي ظلت تتعالى في قصائد الشعراء وهي تستقر في بؤرة الاستشهاد تمثل الابعاد الحقيقية للبطل الجديد الذى استغرقت خصائصه معالم الدعوة ، وارتسمت آفاق تصوره في المعاني السامية التي اجمع الشعراء على تحديدها • وقد دفع هذا التصور والتكريم الجحافل الجديدة التي ارتضت الاسلام دينا وطريقاً الى الوقوف بحزم امام المشركين، والذود عن القيم الكريمة التي احتواها، والاندفاع بحماس نحو السير في طريق تحرير الانسان من عبودية الوثنية ، وتهديم الاغلال التي حالت بينه وبين الحياة العزيزة •

ولابد ان يرتبط بشعر الدعوة شعر التحرير الذى عرف باسم شعر الفتوح ، فالعرب لم يفتحوا بلاد فارس والروم ولم يدخلوها فاتحين ، وانما كانت قوافل التحرير الاسلامية تحمل المبادىء الانسانية الرفيعة ، وتنشر القيم الاخلاقية السامية ، وتعيد الى الانسان كرامته في ظل الدعوة ، وحريته في نطاق الاطار العام ، ومنزلته في كيان المجتمع الجديد ، وقد اهلت هذه الحركة الانسان الى ان يقبل اقبال المؤمن ، ويرضى رضى الواثق ، فيقدم الى الانضمام ويساهم في البناء ، ويندفع في البذل والاستشهاد ، ولعل اتساع الرقعة العربية ، وارتفاع راية التحرير فوق الربوع المحررة ، وبروز نماذج

الاستشهاد من سمات تلك البلاد يؤكد سلامة الاتجاه الذى حققته الدولة العربية في المراحل الاولى ..

ان الشعر لم يقف صامتا امام هذه الاحداث ، والشعراء لم يصمتوا وهم يشاهدون هذه الحركة الظافرة التي بدأت تهز المجتمع هزا ، وتغير الواقع تغييراً اساسيا ، فكان الشعر على السنة المحررين منذ اللحظات الاولى، يصور المعارك ويرسم وقائع الاحداث . ويحيط احاطة متمكنة بالمشاعر والاحاسيس التي كانت تتركها هذه المعارك والوقائع . وهي احاطة تركت له قيمة كبيرة، واهلته لئن يعد من الوثائق المهمة في دراسة الاحـداث ، واعـادة تقييمهـا ، وتصحيح ما ذهب اليه البعض من اراء في تحديد عوامل التحرير .

ان الاستيعاب الحقيقي لمداول الحياة الجديدة ، واستيعاب القدرة على تقديم الشكل المناسب وفق هذه القيم هو الاساس الحقيقي لكل التقديرات النقدية التي لازمت الادب في هذه الفترة ، وان الاستدلال لم يترك اثره على جانب واحد وانما امتد الى كافة المجالات . وقد استطاعت معطيات المظاهـر الادبية التي اصبحت ملزمة ان تفرض نفسها على الواقع الادبي فجعلته يتخلص من التزامات كثيرة ربما كان ينوء تحت اعباء بعضها ، وان هذه الطبيعة هي التي فرضت على الشاعر ان يباشر الحدث ويعيش الزمن ويتحسس الواقع ولهذا كانت الاستجابة سريعة ، والانعطاف حادا وبدأ البيت الشعرى يستوعب الغرض ، ويؤدي الفكر ، ويحمل الخفقة الانسانية المتألقة التي اراد الشاعر ان ينقلها الى الاخرين ليدركوا مهمتهم التاريخية ، ويعلموا الواقع الذى فرض عـلى الامة وهي تقود الجحافل وتدفع مواكب التحرير انقاذا للانسان ـ مهما كان ـ من عنفوان الجبروت ... وربما كانت المسؤولية المباشرة والاحساس بالواجب المقدس هو الذى جعل الشعراء يتحدثون بضمير الجماعة وليس بضمير الفرد، ادراكا للمسؤولية الجماعية ، وانطلاقا من اتحاد الوجدان الذى اصبح الطابع المميز ... فالمحررون كانوا يخضعون لغاية واحدة ، ويسـعون لتحقيق

شعارات واحدة ، ويجاهدون في سبيل تأمين الحياة لكل البشر •• وقد ظلت رسالتهم خالدة في المجال التاريخي وهي تحمل سمات الانسان المحرر الفاتح.

ان الفرد العربي الذى استطاع ان يتحدث وفق المنطق الجماعي لم يغفل وجدانه الفردى او القبلي وانما كان يصدر في بعض الاحيان عن نفسه في كثير من الجوانب على الرغم من كون هذه النفس بضعة من نفوس الاخرين الذين يرتبط معهم بالذات والوجود ، وان هذا الاحساس المعبر كان في واقعه تعبيراً عن الحس الفردى في الاطار الجماعي الذى يلتقي في كثير من الاحيان في الهدف المرسوم والغاية المحددة والاتفاق المخطط له •

ان الشعر في البلاد المحررة لم يقف عند مهمة الاشادة باعمال التحرير والبطولة ولم تتحدد واجباته في اطار المعاني التي حملها العرب الى هذه الارض الجديدة ولكنه بدأ يدعو الى الالتزام بالحدود والاخذ بمبدأ العدالة والسير وراء المثل التي حملتها دعوة التحرير هذه فالعدالة لابد ان تسود وتوزيع الفيء لابد ان يأخذ طريقه• وقد بدت اثار ذلك واضحة في كثير من القصائد التي بدأ اصحابها يجادلون اصحاب الامر في تقسيم الفيء ، ويحاسبونهم عن تبديده وتوزيعه لمن لا يستحقونه من الناس ، كما كانت شكوى الشعراء ترتفع من معاملة بعض العمال والولاة والامراء لتصرفاتهم غير المقبولة ، واستغلال مناصبهم ، وكانت دعوى الشعراء صريحة لمعاقبتهم ، وتجريدهم من مهماتهم ولعل ابيات يزيد بن الصّعق الى عمر بن الخطاب التي تؤكد فيها هذه المحاسبة خير دليل على الدعوة التي اكدتها القيم الجديدة حيث يقول(٧) •

ابلغ امير المؤمنين رسالة فانت امين الله في النهى والامر

وانت امين الله فينا ومن يكن امينا لرب العرش يسلم له صدرى

فلا تدعن اهل الرساتيق والقرى يسيغون مال الله في الادم والوفر

---

(٧) البلاذري . فتوح البلدان ٣٨٤ والاصابة ٢/٢٩٦ .

ولا تنسين النافعين كلاهما ... ولا ابن غلاب من سراة بني نصر
وما عاصم منهما بصغر عناية ... وذاك الذى في السوق مولى بني بدر
وارسل الى النعمان واعرف حسابه ... وصهر بني غزوان اني لذو خبر
وشبلاً فسله المال وابن محرش ... فقد كان في اهل الرساتيق ذا ذكر
فقاسمهم ـ نفسي فداؤك ـ انهم ... سيرضون ان قاسمتهم عنك بالشطر
نئوب اذا ابوا ونغزو اذا غزوا ... فانّى لهم وفر ولسنا ذوى وفر

ولعل اشعار عبدالله بن همام السلولي وقصيدته التي هجا فيها عامر بن مسعود والي الكوفة وذكر فيها بعض عماله الذين اساءوا السيرة ومالوا الى الخيانة تعد صرخة اخرى من صرخات الشعراء الذين وظفوا الشعر للتعبير عن احساس المظلومين ، وجندوا طاقاته لايقاف المسؤولين على اعمال اولئك الذين تركت اليهم احوال الرعية ... وهي ظاهرة لها مدلولها السياسي في دراسة الشعر والاحداث ، لانها صورة النزوع الى معالجة الواقع وصورة الادراك باهمية الشعر في الوقوف الى جانب الطبقة التي جاءت الدعوة من اجلهم تحريرا وعدلا وانسانية .. وهي اتجاه يجب ان يأخذ طريق الدراسة اليه سبيلا للكشف عن ابعاده ، لانه ادب الحقيقة الانسانية ، وادب المعالجة الموضوعية وادب الالتزام الذى عالج الشعراء العرب من خلاله الاغراض الشعرية الموجهة ... فابن همام السلولي يقول:(٨)

يا ابن الزبير ، أمير المؤمنين ، الم ... يبلغك ما فعل العمال بالعمل
باعوا التجار طعام الارض واقتسموا ... صلب الخراج ، شحاحا قسمة النفل
وقدموا لك شيخا كاذبا ، خذلاً ... مهما يقل لك شيخ كاذب ، يقل
اشدد يديك بزيدٍ ان ظفرت به ... واشف الارامل من دحروجه الجعل

---

(٨) عبدالله بن همام السلولي . الديوان . مجلة العرب . السنة الاولى ، وينظر الجزء الخامس من انساب الاشراف ص ١٩١ وما بعدها .

وعلى الرغم من كل الاشكال الثقافية والفكرية السياسية التي قدمها عصر الدولة العربية في الخلافة الاموية فان ملامح العصر في الحصيلة التاريخية المثبتة لم تكن متناسبة مع عظمة العصر ، ومع الانجازات الحضارية التي اكتملت فيه ، والتوسع الهائل الذى صاحب مسيرته ، فهو عصر التحرير والتعريب والتنظير ، تقدمت فيه جيوش الامة لتعيد الى الشعوب المظلومة حريتها ، وانسانيتها ، وتنقلها الى الفصيلة البشرية التي يجب ان تكون فيها وقد استطاعت الدولة في فترة قصيرة من تحقيق ذلك فكانت حركة التحرير الواسعة التي شملت المشرق والمغرب وكان ابطال التحرير يسجلون المأثر وهم ينسابون فوق الارض المحررة ، وينتزعون اعجاب هذه الشعوب ، بما حملوه اليها من قيم رفيعة ، واخلاق انسانية سامية ، ومواقف استحقوا عليها التقدير، وظلت اسماؤهم نماذج للقادة الخالدين في التخطيط العسكرى او التعبوى او السوقي ... وهو عصر التعريب الذى ادرك اصالة التوجيه من تعريب الدواوين . وهي خطوة لها ابعادها في العمل الادارى والفكرى لان الدولة اصبحت عربية خالصة ولايمكن ان يكون فيها مايشين هذا الوجه او يغطي اصالته العربية . وهو عصر التنظير الذى بدأت فيه المسائل تأخذ شكلها النظرى في نطاق الحكم والنظم والادارة . وبدأت الاشكال التنظيمية تتركز وفق التطور الجديد الذى استجد ، والتصور الحادث الذى يمكن ان يستحدث..

اننا نستطيع ان نقرر ان بواكير الاعمال العلمية قد حققت في هذا العصر وربما تجاوزت هذا الحد ، لان الاخبار تؤكد ان يوحنا الدمشقي بن جرجيس الذى كان امين بيت المال في خلافة عبدالملك بن مروان ، كان وزيرا لهشام بن عبدالملك فادخل فلسفة اليونان ، كما ان عملية الترجمة بمفهومها الدقيق تعزى الى هذا العصر ، وقد دلت كل الاخبار التي وقف عليها الباحثون اخيراً على ان عصر الدولة العربية قد شهد حركة نشيطة للترجمة استطاع من خلالها ان يرسم الخطوط الاولى لها .

ان هذه الملامح البارزة التي شملت الجانب الحضارى والفكرى ، في هذا العصر وامتدت الى الواقع الاجتماعي الذى بدت صورته تتغير وفـق الاشكال الحياتية الجديدة • لابد ان تعاد دراسته اعادة علمية دقيقة ليأخذ حجمه المناسب في بناء الدولة العربية •

ولابد ان تعاد دراسة التاريخ الذى كتب والفكر الذى دون والادب الذى سجل والحضارة والعسران الذى اعطيت فيها الاحكام ، ولابد ايضا ان تأخذ الدراسة الموضوعية بعدها الحقيقي في هذا الحيز ، لتعيد الى التاريخ صفحته والى الفكر اصالته والى الادب والحضارة وجههما الحقيقي • وقد آن الاوان لدراسة الصورة التي ظلت الاجيال العربية تعيد رسمها بشكل مغاير، وتفقه مسائلها وفق منطق لايمنح ابناء الامة غير الابتعاد والازورار عن تمثل حقائقها واستيعاب قدراتها ••

ان الاديب في هذا العصر اخذ دوره في معالجة الاحداث ، لانه كان جزء منها ، واخذ مكانته في المجتمع ، لانه عامل اصيل من عوامله ، واخذ بعده في التوجيه لانه اداة من ادوات التغيير ، وان مشاركته في الاطراف البارزة ، والاحداث الكبيرة يدل على ادراكه لهذه المهام التي تحسسها والتزم بها • وقد استطاع ان يثرى الادب في هذه الفترة بما لون عقليته ، بعد ان استوعب من الثقافات الجديدة التي زخر بها العصر ، كما استطاع ان يوجه مقود المحاورات والمناظرات وفق الاشكال التي آمن بها ، معتمدا الحجة والبرهان ، ومستندا الى العقيدة التي اصبح من المدافعين عنها ، فتغيرت الصورة الادبية في البيئة الجديدة تحت تأثير النقاش العلمي والحوار الموجّه ، واستطاع بعض الشعراء ان يستخدموا المناظرات الكلامية والفقهية في بعض اغراضهم ، كما استطاع البعض الاخر منهم ان يحول المجرى الشعرى للدفاع عن العقيدة التي آمن بها ، وقد تركت فكرة شعر العقيدة الذى اصبح الوجه البارز من وجوه الشعر العربي اثراً واضحاً في الالتزام العقيدي والدفاع عن الرسالة التي آمنت بها الامة ، وهي محاولة من محاولات الارتباط الفكرى •

ان الشاعر الذى وضع نفسه في خدمة الدولة طوال اربعين عام لايمكن ان يكون بعيدا عن الفكر الذى تمثله هذه الدولة ، وان الشاعر الذى استطاع ان يؤكد حق هذه الدولة في البقاء ، لا يمكن ان يصدر في احكامه عن الهوى الفردى ، او التصور السطحي ، وان الشاعر الذى وقف امام جحافل خصوم الدعوة يدعو لمبادئها ويذود عن وجودها وفكرها ، لايمكن ان ينطلق منزاوية المصلحة الذاتية او الشخصية التي شاء لبعض المؤرخين ان يتقولوا بها ...

ان شعراء الدولة العربية في هذه المرحلة ـ بمختلف الاتجاهات ـ يمثلون مرحلة النضوج الفكرى الذى وصلت اليه الدولة ، استيعابا وتطبيقا، وان الاختلاف الذي كان يبرز من خلال المناقشات او الحجج لايمثل الا اجتهادا فكريا تفرضه طبيعة الحياة الفكرية وتؤكده نزعة الدولة القائمة التي تركت للفكر العربي مجاله الخلاق لتقديم النموذج الامثل . وان محاولة الوقوف عند ظواهر الالتزام في هذا العصر كثيرة ، يدخل بعضها في نطاق الشعر السياسي ، والفكرى والحربي وشعر المديح والنقائض والغزل العفيف ، وكلها الوان شعرية درست من غير منظورها الحقيقي ، وثبتت في شأنها احكام بعيدة عن غرضها الاصيل ، وحمل اصحابها من التهم والمواقف ما كانوا بعيدين عنه كل البعد ، وقد تركت هذه الاحكام بصماتها بشكل واضح على الدراسات الادبية القديمة والمعاصرة فازدادت هوة الابتعاد ، وانفرجت حلقة التنافر بشكل متسع ، وغلب الطابع التقليدى على الدراسة اكثر من الطابع الجدى في المتابعة واستقراء النصوص ، وانتقل الباحثون الى مرحلة الاهتداء والاقتداء بلا تحقيق ، وقد ظلت هذه التراكمات تأخذ احجامها في المجال الجامعي والتدريس والتآليف ، وبدأت الاجيال العربية تلوك المقولات وهي تشعر بالاسى ، وتتسلّم الاحكام وهي تتجرع الغصص ، وتردد الاقوال وهي تحس بالخيبة .

ان هذا الواقع الادبي الذى فرضته الاحكام الفردية ، وعملت على

احيائه الاقلام غيرالموثقة لابد انيتغير، لتستقيمالصورة وتبرز الملامحالاصيلة للفكر .. لان الشعراء اغنوا الفترة بنتاج فكري وحضاري وعقيدي ، واغنوا الفترة بنتاج أدبي وانساني وقومي ، هو مجالخصب" للدراسة ، وحقل جديد للتقويم ومرتع وفير لاستجلاء الحقائق ..

ان تركيز المؤرخين على جانب النقائض من شعر جرير والفرزدق والاخطل وترك الصورة الاصيلة التي كانت تتمثل في دفاعهم عن قيام الدولة وابطال حجج خصومها او الرد على اعدائها يعد جناية ادبية كبيرة ، وقد ادى ذلك الى ان تكون صورة هؤلاء الشعراء في الاذهان مقترنة بالهجاء المقذع والشتم البذيء والاستهانة بالقيم . ان اعادة النظر في دواوين هؤلاء الشعراء وفق الدراسة الجديدة ، وتقويم الشعر من خلال التصور الحقيقي للدوافع التي كانت تقف وراء فكرهم في حق الدفاع تسجل العلامة الاولى في الدراسة الادبية .. وانني استطيع ان اؤكد ان هؤلاء الشوامخ الذي يمثلون قمة الشعر العربي في هذا العصر قد درسوا من زاوية ضيقة ، واخضعوا لاحكام قاسية وابعدوا بشكل متعمد عن الدرب الذى وضعوا انفسهم فيه . وان أيةَ دراسةجديدة من زاوية اخرى تحققلهمشكلا آخر وتمنحهم موقعاً جديدا، يختلف كل الاختلاف عن الموقع الذى حشروا فيه قصدا وضياعا ...

ومثل جرير عمر بن ابي ربيعة والحارث المخزومي وجميل بثينة والعرجي ويزيد بن الطثرية وتوبة بن الحميّر والمجنون وقافلة الشعراء الغزلين الذين طوتهم اقلام الكتاب في سجل الضائعين ، واختزنتهم دفاتر الادب في عداد الحائرين او التائهين وهي صورة سبق لي ان وقفت عليها فابديت تحفظي على الاحكام التي الصقت بها ، وابطلت الحجج التي اختفت وراءها ، واكدت الوجه الناصع لاتجاه هؤلاء ، وما تحمله عفتهم من توجيه ، وما يحققه التزامهم من افكار انسانية هي اقرب الى التضحية منها الى العبث . كما اكدت ان الزوايا المعتمة التي نظر اليهم من خلالها قد اساءت اليهم اساءة بالغة ،

واغرقتهم في عالم الوهم والخيال ، وتركتهم نهب احكام غير مدروسة وجردتهم من الانسانية الحقة التي كانوا يسعون الى تأكيدها من خلال تضحيتهم، وسلبتهم العاطفة السامية التي كانت تحمل اعلى نموذج من نماذج الخلق البشرى الرفيع .. ولو حاول كل المؤرخين الذين شاركوا في تلك الاحكام استقراء شعر هؤلاء ، واستجلاء الصور التي جعلوها علامة كبيرة من علامات حياتهم لعجزوا عن تقديم الادلة ، وتاهوا في عوالم التفسير الغيبي ، وضاعوا في زحمة الاحكام المتناقلة ...

وما ينطبق على جرير وعمر بن ابي ربيعة ينطبق على الشعراء الاخرين الذى رسموا للشعر طريقه الواضح ، وفتحوا للمعاني مكامن استعمالاتها ، وقدموا للتراث العربي ثمار النضج والاكتمال .. وهي مبررات تدفع كل الغيارى الى اعادة النظر واستشفاف البعد الحقيقي الكامن وراء هذه الانماط ليأخذ الشاعر العربي موقعه الذى سجله واقعا من خلال وجوده ، ويتبوأ المركز الذى شغله فعلا وهو يمارس صنعته ومهنته في الاطار الفني والفكرى .

ولعل ابرز نموذج لسيطرة هذه النزعة تلوح من ثنايا الاحداث التاريخية التي امتدت الى هذه الفترة، واسدلت فوق مجدها الفكري حجابا ثقيلا ، حال دون الاهتداء اليها ، وقد ادرك بعض الباحثين المعاصرين هذه الحقيقة وادرك الدوافع الاساسية التي حالت دون ابراز الجوانب الحية التي اصبحت سمة متميزة من سماتها المشرقة ، وربما كان ازدحام الفترة بالاحداث وتكالب القوى التي شعرت بالضياع والحيرة بعد قيام الدولة الجديدة، واحساسها بتوحيد الامة وترسيخ دعائم استقرارها ، وتهاوى الدول القديمة امام جحافل الفكر والثقافة المؤمنة بالقيم الخلقية النبيلة التي اصبحت جزء من حياتها قد دفعت هذه القوى الى اختلاق الاحداث وتزوير الحقائق ، والتشهير بما هو خير ، وتوجيه المسائل الى غير وجهتها الحقيقية .. وقد أطمست المعالم الاصيلة لكثير من جوانب الحياة الفكرية والادبية حتى اصبح ذلك ظاهرة طبيعية في الادب العربي ، يمكن الوقوف قليلا عند شعر العقيدة

الذى كان يمثل الغرض البارز في هذه الفترة لنرى مدى التهاون الذى اصابه والضياع الذى لقه ، لما يحمله هذا اللون من سمات معبرة ، ويتصف به من صفات يلازمها الايمان المطلق بصدق العقيدة ، وتدعمها الحجة الناجحة في سلامة الاتجاه ( كما يراها شاعر العقيدة ) ومن الطبيعي ان يتعرض هذا اللون ـ من جملة ما تعرض له الادب والفكر ـ الى الطمس المتعمد ، والتزوير الشائن ، والتحريف المقصود ، لضياع اصوله ، وتحريف دعوته ، واخفاء معالمه ، او انه يصبح اداة تغيير يستخدم لتثبيت حق غير قائم ، او ابطال حق قائم ، او تأييد فكر لا يتفق مع المفهوم السائد لقيام الدولة ، او انكار دعوة يجد فيها اصحابها سلامة موقفها .. او امور اخرى لايمكن ان تحصر في هذا المجال .

وقد عرف الاديب العربي ـ في عصوره المختلفة ـ هذه الظاهرة بشكل موسع ، وبرزت ملامحها لدى بعض الشعراء بهيئة بارزة ، حتى كادت ملامح بعضها تطمس وتندثر لما رافقها من احداث واعقبها من ملابسات ...

ان هذا الادب الواضح ـ ووفق الصيغ الفكرية الايجابية التي كانت تمثل النضج والتكامل ، قد البس رداء آخر ، واخرج اخراجا مغايرا ابرز الامة منقسمة ، واظهر الواقع خصومة واطرافا ، وجعل الاجتهاد مكاسب يدفعها المركز السياسي ، ومطالب يؤججها التهالك على العطايا الانية ...

ان ازدهار شعر العقيدة يمثل قدرة الامة على التفكير ، وقوتها على المجابهة والبقاء وامتلاكها لزمام المبادرة في تحويل الحركة العلمية لصالح القيم الاساسية التي تمتلكها ، لاننا نعلم ان هذا الشعر يولد في الجهة المعاكسة تيارا يناهض هذا اللون ، ويقف حياله ، للرد عليه بالحجج لابطال حقائقه او تفنيد اسبابه ، ومن خلال التنافس الشعرى ، والمناظرات العقائدية والمواقف التي تتبارى فيها الافكار والاحكام تتألق براعة الشاعر الناجح ، وتشرق قسمات قدرته الفنية في السيطرة والاستحواذ حتى يكتب لدعوته ادبيا ان

تعيش في نفوس هواتها وعشاقها ، تراثا شعريا ، وعقيدة سليمة ، وقد ادت هذه العملية المتفاعلة الى خلق ادب عقيدي واضح ، تنكشف من ثنايا ابياته حقائق الدعوات ، وتبرز من بين مناقضاته اصول المواقف التي عجز التاريخ عن ابرازها ، وقد خلق هذا الادب بحدية حركة ادبية واسعة اخذت صفحات متميزة وطبعت نفسها بطابع شعرى مختلف ، احتوت الالفاظ بمدلولاتها ، والاساليب بما كانت ترمي اليه ، والمعاني بما كانت تقصده وتعنيه ، وقد امتدت ابعاد هذه الحركة الشعرية بهيئة شاملة ابتداء من الدعوة الاسلامية ، ثم بدأت اطرافها تأخذ صورا جانبية ، وتخفق بقلوب تعاظم فيها حب الدعوة، وترسخ في طياتها تمثل العقيدة ، فقدمت قوافل الشعراء وهم يرسمون الخطوط العامة للفكر الناضج ، وينشرون الاصول الواضحة لمناهجه واساليبه ومقوماته • منتفعين من تراكم الاحداث ، واستنباط الاحوال ، واتخاذ المقاييس والادلة لبث المفهوم السائد في اذهان الدعاة ، وتركيز الدعائم التي تبنتها حقائق الدعوة ، وتقويض الحجج التي يستند اليها الخصوم بشكل ايجابي وبناء • وكانت صيحات هؤلاء الشعراء ـ على الرغم من قوتها وايمانها ـ تضيع احيانا في زحمة النفوذ السياسي وتتبدد في غمرة الاحداث في الاحايين الاخرى لاسباب كثيرة ، ويكتب لبعضها البقاء في الذهن اذا وجدت الاستجابة لها قائمة ، وعناصر الاستيعاب متوفرة ، ووسائل القناعة قد اخذت قدرتها على امتلاك رغبات الموالين •••

ان الصورة الشاملة التي تمخضت عنها كل الاحداث ، وتفاعلت في اطارها شتى الدعوات استطاعت ان تمد قدرتها عبر الزمن على الرغم من قسوته ، وتمكنت من الدفاع عن وجهات النظر المختلفة التي آمنت بها ، حتى اصبح هذا الفيض الشعرى الذى خلفته الحركة الفكرية لا يمثل الجانب الادبي وحده وانما هو انعكاس لقدرة الامة الفكرية ، ومدى استشفاف مفكريها لما تؤديه هذه الحركة من نتائج ، وتقدمه من معطيات ، وقد افلح

زعماء الفكر العرب والمسلمون في هذا التصور ، واستطاعوا ان يقدموا الثمرات الفكرية التي تفتحت بواكيرها في مطلع القرن الثاني والثالث الهجريين ، والنتائج التي تمخض عنها الصراع الفكري من خلال النقاش الموضوعي الذى احتدم ، والصراع العقيدى الذى انتشرت افكاره وشمل جوانب الحياة بكل ابعادها .

ان الشعر في هذه المرحلة كان الصورة الواضحة للتعبير عن الفكر ، وكانت دقائق هذا الفكر وثماره تتعالى اصواتا حادة ، وتزدهر عناصر اساسية في الاقناع والمجادلة ، وكان الشعراء يعبرون بشكل موضوعي عن المطامح الفكرية التي اخذت اشكالها تتضح من خلال الحركة الواسعة التي اجتاحت العصر نتيجة الواقع الجديد ، بسبب عملية الترجمة ، واختلاط الفكر العربي بالافكار التي كانت تسود العالم آنذاك ، وان مواقفهم ، وهم يسجلون على انفسهم الانتماء الفكرى ، يحدد المعالم الرئيسة للموقع الذى اصبح عليه هؤلاء الشعراء ، وان دراسة موضوعية ومفصلة لشعراء الفترة ، وخاصة الذين برزت عندهم السمات الفكرية المتميزة ، يمكن ان تسجل اضافة فكرية جديدة ، لتاريخ الفكر العربي في هذه الفترة ، لان الشعر يختزن نماذج متكاملة الى حد ما ، ويعبر عن اجتهادات كانت بعض ملامحها جزء لا يتجزا من الحركة الفكرية ، وان اندفاعهم في تثبيت دعائم القواعد التي آمنو بها . وتدليلهم الواعي على سلامة هذا الدفاع ، واستمرارهم الطويل وهم يرسمون للدولة ابعاد وجودها ، وسلامة موقفها ، واستمرارهم في مناهضة الافكار التي كانت تطرح لتغيير حجج قيامها ، او محاولة الانتقاص منها ـ مهما كانت الاسباب ـ تمثل الاستيعاب الفكرى الذى كان الشعراء يؤمنون به ، وان ربط هذا الدفاع بالحجة ، واستمرار هذا الدفاع لمرحلة طويلة ، يمثل القناعة بسلامة الاتجاه ، ويشكل الاستيعاب الكامل لاتخاذ الموقف الذى اخذه الشاعر على نفسه ، وهو سلوك طبيعي لكل معتقد . ونهج انساني عرفته

البشرية منذ ان وجدت ، وان كل المحاولات التي تحاول اخراج هذا الشعر عن طبيعته الموضوعية ، وابعاده عن الفكر العربي ووضعه في الاطار الضيق الذى حاولت بعض الفرق ان تحدده فيه يُعدُّ محاولة لطمس معالم الفكر العربي ، وتمزيق وحدته ، وتوجيه فكره وجهة مغايرة لما هو عليه •

ان اصوات شعراء العقيدة في عصر الدولة العربية كانت ترتفع وهي تحمل اصول الدعوة ، وتنشر لواءها، وتدعو الى الالتزام بها • وكانت اصوات جرير والفرزدق والراعي والاخطل وعدى بن الرقاع وكعب بن جعيل والطرماح ابن حكيم وقطرى بن الفجاءة وعمران بن حطان والكميت وثابت قطنة وكعب ابن معدان وعشرات الشعراء الذين وقفوا للدفاع عن الفكر ، والحرص على تثبيت دعائمه ، وتقوية قواعده قد تركزت في وصف احوال اصحاب الدعوة وشدة وثوقهم بالنصر ، والاعجاب بالايمان المطلق ، وتأكيد الجانب الفكرى ، والوقوف بحزم في اسناد اولئك الذين يمثلون الالتزام بهذا الفكر فالطرماح بن حكيم كان يشيد بيزيد بن المهلب ومخلد بن يزيد وخالد ابن عبدالله القسرى ويقصر كعب بن معدان شعره على المهلب بن ابي صفره وابنائه ، وثابت قطنة يقف في شعره عند يزيد بن المهلب ، وهؤلاء الشعراء وآخرون غيرهم يصدرون في احكامهم عن التزام شخصي في المرحلة الاولى ، ثم التزام فكرى في المراحل الاخرى بعد ان يتأيد لهم ان الصورة اصبحت تعني الدفاع عن الجانب البطولي الذى يتمثل عند هؤلاء ، ولعل عوامل اخرى قد تكون مشاركة في هذا الموقف ، وقد تنبع في بعض الاحيان من الالتزام القبلي ، ولكن هذا لا يعني ان الجوانب الاخرى تفقد قدرتها في الاداء ، او انها تضعف عند سيطرة هذا العامل •• ولعل الكميت وكعب بن جعيل يمثلان موقفا اخر يقتصر في رؤياه على الجانب الديني ، وان التصورات التي كانت تأخذ حجمها الشعرى والادلة التي تستخدم في هذا الموقف ، تنطلق من اطار الفكرة الدينية التي حامت حول السلطة او الخلافة ، وان اندفاعها

وشدها كان يتضاءل من خلال هذا المركز ، ومن هنا كانت اصوات هـؤلاء الشعراء الذين التزموا بالخط الديني تتضـاءل وتتغير وتثبت وتنقلب فـي بعض الاحيان ...

ان موقف الشعراء هذا كان يتحدد من ثنايا الصلابة التي يتمتع بهـا رجـال الدعوة او القائمون على تنفيذها ، والبسالة التي تتحدث وهي تعطي الرجال حقوقهم في الثبات والاستماته ، والقدرة التي تمنحهم الثقة الكبيرة في تجاوز كل التصورات ، ولهذا كانت قصائدهم تمثل اناشيد البطولة لانها تفخر بالقوة وتشيد بصلابة العقيدة وتمدح بالقدرة على الثبات ، وكـــان الشعراء ـ بما عرفوا به من حس فكرى وفني ـ يسجلون الوقائع ويرسمون نماذج البطولة ، ويستلون قيم الوفاء للفكر الذى شـد هؤلاء الابطـال بالاحداث ، ومكنهم من استيعاب تجربة الواقع السياسي التزاما وتضحية..

لقد استطاع هؤلاء الشعراء ان يتلمسوا عناصر الوفاء عند اولئك القادة، فاوقفوا شعرهم على تسجيلها ، وادركوا اخلاصهـم المتفاني وتضحياتهـم فسجلوا وقائعها ، واستوعبوا اهمية وجودهم في بنـــاء الدولـة العربيـة ، فاكدوا مناصرتهم لهم ، وقد دلل هؤلاء القادة على ادراك مواقعهم الحقيقية ، وادوارهم التاريخية في تقويم الاحداث ، فكانوا حقا رموز تقدير ، وامثلة وفـاء فالمفضل بن المهلب مثلا كان اذا اصاب مغنماً في حرب او فتح ، قسمه بين الناس ، فكان نصيب كل رجل منهم ما يصيبه ، ولم يكن له بيت مال ، لانه يعطي كل ما يحصل عليه ، ومن الطبيعي ان تستثير هذه النزعـة الشاعر وتدفعه الى تمجيد هذا الرجل ، فمنحه احساسه وحبه ووده حتى جعله مضرب الامثـال فقـال[٩] ..

ترى ذا الغنى والفقر من كل معشر    عصائب شـــتى ينتوون المفضـلا

---

(٩) كعب بن معدان الاشقري . شعراء امويون ٢/٤١٤ .

فمن زائر يرجو فواضل سيبه ... واخر يقضي حاجة قد ترحلا
اذا ما انتوينا غير ارضك لم نجد ... بها منتوى خيرا ولا متعللا
اذا ما عددنا الاكرمين ذوى نهىً ... ـ وقد قدموا من صالح ـ كنت اولا

ان هذا التقويم الصادق ، والاحساس النبيل ببواطن الصورة التي يتحرك في اطارها هذا الانسان كانت مثار حسد الاخرين الذين كانوا يدفعون بعض الشعراء الى التمثل بهذا الشاعر او بغيره من الشعراء الذين كانوا يصدرون في شعرهم عن اخلاص عميق ووفاء كريم •

ان شعر العقيدة في الادب العربي يرتبط ارتباطا وثيقا بالشعر السياسي لانهما ينبعان من معين واحد ويسيران في مسار واحد ، احداثهما متشابهة ودوافعهما متقاربة ، وقد استطاعت هذه الاحداث والدوافع ان تؤثر في الاتجاه الشعرى تأثيرا بارزا ، وتؤكد اهمية هذا الجانب في بلورة الفكر واستنباط الاصل • وتوحيد الدعاة ، وقد خلقت تراثا شعريا له اهميته في بناء الفكر العربي لانه محصلة زاخرة ، وثمار ناضجة •

# الالتزام وأغراض الشعر العربي

ان التطور الادبي واستمرار التعبير عن المشاعر ، واظهار الاحساس الفني وفق التأثيرات الانسانية المباشرة وغير المباشرة لايمكن أن تكون ظاهرة مؤقتة تنتهي بتغيير حكم ، أو تبديل نظام ، أو ذهاب دولة ومجيء دولة أخرى ، ولا يمكن أن يكون حالة فجائية تعترى الناس ثم تزول ، لان المشاعر متصلة ، والاحساس مستمر ، والتأثير واقع وان ادراك ذلك من خلال الحصيلة اللفظية والمعنوية يمثل العمر الزمني للنضوج الادبي ، وان المعالجة الادبية لاى موضوع لا تتم الا اذا اكتملت العناصر الشاملة لابراز الموضوع. وهذا ما دفع كثير من الباحثين الى رفض اعتبار سنة (١٣٢) السنة التي انتقل فيها الحكم الى العباسيين هي السنة التي بدأ فيها الادب.. يأخذ شكلا جديدا وصورة جديدة واتجاهات مغايرة لما كان عليه قبل هذه السنة ، ان هذه المقولة لا يمكن تصديقها ، كما لا يمكن تصديق كل المقولات التي تذهب الى ربط التغيير الادبي بتغيير نظام الحكم أو تبديل السلطة ، أو ذهاب الدولة .

ان التغييرات التي بدأت حجمها في المجتمع العربي ترتبط بالتغييرات التي حدثت منذ ظهور الدعوة ومنذ عصر التحرير وخروج العرب من اطار الجزيرة الى آفاق رحبة وجديدة ، ثم استقرارهم وارتباطهم بالامم الاخرى . والثقافات المشتركة ، وان هذا التغيير كان امتدادا لتغيير كانت الامة تدركه من خلال تعاملها مع الامم الاخرى ، وتبني واقعها الحضاري وفق العوامل المحددة . والمتتبع لهذه الحركة يستطيع أن يقرر ان القرن الاول الهجرى

كان بمثابة المحصلة المشتركة التي استطاعت فيها معالم الحياة العربية ان تتكيف ويتضح معدنها حتى اصبح بامكاننا ان نحدد بوادر التجديد وليس جذوره التي اصبحت مهيئة في هذا القرن • وان اطار ••• الاتجاهات الموضوعية في الشعر قد بدأت معالمها تتخذ صورتها بعيدة عن الاطار القديم الى حد ما ، وقد حمل الشعراء لواء ذلك بشكل واضح ، لانهم اخذوا يلتفتون الى انفسهم يفتشون في زواياها عن المشاعر ، والاحاسيس التي تعبر عن الوجدان الحقيقي ، وتؤكد الاندفاع السليم في متابعة القضايا الحادة التي وجد فيها الشعراء تعبيرا انسانيا ، كما بدا هؤلاء الشعراء يعودون الى مجتمعاتهم يستنطقونها والى احداث تلك المجتمعات يستنبطونها لفتح مغاليق اسرارها ، ولم تكن معالجاتهم لذلك الواقع معالجة بعيدة عن المشاعر ، بل كانوا يندمجون في وقائعها واحداثها وكانوا يحاولون تحديد المواقع الحادة ويركزون على المجالات التي يمكن أن تكون مواقع قابلة للوقوف أو المناقشة، وكانوا يقيسون تلك الحالات مقايسة انسانية ، تمنح الشعراء موقف التقدير الصائب ، وقد اتسمت هذه المقايسات والمحاولات بعمق المعالجة ، والغور في اعماق المسائل • وقد جسّد هذا العمق والغور بروز شخصية الشاعر العربي، حتى اصبحت بحق الصورة الحقيقية للنفس العربية ، التي كانت تلوح واضحة المعالم ، بارزة القسمات ، وان الشعراء استطاعوا أن يعبروا عن ذاتهم ـ الى جانب ذات الاخرين ـ بشكل تفصيلي وموضوعي •

ان الصورة التي عبر عنها الشعراء عبر الواقع العربي ، وفي حدود الدولة العربية أموية أو عباسية تؤكد لنا التحول الواضح في تصوير الاغراض التي طرقوها وتؤكد الصورة الحية التي كانت تقدمها جحافل الشعراء لتؤكد من خلالها الصورة التي يجب أن يكون عليها الممدوح مهما كانت هويته ، وان انشغال الشاعر بتحديد •• الافق المثالي ، أو ترسيخ ابعاد الانسان النموذج الذى كانت حدوده قائمة في الذهن والفكر ، تؤكد لنا هوية المهمة التي كان

يضطلع بها هذا الانسان الذى اطلقنا عليه ( الشاعر ) ، وان هذا الانسان ظل يحمل الرسالة في كل مجال ، ويطوف البلاد سعيا وراء تحقيق الهدف المنشود، متحملا من أجل ذلك الغربة والتشريد والمطاردة والعوز وكل الاصناف الاخرى من المعاملات التي تحاول ابعاده عن الصورة ، أو تشوّه حقيقته عند ذوي السلطان ، أو تخلق له المتاعب في مجالس الولاة والعمال ..

فالمديح عند الشاعر العربي هو مديح النموذج الذى حاول الشعراء أن يفصحوا عنه ، والصفات الاخلاقية الكريمة هي الصفات التي يجب ان تكون متوفرة في الممدوح ، والاعمال الجليلة التي تنسب الى الممدوح صدقا أو كذبا هي الاعمال التي تطلبها الامة من مسؤولها وراعيها ، وان محاولة وضعها أو تأكيد ذكرها ، أونسبتها اليه هي توعية غير مباشرة ، وتوجيه فطن، ونقد موضوعي مهذب ، يحاول من خلاله الشاعر ان يرفع الشعار المناسب ، ويرسم الهدف الملائم ، ويلفت النظر في الوقت المحدد . وقد اثبت هذا السلاح قوته في التوجيه ، وقدرته في التوفيق ، وسلامته في المعالجة ولم يقف الشاعر عند هذا التصوير وانما كان يزاوج بين الجانب الاخلاقي والسياسي ويوائم بين الصورة والواقع ، ويقف عند الحالة الراهنة والطموح المنتظر لانه كان يصور الاحداث والوقائع والحروب والصراعات وبهذا اصبحت قصيدة المديح صحيفة الامة واعلامها المباشر .

ان قيام قصيدة المديح في احداثها ووقائعها مقام جهاز الاعلام ، لتسجيلها للاحداث ، قد اعطاها أهمية كبيرة ، وقيمة تأريخية ووثائقية . حتى اصبحت هذه القصائد رديفا للخبر التأريخي ، وسجلا للوقائع الدقيقة، ووثيقة من وثائق اسناد الخبر وصحته . ولم اكن مغاليا اذا قلت ان كتب التاريخ قد اعتمدت الشعر اعتمادا كبيرا وان تاريخا مثل تاريخ الطبرى يضم اكثر من اربعة آلاف وخمسمائة بيت من الشعر يؤكد هذه الاهمية التي اصبحت جزء من التوثيق ، وما يقال عن الطبرى يقال عن مروج الذهب

للمسعودى والكامل لابن الاثير وتاريخ دمشق لابن عساكر وغيرها من كتب التاريخ التي استهدت بقصائد المديح واتخذتها أدلة للكشف عن الاحداث.

ان صورة المديح عند الشاعر لم تقف عند الحدث العابر ، أو الوقفة السريعة ، أو اللمحة الخاطفة ، وانما كان الشاعر يتخذ من كل ذلك مدعاة للاستشهاد بالبطل المنتصر الذى يقود جحافل الامة المظفرة الى التحرير ، والوقوف بوجه القوى الباغية لانقاذ البشرية من طواغيث الظلم وجبروت الاذلال ، وقد وفق الشعراء في تحديد ملامح البطل توفيقا محمودا ، لانهم لم يتركوا من جوانب البطولة موضعا الا وقفوا عنده ، ولم يغادروا موقعة الا اشادوا بها ، وكانت صور البطل والمعركة تثير في النفوس الاندفاع والاستبسال من أجل الاستشهاد والدفاع ، وتذكى عناصر الحماسة والاقتتال والجلاد للوقوف فوق أرض المعركة وقوفا مشرفا ، وكان الشعراء بارعين في متابعة الصورة ، ورسم الموقعة وتأكيد المعاني الشامخة ، والالحاح المستمر في تمثل الجانب البطولي الذى وضحت ابعاده في اعمال القادة الذين تركوا فوق كل أرضٍ اعمالا خارقة وصفحات مجيدة وبطولات نادرة.. ولم تكن قصائد ابي تمام والبحترى والمتنبي وابي فراس والشريف الرضي وغيرهم من الشعراء بعيدة عن اذهان الباحثين والدارسين ، وهي قصائد تشكل الملحمة العربية الطويلة التي حفلت بالمجد العربي والمضاء العربي والقوة الحربية التي سجلت لنفسها اروع صفحات المجد والسؤدد .. ولعل ملحمة ابي تمام في مدح المعتصم بالله التي أرخ فيها لفتح عموريه تمثل النموذج الواضح لهذا الغرض وتكشف عن الصفة الاعلامية البارزة لقيمة الشعر في تلك المرحلة ، لان الشاعر آرخ فيها لواقع الفتح وسجل قول المنجمين الذين قرروا بأن المعتصم لايفتح عمورية ، وسجل ماتحدث به الروم نقلا عن كتبها التي ايّدت ذلك القول ، ولكن العزيمة والمضاء ، والقدرة والتصميم تجاوزت ذلك فبطلت اقوالهم ، وحقق الانسان العربي عزيمته .. وقد ظلت القصيدة

صورة لهذا التصور وما تمخض عنه من تصورات فالسيف هو الفاصل بين الحق والباطل حتى يتبين ، وان السيوف غير الكتب لان تصوّر التصميم والاندفاع عند المعتصم يمثل القدرة على الفتح ، والقدرة الانسانية التي رفضت قبول الواقع ، وتمرّدت على الاشكال المألوفة من رواية أو تنجيم أو اباطيل أو افتراءات أو ايّة محاولة أخرى كانت تحاول ايقاف الزحف العربي المنتظر ، أو عرقلة المساعي المبذولة لاعادة الانسان الى حياته الحرة . فموقف الشاعر من كل تلك الاباطيل ، وموقفه من الكشف عن أساليب التخدير والتمييع والعرقلة وتصديه لكل المزاعم البعيدة عن الواقع الحقيقي لاستطلاع الامور يمثل الحركة الاساسية في فكرة الوقوف امام هذه التيارات ، والموقف الادبي الواعي من محاولة التشكيك في قدرة الانسان ، والالتزام الصادق في تبني موقف المجابهة لكل هذه الاباطيل .. حيث يقول[1] ..

| | |
|---|---|
| والعلم في شهب الارماح لامعة | بين الخميسين لا في السبعة الشهب |
| اين الرواية أم اين النجوم وما | صاغوه من زخرف فيها ومن كذب |
| تخرصا واحاديثا ملفقة | ليست بنبع اذا عدّت ولا غرب |
| عجائبا زعموا الايام مجفلة | عنهنّ في صفر الاصفار أو رجب |
| وخوفّوا الناس من دهياء مظلمة | اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب |
| وصيروا الابرج العليا مرتبّة | ما كان منقلبا أو غير منقلب |
| يقضون بالامر عنها وهي غافلة | ما دار في فلك منها وفي قطب |

فصرخة الشاعر في هذا الموقف تحدد موقفا أدبيا وفكريا ، اكده من خلال ايمانه بما كان يدور ، واكده من خلال تصميمه على ابطال كل الاقاويل التي ظلت تحيط بعملية الفتح المظفرة ، وصرخة الشاعر وهو يفند هذه الاقوال ، ويبطل قدرتها على الثبات ، ويزعزع ثقة الناس بها ، تمثل النضوج الفكري لطريقة المعالجة التي اصبحت طرفا حاداً في مجابهة الآخرين ، وفي اطار

(١) ابو تمام . الديوان ١/٤١ـ٤٥ .

هذا الموقف الادبي ، والموقف الفكري ، كان أبو تمـام يشمخ بالتزامـه ، ويتعالى بتمسكه المؤيد بما حققته قدرة الجيش العربي المحرر[٢] •

تسعون ألفـا كاساد الشرى نضجت      اعمارهم قبـل نضج التين والعنب

ان هذا النوع من المديح بمضامينه الفكرية والسياسية والثقافية ، وهذا التصور الادبي الذى استغرقته قدرة الشاعر العربي التزاما وتوجيها تحدد جانبا من معالم هذا الفن وتكشف عن بعد أدبي اشرقت قسماته بشكل موجه في هذا العصر ••

ان مضامين المديح التي حشدها الشاعر لم تقف عند الجانب الخلقي في القصيدة العربية ، ولم تقف قدرتها عند حدود الخصال المألوفة التي اصبحت محدودة المعنى قاصرة الاداء ، ولكن المضامين الجديدة بدأت تشق طريقهـا بشكل واسع في قصيدة المديح ، لانها بدأت تعرض لاعمال عرف بها الممدوح، وخصال اثبتها من خلال تجربته ، وانفرد بها من بين مجاميـع ، وهي صورة استطاعت أن تترك للشاعر براعة الاستشهاد في تكشيف العمل وترسيخ قواعده، وجعله نموذجا للآخرين الذين ظلوا يتابعون نماذج هؤلاء الابطال الـذين تركوا اثارهم واضحة فوق كل عمل ، وعند كل خصيصـة • فالاعجـاب بالفضيلة وبمن يتحلـّى بها من الممدوحين ، والمشاركة الفعـّالة في تكييف المعاني، وبلورة المثل العليا ، والدعوة الصريحة الى الالتزام بها واعتناقها ، وتوجيه الانسان العربي ــ من خلال هذه الاوصاف والتأكيد عليها نحو التقيد بهذه القيم في اخلاقه وتصرفاته وعلاقاته وارتباطاته ، هذه الصور كانت هدفـا اساسيا في اصلاح المجتمع ، ودعوته الى ترك الفردية ، وحثه على النهوض والى حيث المواقع التي يجب ان يصل اليها ، وهي في واقعها ــ تعبير عن اهتـزاز الضمير امام الاعمال العظيمة ، واحترام المواقف الانسانية المشرقة ، وتقدير للاعمال الخالدة التي كانت تسجل •

(٢) ابو تمام • الديوان ١/٦٩ •

وقد استطاع شاعران عربيان ان يؤكدا هذا الموقف ، ويثبتا اصول هذا الفن وهما يسجلان احداث الدولة العربية في العصر العباسي ، هما أبو تمام والمتنبي لانهما حاولا ان يبقيا على الشخصية المثالية أولا ويضمنا قصائدهما مقاطع ملحمية رائعة استمدت روحها من حروب التحرير التي خاضتها الجيوش العربية ، وهي مسلحة بالايمان الصادق والعقيدة الراسخة ثانيا ، ويمزجا هذا النوع من الشعر القومي الذى حرصا عليه واكدا ابرازه في كل قصيدة ، وهي خصائص جديدة لا يمكن لدارسي الشعر ان يمروا عليها دون معالجتها معالجة فكرية موجهة ، لان العملية الشعرية اصبحت عملية وعي وفكر وفلسفة والتزام ، ولانها بدأت تأخذ اشكالا جديدة في الطريقة والمنهج والمعالجة ، وهي خطوات ظلت مختفية لم تعط ما تستحقه من دراسر ، ولم توضع في الموقع المناسب في مجالات الدراسة .

ان هذه العناصر الكامنة في صلب القصيدة العربية ، واحتواء الشاعر للفكر الذى كان يعيش وراء هذه العناصر ، واستشفافه لمطامح الجمهور المترقب وهو يتابع احداث الامة ، ويسعى الى رفع ما يقع عليها ، وانطلاقه من مركز الحس القومي الذى كانت حركته تهز هذا الجمهور قد خلد هذا الشعر، وترك له المجال الرحب في الاستقرار في ضمير الامة ، وهيأله البقاء عبر الرحلة الشعرية الطويلة التي قطعها هذا الشعر وهو يجتاز السنوات العجاف من عمره الطويل .. وان الخلود الفني الذى جعل قصائد أبي تمام والمتنبي وقصائد غيرهما من الشعراء تحظى به يرجع الى احتواء هذه القصائد لعناصر الخلود الاساسية التي استطاعت أن تتألق تألقاً أصيلا . وتأخذ حجمها وفق الصيغ العربية التي منحت الشعر العربي كل مقومات البقاء .

ان جانب المديح يعبر عن موقف الاحترام ونظرة الاعجاب والاعتزاز ، ويعبر عن موقف الاقتداء والاهتداء والتمثل ، وهو في جانبيه مرحلة انسانية لها ابعادها في مجال النظرة الواقعية والمستقبلية . فالممدوح مهما كانت صفته

وفي كل الاداب يمثل النموذج الذى كانت تسعى اليه الشعوب منذ أن عرفت الحياة ، وقد حمل ذلك هذه الشعوب على وضع الاساطير واختراع القصص ونسج الروايات •• لتمجيد اولئك الرجال الذين توسموا فيهم الصفات الموجودة ، وقد ظلت مطامح الانسانية التواقة تسعى الى اكتمال هذه الصفات في قوادها وابطالها ومخلصيها وزعمائها •• وقد احتفظت قصائد الشعراء وملاحمهم وادبياتهم بهذه المطامح ، واستطاعت ان تجعلها زادا تتزود به الشعوب في كل عصر ، وتستمد منه عناصر التجديد والانطلاق لرسم المستقبل المنشود •

وقد أخذ الشعراء على انفسهم ذلك فاشادوا بالتحرير والانتصار واساليب الحكم العادلة والالتزام بمعاملة الناس بالحسنى ، والسير بهم سيرة الرأفة والتوجيه والرعاية ونشر العدالة وبسطها في الرعية والدعوة الى استتباب الامن في الامصار •وقد امتزجت كل هذه الموضوعات بالحماسة التي كانت تعطي القصيدة اطارا يضفي على الممدوح صفة جديدة ويحمله من اعباء الصورة التيكانت تدور فيإذهان الجمهور مايلزم الممدوح باتباعها أو الاخذ بجانب منها • وبذلك كان الشعراء يؤدون مهمتهم اداء حسنا ، ويشاركون الناس في تصور المستقبل ، ويوصلون الفكرة التي كانت حائمة في اذهان الناس الى المسؤولين ، ثم يعودون الى مخاطبة الجمهور بما استقر من صفات وتكامل من خصائص ، ناقلين اليهم ما كانوا يطمحون اليه ، وجاعلين اولئك الممدوحين مأمل رجاء ، وموضع ثقة ، ومركز تطبيق •

ان هذا الاداء ، ووفق هذا الشكل المتبادل ، والتصوير الحي المباشر لكل حدث ، ونقل الواقع المرسوم في ذهن الجمهور الى المسؤولين ، واعادة صورة المسؤول وفق الشكل الذى يريده هذا الجمهور ، يعطي قصيدة المديح موقعها الاعلامي ، ومركزها المتميز الذى استطاع أن يأخذ دوره الحي في المجتمع العربي قبل اكثر من الف سنة ، وان هذه القصيدة كانت تعلن نجاح

الخبر الذى تنطوى عليه القصيدة ، وتنقل من خـــلال الرغبات التي عاشت حبيسة في اذهان الناس ، وان صورة المجتمع العربي الذى اغفلته كثير من الاخبار ، وعزفت عن تصويره اقلام بعض الباحثين ، عكسته القصيدة العربية بشكل مفصل ، ومنحته من الدفق والحيوية والظهور ما جعلها واضحة بارزة.

ومثلما وقف الشاعر العربي يرسم المثالية الاصيلة في شـــعر المديح ، منتفعـا من ذلـك في سـبيل بناء القيم الجديدة التي يجب أن يكون عليهـا الواقع العربي في تلك الفترة فقد وقف الشاعر العربي عند غرض الهجاء لرسم المساوىء الاجتماعية والفردية والخلقية لعلاقتها الوثيقة بحيـاة الناس ، واتصالها المباشر بأوضاعهم المعاشية ، وقد أخذ الشعراء على أنفسهم متابعـة المثالب ، وتقصي الخصال غير المحدودة ، متابعة دقيقة محاولين تصويرهـا وايضاحها ورسم ابعادها ، متخذين من اشخاص المهجويين نماذج صالحـة لاستعمال تلك الاوصاف مجسدين اجزاءها تجسيدا يوحي بخطر الاتصاف بها ، وكأن الشعراء كانوا يسعون الى تنفير الناس من هذه الخصال لبعدها عن واقعهم ، والى ابرازها بشكل يثير في النفس الاشمئزاز والامتعاض ، ولم يكن غرض الشعراء من ذلك الا دفع الناس الى الابتعاد عنها ، وتطهير المجتمع من ادرانها ، وتنقية الحياة من شوائبها لان الاستمرار في اندفـاع الناس وراء تيارها ، يفقد المجتمع قدرته على التقدم ، ويساعد على انحداره الى المستوى البعيد عن مثله التي آمن بها ، ولم يقف الشعراء عند الجانب الوصفي ، أو الحديث العابر ، وانما كانوا يهاجمون اولئك الخارجين والمنحرفين عن الطريق الامثل هجوما يعزلهم عن الناس، ويبعدهم عن الواقع المحسوس، ويجعلهم موضع تندر أو استهزاء أو استخفاف ، ويظهرهم امام الجمهور على حقيقتهم ، وبذلك يحقق الشاعر من وراء هذا الغرض غايته في تصحيح الواقع ، واظهار زيفـه ورسم المساوىء الفردية وتجسيد الواقع الاجتماعي الفاسد الـذى اغفلت ذكره الاحداث ، وتجاوزت حدوده كتب التاريخ ..

ان اعادة الصورة الشعرية لهذا الغرض وفق الشكل الطبيعي الذى اداه ويؤديه ، واعادة تقييم فن الهجاء تقييما فنيا يكشف عن الغرض الذى اصبح حاجة اجتماعية ملحة ، ووضعه في الاطار المناسب من الدائرة الشعرية العربية اصبح مهمة اساسية من مهمات البحوث والدراسات ، وغاية اصيلة من غايات المهتمين بالحركة الادبية •

ووقفت قصيدة الرثاء موقفا ادبيا شامخا ، وهي تؤدي دورها فيتصوير البطولة ، وتمجيد الانسان ، وتحبيب الموت ، وتزيين الدفاع عن الارض والاستبسال من أجل المجد العربي دفاعا عن حرمات الوطن ، وذبّا عن الحمى المستباح ، وقد استطاع الشعراء ان يتركوا في مضامين قصائدهم من معاني الخلود ما جعلها مضرب المثل ، ومن الفاظ الجرأة والثبات ما أكدها في الضمير العربي الحي • لان معاني التمجيد لم تكن مقتصرة على البطل الشهيد، والفاظ الخلود لم تكن وقفا على القائد الصريع ، وانما هي محاولة لدفع الامة الى الاقتداء ، ومحاولة الى تأكيد روح التضحية التي تمثلت في القائد الرائد ••

وقد ظلت اسماء محمد بن حميد الطوسي ومنصور بن زياد ويزيد بن مزيد خالدة في سجل الامة ، لما أبدوه من شجاعة واظهروه من بطولة ، وخلدوه من مآثر وظلت معهم اسماء الشعراء الذين ادركوا بطولة هؤلاء ، وعرفوا مواقعهم في ضمير الامة ، وتحسسوا وجودهم في الواقع العربي امثال أبي تمام والمتنبي •• وغيرهم ممن استطاعوا استشفاف الاحداث ووهبوا قدرة الرؤية لتلمس جوانب البطولة ، وكانت قصيدة أبي تمام في رثاء محمد ابن حميد:(٣)

| | |
|---|---|
| كذا فليجل الخطب وليفدح الامر | فليس لعين لم يفض ماؤها عذر |
| توفيت الامال بعد محمد | واصبح في شغل عن السفر السّفر |

(٣) ابو تمام • الديوان ٤/٧٩ـ٨١ •

وما كان إلا مالَ من قلّ مالُه وذخرا لمن امسى وليس له ذخر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة دما ضحكت عنه الآحاديث والذكر
فتى مات بين الضرب والطعن ميتة تقوم مقام النصر اذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلّت عليه القنا السمرّ
فاثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها : من تحت أخمصك الحشر

وقصيدته في عمير بن الوليد:(٤)

أنعى فتى الفتيان غير مكذّب قولي وأنعى فارس الفرسان
أأصاب منك الموت فرصة ساعة فعدا عليك وأنتما أخوان
فمن الذى أبقى ليوم تكرّم ومن الذى ابقى ليوم طعان
من يدفع الكرب العظام اذ التقت في مأزق حلقات كل بطان

ان موضع الاستشهاد لا يسمح في هذا المجال وان اشعار ابي تمام والبحتري والمتنبي لدليل على هذا الاتجاه الذى سلكه الشعراء في اعادة مجد الامة من خلال هؤلاء الرجال ، واعادة المثل العليا من خلال الدعوة الى الالتزام بها ، واعادة الجانب الاخلاقي من خلال التركيز على الجوانب السلبية .

ان مواقف الشعراء لم تحددها الاغراض المعروفة التي عالجوها معالجة ايجابية واضحة وصريحة ، وان متابعتهم للجوانب الحية التي حاولوا ابرازها تدل على التزامهم بما يجب ان يؤديه الشاعر ، فتأكيدا لشخصيته المثالية في الممدوح ، وتناول مقومات هذه المثالية ، وافراد الخصائص ، وايضاح ابعادها ، وابراز مميزاتها ، تحليلاً وتدقيقا يعطي هذه الاغراض قيمتها الحقيقية ويعيد اليها الوجه الاصيل في الدراسة فالكرم والحلم والعفة والصبر في المعركة والدفاع عن الحق ، والتضحية من أجل العقيدة والوفاء بالعهد ،

---

(٤) ابو تمام . الديوان ٤/١٤٤ـ١٤٥ .

واستجابة نداء المستغيث ، شيم عربية اصيلة عاشتها الامة ، واكدتها في حياتها، ودافعت عنها ومدحت بها وهجي بها من تخلى عنها ، وهذا يعني انها اصبحت ضمن قاموس الفخر ، وفي اطار المعاني الانسانية التي اعتزت بها الامة وقد اتخذ الشعراء من هذه المعاني مجالا لتحليلها ، وتحديد بنيتها وتفصيل اجزائها وعناصرها ، وبذلك استطاعوا ان يحددوا للناس الاتجاه العام في التربية والاخلاق وبناء المجتمع ومن خلال هذا العطاء كان الناس يتعاملون ويحددون علاقاتهم ، ويبنون كيانهم ويحكمون على الآخرين من خلال وقوعهم في دائرة هذه المثل أو خروجهم عنها •

فالشعراء في هذه المرحلة كانوا يحملون لواء التوجيه ويرفعون شعار الالتزام بتحديد البناء الاجتماعي من خلال المفاهيم التي تطابق فكر الامة ، وتساير قيمها الاصيلة ، وتلتزم بمسيرتها التي اصبحت عرفا وكيانا ووجودا •

لقد كان الشعراء صادقين في كثير من الاحيان لانهم أدركوا مهمتهم الحقيقية ، وعرفوا موقعهم التوجيهي ، واستطاعوا أن يفرضوا وجودهم على الكيانات السياسية والادبية ويؤكدوا موقعهم هذا عن طريق مخاطبتهم لهذه الكيانات التي فسحت لهم المجال ، وتركت قصائدهم تأخذ مكانتها في اوساط الناس ومحافل الثقافة ومواضع الاحتكام • وكانت هذه القصائد ـ على اختلاف اغراضها ـ تنتشر وتناقش وتنفذ وتفسر وتدرس معانيها والفاظها ودلالتها وما توصل اليه الشاعر ، وما ابدع فيه أو اخفق في تعبيره وما وافق المقاييس المعاصرة ، أو التزم النهج المحدد • أو خرج على المألوف وهي دراسات أدبية ونقدية وبلاغية ، ودراسات اخلاقية وفكرية وثقافية انبثقت عنها كل الدراسات ، وفسحت المجال امام الفكر أن يبدع ، وتركت للمثقفين حرية الرأى للتوصل الى الصيغة المقبولة في الدلالة أو الفكرة ، وكثيرا ما كان الشاعر يرجع الى نفسه أو مجتمعه أو الحياة التي تحياها المجاميع البشرية فيصور البؤس تصويرا دقيقا ، ويرسم المسغبة رسما مفصلا ، ويلج أبواب

الجمهور الذى اثقلته التعاسة ، ووقعت على كاهلة اعباء الحياة فتحمل من جورها ما تخمل ، وعانى من بؤسها ما عانى ليصور لنا ذلك حتى اصبح بعض الشعراء من المولعين بوصف الفقر لانه مشكلتهم ومأساتهم ، ومن الطبيعي ان تكون مصدر الالهام ، ومبعث الاستثارة ، لانهم يدركون اثره ، ويحسون فواجعه ، ويعانون وخزه ومأساته ، ولعل ابا الشمقمق وابا فرعون الساسي والعماني من ابرز اولئك الذين استطاعوا أن يتركوا اثار ذلك في قصائدهم ، وما تفعله هذه المشكلة في ابنائهم ، اما الشتاء فكانت له في الفاظهم صورة مرعبة لانهم يجابهونه بغير قمص وبغير أزر • ولعل أرجوزة ابي فرعون الساسي ترسم الصورة الكاملة لهذه المأساة حيث يقول[5] ••

وصبية مثل فراخ الذّر سود الوجوه كسواد القدر
جاء الشتاء وهم بشر بغير قمص وبغير أزر
حتى اذا لاح عمود الفجر وجاءني الصبح غدوت أسرى
وبعضهم ملتصق بصدرى وبعضهم منحجر بحجرى
أسبقهم الى اصول الجدر هذا جميع قصتي وأمرى
فارحم عيالي وتول أمري كنيّت نفسي كنية في شعرى
انا أبو الفقر وأم الفقر

ومن المناسب أن اشير الى أن هذا الشاعر وابا الشمقمق والعماني قد خصصوا شعرهم للتعبير عن مشكلة الفقر والجوع والحرمان والبؤس •

وفي ابيات اخرى يصف ابا فرعون بيته فيقول[6] •

ليس اغلاقي لبابي أن لي فيه ما أخشى عليه السرقا
انما أغلقه كي لا يرى سوء حالي من يجوب الطرقا

(٥) ابن المعتز • الطبقات ٣٧٦ •
(٦) ابن المعتز • طبقات الشعراء ٣٧٧ •

منزل أوطنه الفقر فلو دخل السارق فيه سرقا
لا تراني كاذبا في وصفه لو تراه قلت لي : قد صدقا

وقد اكثر ابن المعتز[٧] في طبقاته من ذكر امثال هذه النماذج التي تعبر بشكل واضح عن ابعاد الوضع الاقتصادى الذى كانت تعانيه هذه الفئات ، والوضع الاجتماعي الذي يحيط بها ، وان محاولة جمع هذه النماذج ومحاولة دراستها دراسة موضوعية وتحديد الجانب الاقتصادى أو الاجتماعي الذي يمكن أن ترسمه يمثل مرحلة جديدة في توجيه الدراسة الادبية وجهة سليمة ، نستطيع من خلالها ان نضع امثال هؤلاء الشعراء الذين اغفلتهم الاقلام في المكان المناسب •

ان مفهوم الالتزام في الادب العربي لم يقتصر على الاغراض التي عالجها الشعراء ، أو المعاني التي عبروا عنها ، أو القيم التي ادخلوها أو وقفوا عندها من خلال الافكار التي كانوا يلتزمون بها ، وانما تجاوز كل هذه الصور الادبية الى حقيقة أخرى تمثل وحدة الادب العربي على مر العصور ، وهي حقيقة لابد ان تدرس الدراسة اللازمة لانها نموذج متكامل من نماذج الفكر الموحد الذى عاشته الامة خلال تاريخها الادبي •

فالتراث الادبي العربي تراث موحد لم يتأثر في نتاجه أو معالجاته أو موضوعاته بعوامل الانقسام الجغرافي ولم يتأثر بنوازع الاستقلال السياسي، ولم يخضع لنفوذ انقسامي مباشر في أشكاله ، وقد منحته هذه القدرة اسبابا كثيرة من اسباب البقاء والخلود والاستمرار ، الى جانب الدوافع الاخرى التي اكسبته الاحاطة الشاملة بأحوال المجتمع العربي ، وأوضاعه وميوله ونزعاته مما جعلت الادباء يؤدون مهمة اجتماعية وقيادية وانسانية في آن واحد ، لاستيعابهم الظروف التأريخية التي كانت تعيشها الامة ، وقد استطاعت هذه

(٧) ابن المعتز • طبقات الشعراء ٣٧٧ وما بعدها •

النظرة أن تفرض نفسها ، وتقرر احقيتها الموضوعية من خلال الممارسة الواقعية، والتعاطف الانساني المثمر • مما جعلت الاصوات الاخرى التي كانت تنزع منازع اقليمية أو انفصالية أو شعوبية قاصرة عن الثبات أمام هـــذا التيار الانساني الذي ارتضته الامة • لقد استجابت الجماهير عبـر امتداد الوطن العربي آنذاك لهذا التيار ، وقد ادركت هذه الجماهير سلامة الادب وهـو يحمل مقومات وجودها ، وادركت قدرته على استيعاب تجربتها وهي تحاول الاشادة بكل ما يدعو الى تجديد وحدتها والتغني بعناصر مجدها ، والتمثل بأبطال تأريخها وقد مهد هذا الوضع الى المجابهة الحادة لكل الاصوات التي كانت تحمل رايات الاقليمية والانقسام ، وتشيد بدعوات الاستقلال السياسي الانفصالي•••وكذلك مهد لتجميع الامة حول الايمان بوحدة اللغة ووحدة التراث ووحدة الادب ووحدة المشاعر حتى اصبح الاديب العربي يطوف الارض العربية وهو يحمل مشاعرها ، وينشد اغانيها ويردد كل ما تطمح اليه في حاضرهـــا ومستقبلها ، ولم نجد اديبا تخلى عن هذه الدعوة ، أو تنازل عن الايمان بها ، أو شكك في سلامة اتجاهها وهو عربي صميم ، لان الاديب العربي كان يحمل خلود رسالته ، وايمانه بكل ما تحمله هذه الرسالة من واجبات •

فأبو تمام والمتنبي نموذجان لهذا الاديب فقد عاشا العمر وهما يجوبان الوطن العربي الكبير ، فلم يجدا ضيراً وهما ينتقلان من مواطن الميـلاد الى الشام ومصر وخراسان والعراق يغنيان للوطن والارض ، ويعبران عن الطموح والعروبة ، ويتحدثان بلسان الامة لرسم المستقبل ، ويشـدان الجموع الى صوت الانشاد وهو يطرز بالنغم الجديد ، ويغمرها بالفكر الصافي والنبـع الاصيل للمستقبل الموحد الذى كان يدور في ذهن كل واحد منهما •• ولعل صوت أبي تمام يمثل الصرخة الحقة في الوحدة العربية المتمثلة في قوله[٨] :

بالشام أهلي وبغـداد الهوى وانـا     بالرقمتين وبالفسطاط اخوانـي

(٨) ابو تمام • الديوان ٣/٣٠٨ـ٣٠٩ •

خليفة الخضر من يربع على وطن     في بلدة فظهور العيس أوطاني

ان انتفاضة الشاعر وهو يشد الشام ببغداد والرقمتين بالفسطاط، شدالهوى والاهل وصلة الاخوة ، ووحدة المصير ، تؤكد الخط الانساني الذى كان يدور في ذهنه وهو يحكم وحدة الادب ، ويقوى صلة الانتساب ، ويشد عناصر القرابة والاتصال • ويؤكد وحدة الفكر التي كانت تسمو فوق كل فكرة ، وشمول المصير الذى كان يرتبط به الشاعر ارتباطا لا يمكن ان يخرج عن مشاعره العربية • فالشام ارضه ومستقره به اهله وفي دياره ارتباطه ، وبغداد أرضه ومستقره فيها هواه وفيها صحبه والرقمتان أرضه ومستقره فيهما اصوله واحاسيسه والفسطاط أرضه ومستقره فيها اخوانه واخوته ، والارض العربية الممتدة بين هذه المراكز كلها أرضه ومستقره بين ربوعها تنتعش آماله ، وفوق أرضها يزدهر طموحه • وبين ربوعها تجوب به ناقته •

لقد تجاوز أبو تمام ـ كما تجاوز كثير من الشعراء ـ كل الاجزاء التي كانت تتحكم فيهم ، لان الاساس الجديد الذى بدأت صورته تأخذ حجمها اساس اعطى الوطن أهميته ، واعطى العروبة فلسفتها التي اصبحت جزء لا يتجزأ من كيان الدولة وكيان الفكر العربي •• وقد آمن الشعراء بذلك ايمانا مطلقا ، فكانوا يطوفون الارض ، ويجوبون الديار ، ويؤكدون الوحدة من خلال التعاطف والاحساس ويشدون الامة من ثنايا الافكار التي لقيتها القصيدة ، فهي احاسيس غير محدودة قوامها التمجيد بكل مظهر عربي، واساسها التوجه نحو كل جهد عربي ، وقد استطاع الشاعر أن يدرك تلك المهمة ، ويمارس واجباته الانسانية ممارسة واعية تؤكد استيعابه لها ، وقدرته على ادائها ، وتحمله لما تفرضه عليه من التزامات •• ولهذا كانت قصيدته كبيرة لا يحدها مكان ، وافكاره شاملة لا يحول دونها زمان ، وجمهوره متسع لا ينحصر في ارض محدودة ، فالقصيدة تأخذ مجراها بسهولة ومعانيها

الارض العربية تحمل الفكر والتعاطفوترسم المجد والاعتزاز وتنشر الاصالة والاقتـدار .

فالشاعر تجاوز المكان دون أن يكون هناك ما يشير الى هذا التجاوز لان المكان لم يجد له مركزا في تفكيره ، ولان الشاعر كان ينطلق من الايمان بوقوع الارض كاملة في متناول الرحلة التي ينشدها والايمان بأن الارض التي يتحرك فوقها لم تخضع لمؤشرات الحدود أو خفر السواحل أو نقاط التفتيش ، فهي ارضه ، والانسان الذى يضرب خيمته أو يشيد قصره فوقها هو اخوه أو ابن عمه ، أو صاحبه في المصير والمستقبل، وان هذا الانسياب في التفكير والتعامل لم يخلق له أزمة تحول دون امتـداد بعـده النفسي أو الفكري وان هذا الامتداد الذي جعله يبسط القصيدة بهذا الشـكل قـد ترك لمعانيه ان تدخل النفوس وهي راضيه مطمئنه ، وتتوالى على صفحـات الذهـن وهي خاشـعة موحية ، يمـوج في طواياهـا الجـلال والايمـان ، ويزدهر فوق صورها الوفاء والتضحية ، وكان الشعراء ـ وهم يتجاوزون هذه المجالات ـ يؤمنون بصلة الشعر بالمسيرة ، وبقدرته عـلى تحريـك العزائم ، وتأجيج الاحاسيس ، وتخليد البطولة صورة وعملا .

وكما وفق أبو تمام في توظيف الشعر توظيفا عربيا ، وفي تحميله هموم الامة وهي تحاول ترسيخ كيانها ، وفي تثبيت الحجم الحقيقي لهذه الجحافل البشرية من الجموع وهي تتمثل الحضارة ، وتشارك الامم في البناء ، فقد وفق الشعراء الآخرون الى تحديد هذا الهدف لانهم كانوا يرتكزون الى قواعـد اساسية في البناء ، وينطلقون من مواقع محددة في الواقع التأريخي فالمتنبي وابو العلاء والشريف الرضي كانوا نماذج أخـرى من نمـاذج التجـاوز المكاني ونمـاذج أخرى في التجـاوز الزماني لكـل الابعاد التي كانت تؤمن بأن الارض الممتدة هي أرض عربية وبأن الشعب الذى يعيش فوقها هـو شعب عربي اصلا وانتماءً ، وبأن المطامح التي كانت تدور في الذهن هي

مطامح عربية ، تحمل اصول النظرة المستقبلية وتسعى الى بناء الكيـــان الحقيقي للامة ، وان هؤلاء الشعراء قد استطاعوا أن يتركوا كل الحواجز ، ويعبروا كل التصورات التي حاولت ان تضع نفسها في طريق هذا التجاوز، وان الجمهور الذى كان يستمع الى المتنبي كان يستمع الى فكره وطموحـه وما يريده من مستقبله ، وان الجمهور الذى كان يستمع الى ابي العـلاء المعرى كان يستمع الى حضارته وفلسفته وارائه وهي تتردد دون ان يجد ما يمنعها من التعبير عن هذه الحضارة أو الفلسفة ، وان الجمهور الذى كان يستمع الى الشريف الرضي كان يستمع الى حماسته وعاطفته واباءه ، وهو ينشرها صفحات نقية ، وقصائد متوالية ، وان المعاني التي كانت تزخر بها الجوانب الاساسية في الوجود العربي، وكانت الاستجابة لهذه الافكار استجابة ايجابية واعية ، تُحلّل الفكرة وتهضم المعنى ، وتحدد الموقف ، وبعدهـــا قصائد هؤلاء الشعراء كانت تمثل الثروة الفكرية التي عبرت عن كــل تأخذ المبادرة في ايضاح الاساس الذى يجب أن تكون عليه المسيرة ، وقد شاركت هذه الاصوات ـ على الرغم من تباعد ازمانها واختلاف اماكنها ـ في توجيه الامة توجيها يؤمن بالافكار التي كانت تبرز من ثنايا الاصوات لان الشعراء كانوا يحملون الوية الوحدة الفكرية ويحملون راية الوطن الواحد ، ويسعون الى تحقيق هذه الاهداف سعيا متواصلا ، يأخذ حجمه في بناء القصيـدة ، ويبسط افكاره في انسياب المعاني الواضحة لرسم الطريق ، ووضع العلامات، وربط الملامح ، وابراز المشاعر • وقد ظلت أصوات الشعراء عالية قوية في التأثير والتأثر ، وبقيت افكارهم الاساسية تشـغل الجانب الشـعورى في ضمير الامة وجودا وتكوينا واحساسا •

ان عناصر الوحدة الفكرية التي استجمعها الشعراء وهم يطوفـون الارض العربية وينشرون بين ابنائها الوعي والاحساس بهذه العناصر • تمثل المنطلقات الاساسية في استيعاب تلك المشاعر ، واستلهام الشعراء لمقومات

القيادة في بعض من توسموا فيهم مثل هذه المقومات كانت تمثل التداعي الفكرى الذى كان يتراكم في اذهانهم ، وتتكاثف صوره حادة وعنيفة ، ومن خلال هذا التصور كانت تبرز العناصر التي تحدد - في مفهومهم - ابعاد تلك الوحدة • فسيف الدولة كان رمزا في شعر المتنبي ومحمد بن حميد الطوسي كان رمزا في شعر ابي تمام • وآل المهلب كانوا رمزا في اذهان كثير من الشعراء وبعض الخلفاء والقادة والولاة كانوا رموزا في اعراف بعض الشعراء ايضا ، وقد اخذت هذه الشخصيات مواقعها من خلال الرمز • وبنيت لها قواعد ومراكز في احجام القصائد ، وخلقت حولها من الاقوال والافعال ما جعلها اهلا لكل التوقعات التي وردت في اقوال الشعراء ، ولم تكن شخصية هؤلاء محدودة في زمان او مكان ، ولم تكن اعمالهم مقتصرة على جانب من جوانب الارض العربية الواسعة ، ولم تقتصر الخصائص التي وصفوا بها أو عرفوا أو مدحوا بالالتزام بها على مجموعة تسكن أرض مخصوصة أو طائفة دون أخرى ، وانما كانوا يتعاملون وكأن الناس مجاميع موحدة ، ويتصرفون وكأن الجموع تؤمن بمقياس واحد ، ويتحدثون بمفاهيم قد اتفق عليها في الواقع وأجمع في الاحساس ، وألزموا باعلاء شأنها في كل مجال •

ان المساحة التي كان يتحرك عليها الشاعر في الزمان والمكان ، والموضوعات التي يتحدث عنها في الواقع والمستقبل ، والافكار التي كان يبنى عليها وحدة وجوده ، ووحدة انسانيته وأمته ، كانت متوازية في البناء والتنسيق ، ومتحدة في الغاية والسبيل ، ومدروسة من حيث الاعداد والتكوين ولهذا كانت القصيدة نموذجا من نماذج التجاوز لكل الاشكال التجزيئية التي حاولت ان تحدد خطوات القصيدة ، أو تقصر من امتدادها الفكرى ، أو كان الشعراء يعلمون ان الجمهور المخاطب في كل الاقطار هو جمهور له خصائصه القومية ، وله خصائصه الفكرية ، وله طموحه الانساني

وان هذا الجمهور كان يتعلق بالفكر المنبثق من كل المعاني التي تتناثر على فم الشاعر ، ويستمع الى كل الاحاديث التي كانت تحمل موجات الايمان بوحدة هذه الامة التي امتدت مشاعر ابنائها ، وتعالت اصوات قادتها ، وتوحدت افكار روادها وبناتها •

ان المكان في القصيدة العربية كان امتدادا لا حدود له ، لانه يمثل الوجود الانساني للامة ، ويمثل المستقبل الذى كانت تسعى اليه ، وان هذا المكان كان حصيلة لكل الانتصارات التي سجلتها ، واملا لكل الابطال الذين حملوا مشاعل التحرير ، وسجلوا مآثر الانتصار ، وفكرا لكل العلماء الذين وضعوا علومهم وافكارهم لخدمة الامة وتراثها الخالد •• ومن هنا جاءت فكرة المكان الممتد ، واينعت غصون الارض العربية التي بني فوق ارضها قدر هذه الامة ، وماتت عند مطامح ابنائها كل الاشكال الانفصالية التي دارت في اذهان بعض اعدائها وقد استطاع الشعر ان يستوعب ذلك استيعاباً شاملا ، ويرتضيه اساسا لبناء اجزائه ، ويتخذه وسيلة لنشر اغراضه ومعانيه ، وتشرب الشعراء ـ وهم يغنون اناشيد الفخر ، أو اغاني البطولة ، أو قصائد المديح ـ بهذه الافكار القومية حتى اصبحوا بحق من دعاتها الاوائل وروادها الحقيقيين ، وقادتها المخلصين ، لان القول عندهم اقترن بالعمل ، واستغرقت العقيدة اغوار مشاعرهم ، فخلدوا فكرهم في تراثهم الشعرى ، وعاشت الاجيال العربية وهي تستمع الى اشعار ابي تمام والمتنبي والشريف الرضي وابي العلاء • وتجد فيها بغيتها ، وتتمثل وحدتها ، وتغني مجدها الذى عاش على السنتهم ••

ان الزمان في قصائدهم لا حدود له • لانه كان رديف المكان الذى لم ينته في وجدانهم ، ومن هنا كان الزمان في القصيدة غير محدود ، وكانت احاديثه متصلة لم تعرف الانفصال ، ولم يقدر لحركته أن تقف عند الحدود المنفصلة ، فعاش في نفوسهم زمانا حقيقيا لعمر هذه الامة ، وعاش في فكرهم

امتدادا لمستقبلها البعيد ، وعاش في تضحياتهم نموذجا لبنـاء وجودهـا الزمانـي •

ان هذا الاتصال المباشر والالتصاق المحكم في توحيد الفكر والوجود•• وتنسيق المشاعر والمطامح ، وربط الواقع بالمستقبل كان اساسا حقيقيا فـي البناء الشعرى العربي ، وكان وجودا ثابتاً في يقين الشعراء الذين اصبحوا لا يؤمنون بغيره ، وكان عقيدة مؤكدة في احساس الجمهور وهو يتلمس آماله مرسومة في هذا الفن الشعرى العظيم الذى أخذ على عاتقه القيـام بالمهمة الاعلامية الكبيرة التي كانت تحتاج العـالم المعاصر آنذاك ، فنجـد صداه يجوب اطراف الامة ، ويهز مشاعر ابنائها ، فيندفعون الى استيعابه أو الاعجاب به ، أو التمثل بنماذجه ، ومن خلاله كانت عواطفهم تتحدد سلبا أو ايجابا ، لانه كان يمثل الشعار الكبير الذى يرفع ، والانطلاقة الحسية التي تتعالى ، لتشد اليها هذه الجماهير ، أو تنبهها الى حدث يهدد الامة ، أو أمر يجب أن تعرفه ••

ان خلود شعر هؤلاء الشعراء يكمن في خلود افكارهـم القوميـة والانسانية التي حملوها وعبروا عنها والتزموا بها ، وان غناء الاجيـال بقصائدهـم عبـر المرحلـة الزمنية الطويلـة يمثل الاحساس الصادق بسلامة التعبير الذى شحنت به هذه القصائد ، وان التمثل به في كل وقت ، دليل على مواكبته للاحداث ، ومواصلته للتعبير ، وموافقتـه للطمـوح • وان الجماهير التي خلدت لهؤلاء الشعراء افكارهم ، واعمالهم الادبيـة ظلت امينة على حفظ ذكراهم ، والاهتمام بتخليدهم ، فعاشوا ابطالا للفكر والادب، ونماذج للقدرة والريادة ، ومفكرين حفظوا للامة وجودها الانساني وتراثها الحي ، فكانوا حقا من ابطال الالتزام ، ودعاة الواقعية الانسـانية ورواد الفكـر المبدع •

# الالتزام والنثر

لم يقتصر الالتزام في الادب العربي على الشعر وحده ، وانما شمل النثر بأنواعه ، وربما كان النثر اقوى في التوجيه والتثقيف والتوعية ، لان انواعه كثيرة ومتداولة فالمثل والحكاية والوصية والخطبة والقصة والمقامة والايام ، وما يدور فيها ، كلها كانت تأخذ دورها في الرعاية ، وتعمل عملها في اشباع رغبة الجماهير ، وتطلعها نحو الصورة المثلى في العمل الصالح، والدعوة الى الالتزام بالعدالة الاجتماعية ، وقد ظل النثر العربي يؤدي دوره في هذه المهمة ، ويؤكد أهميته خلال العصور الى جانب الشعر . وقد عالجت كثير من فنون النثر المسائل المتعلقة بأحوال الناس ، وصورت كوامن نفوسهم ورسمت علاقاتهم الانسانية ، وتحدثت عن الاحاسيس الداخلية التي كانت تعتمل في نفوسهم . لاعتمادها الاسلوب الواضح، والبيان الفني القريب الى النفوس ، وتعد الامثال النموذج الامثل الذى استطاع أن يتسرب الى القلوب ليجد طريقه واضحا ، وتأثيره عميقا فيها ، وقد ادرك القدامى من اللغويين أهمية هذا الضرب من النثر فأنصرفوا اليه ، واكثروا من التأليف فيه ، وربما نشأت العناية به نشأة مبكرة ، حتى اصبح بامكاننا أن نعد عبيد بن شرية من اوائل المهتمين به ، وقد كانت صلة عبيد بمعاوية بن أبي سفيان معروفة ، وفي طبقته علاقة بن كرشم وعطاء بن مصعب ، وهم من الرواد الذين اخذوا على عاتقهم الاهتمام بهذا الجانب وما يتعلق به من قصص واخبار واساطير ، ومن المؤسف ان تضيع كتب هذه الطبقة لولا

اشارات متباعدة وقف عندها ابن النديم في الفهرست أو الميداني وهو يعدد الكتب التي اعتمدها ..

ثم بدأ الاهتمام بالامثال يتسع لاسباب كثيرة لا يتسع المجال لذكرها الآن ، ولعل من ابرزها شعور الناس بالحاجة اليها ، لانها تعبر عن الطموح الداخلي للاغلبية الساحقة ، وترسم لهم الواقع الاجتماعي ، وتمنحهم قدرة التصور لما يجب عليهم ان يكونوه ، ولانها تمثل صورة التجربة الانسانية عبر مسيرتها ، وما يمكن ان تستفيد منه وهي تحدد طريق المستقبل الى جانب العظة التي تعطيها ، والعبرة التي تنتهي اليها ، والمأساة التي تصور احداثها. والمسائل الكثيرة التي تتصل بحياة الناس مباشرا . ومن هنا اتسعت رقعة التأليف أو الجمع ، واشتركت عناصر أخرى في شدة الاقبال على هذا الضرب من النثر فكان ( أبو عمرو بن العلاء - ١٥٤ ) . ( والمفضل الضبى - ١٧٠ ) و ( أبو مؤرج بن عمرو السدوسي - ١٩٥ ) و ( أبو عبيدة معمر بن المثنى - ٢١٠ و ( الاصمعي عبدالملك بن قريب - ٢١٣ ) ( وأبو زيد الانصارى - ٢١٥ ) وهي مجموعة تمثل الاهمية التي اكتسبها المثل بين أوساط اللغويين الذين وجدوا فيه مادة لغوية نافعة ، واقبالا يستحق التأليف، ومن المرجح ان تكون هذه الفئة من المؤلفين قد اخذت على عاتقها دراسة المثل أو تفسيره أو تحديد هويته اللغوية ، أو مقارنته بما يقابله من أمثال. أو تأكيد الجانب الاسطورى أو القصصي الذى اتصل به . ثم يبرز كتاب ( أبي عبيد القاسم بن سلام - ٢٢٤ ) الذى اعطى الامثال صورة جديدة من حيث الموضوعات وهي محاولة تحدد المسار الجديد الذى سار فيه التأليف ، وتكشف عن الاهمية التي اخذ يؤديها في الحياة الجديدة ، وقد تركت هذه القاعدة الواسعة من التأليف مجالا رحبا للغويي القرن الثالث امثال ( ابن الاعرابي - ٢٣١ ) (وابن السكيت - ٢٤٤) ( وابن حبيب - ٢٤٥) ( وابي عكرمة - ٢٥٠ ) ( والجاحظ - ٢٥٥ ) ( وابن قتيبة - ٢٧٦ )

( والمفضل بن سلمة ـ ٢٩٠ ) ( وثعلب ـ ٢٩١ ) ٠ ان يوسعوا الدائرة ويمدوا مجال قطرها لتضم اشتاتا كثيرة من المضمون الانساني الذى كانت تطويه الامثال ، لاتصالها المباشر بالتيار الاجتماعي ، وعادات الشعب وتقاليده وعقائده ، وسلوك افراده وخصائص علاقاته ، وطبائعه وما تعكسه من حياته ٠ وتصوره من دخائله ومطامحه ٠ وقد ادرك القدامى من المهتمين هذه الخصائص فقال عنها أبو الحسين بن وهب : واما الامثال فان الحكماء والعلماء والادباء ، لم يزالوا يضربون الامثال ، ويبينون للناس تصرف الاحوال ، بالنظائر والاشباه والامثال ، ويرون هذا النوع من القول انجح مطلبا ، واقرب مذهبا ، ولذلك جعلت القدماء اكثر ادابها وما دونته من علومها بالامثال والقصص عن الامم ٠ ونطقت بعضه على السن الطير والوحش ، وانما أرادوا بذلك أن يجعلوا الاخبار مقرونة بذكر عواقبها ، والمقدمات مضمونة الى نتائجها »[١] ٠

ان المثل لم يقتصر على عبارته الموجزة وانما يتصل بالقصص التي حيكت حوله أو الاساطير التي نسجت من أجله ، وقد شارك ادب الليالي والسمر الشعبي في انماء هذا الجانب ، لانه وجد اذانا مصغية ، ومجالس عامرة تأنس له ، وتتذوق أخباره ، وتطلب المزيد من احداثه حتى اصبح العصر زاخرا بالحكايات والاقاصيص التي يغلب عليها الخيال الشعبي ٠

ان هذه الروافد الفكرية كانت تصب في تيار المثل ، فتغني احداثه ، وترفد معانيه ، وتضيف اليه من افكارها ومضامينها ما يعطيه صفة العطاء ، ويجعله اكثر استجابة للرغبات المتعطشة الى مثل هذه المطامح ٠ لانه يمثل احدى الخبرات الحياتية التي مرت بها الاجيال ، ويشكل التجربة المتكررة والحالات المتشابهة التي لازمت وجود الانسان منذ أن وجد فوق هذه الارض ٠

---

(١) البرهان في وجوه البيان ١٤٥ـ١٤٦ ٠

ان شغف الشعوب برواية المثل ، وتطلعهم التجريدى ، أو الصياغة اللغوية ، أو الاطار المجازى الذى استخدم فيه • انما تتجاوز كل هذه الاشكال الى الجانب النفسي الذى لون ابعاد المثل فاكتسب الميل الوجداني لهذه المجاميع ، لادراكها المحتوى الاصيل الذى ظل ينتقل من جيل الى جيل، وظل يحمل الجوهر الحقيقي للطبيعة البشرية التي آمنت بالتجربة ، وآيقنت بأن عبرة الحياة وعظاتها لابد ان تأخذ طريقها الى النفوس • فبقيت صورة المثل تأخذ اهميتها في الواقع العربي وفي القرآن الكريم والحديث النبوى ، والحديث البسيط ، والقصيدة الشعرية ، وقد بقيت آثاره العميقة تتركز في وجدان الشعب حقائق أو تجارب ، يستمع اليها وهي مرتبطة بأسبابها أو متصلة بدواعيها ، وقد اخذت هذه القصص تتضاعف لتعبر في كل جانب عن وضع اجتماعي قائم ، أو حالة سياسية واقعة ، أو انعطاف نفسي عام ساد المجتمع العربي ، وقد بدأت الامثال تكتسب اوضاع عصورها الجديدة ، وترتدى اردية الاحوال التي استحدثتها العلاقات • وهي في كل هذه الصور والاحوال •• تزداد وتتسع ، ويزداد عليها الاقبال والاهتمام ، فتشغل حيزا اوسع ، وتملأ مجالا اكبر ، وقد وجد فيها الرواة واللغويون ميدانا فسيحا لتسجيل الاحداث وتدوين اللغة وتسجيل الايام والاخبار التي ارتبطت بها •

ان مجال التأليف في هذا الميدان لم يقف عند حدود القرن الثالث الهجرى وانما اتسعت رقعته ، وازدادت دائرة الاهتمام به ، واخذ مجال التأليف فيه أبوابا جديدة ، واتجاهات فنية مختلفة ، وهي محاولات ترمي الى توجيه التأليف وجهة جديدة تعطيه قدرة المعاصرة بأدخال المثل المولد ، والسير به نحو الصورة الجديدة التي اضفتها طبيعة العصر • فكان كتاب الزاهر لابن الانبارى المتوفى سنة (٣٢٨) وما جاء على وزن افعل ( لحمزة الاصفهاني المتوفى سنة ٣٥٠ أو ٣٦٠ ) وكتاب الامثال ( للرافقي الخالع المتوفى سنة

٣٨٨ ) • وجمهرة الامثال ( لابي هلال العسكرى المتوفى ـ ٣٩٥ ) •

واذا انتقلنا الى القرن الخامس الهجرى طالعنا كتابان مهمان يمكن اعتبارهما من المجاميع الكبيرة في كتب الامثال وهما كتاب مجمع الامثال للميداني المتوفى سنة (٥١٨) والمستقصى في امثال العرب للزمخشرى المتوفى سنة (٥٣٨) وقد ظل هذان الكتابان مرجعين مهمين وكبيرين يرجع اليهما في البحث عن هذا الضرب الادبي ، وقد وجدا عناية من المتأخرين الذين حاولوا أن يختصروهما أو ينقحوهما ولكنهم لم يستطيعوا أن يقدموا اضافة جديدة عليهما ••

ان وقوف هذه الزمرة الكبيرة من المؤلفين عند الجانب الادبي ، وانصرافهم الى البحث والتدقيق والجمع والمقابلة ورواية الاخبار وتحقيق الشخوص أو الاحداث ومتابعتهم الاهتداء الى الينابيع الاولى التي عاش فيها أو وجد بسببها توحي بالقيمة الكبيرة التي شغلها ، وتؤكد الجانب الاجتماعي والنفسي الذى ارتبط به ، والحاجة الثقافية التي فرضت هذا النوع بحيث اصبحت له هذه الاهمية ، وقد حاول المؤلفون أن يتابعوا المثل ليهتدوا الى الغاية المرجوة منه • ويتابعوا القصة التي ارتبطت به ليصلوا الى العبرة التي ضرب من اجلها ، أو قيل بسببها • وقد أدى المثل مهمته بأمانة ، فكان نقطة التوجه نحو التعبير عن الكوامن ، وبداية التحسس بما يجب ان يعبر عنه الانسان ، وقد اعانته على ذلك الصياغة المجازية ، والرمز الموجه ، والشكل اللفظي الذى حصر في اطاره المعاني العميقة التي احتواها •• كما استطاع اختصار التعبير عن طريق الاكتفاء بالنتيجة ، لان الجماهير كانت تعلم القصة المرتبطة بالمثل أو الحكاية المصاحبة ، وانها لم تعد تحتاج الى الشرح المفصل أو السرد الطويل ، أو الايضاح المسهب • وبذلك وفر الوقت واختصر الزمن ، واكتفى بالعبارة الاخيرة ، ولابد ان يشار الى استعمال صيغة افعل في المثل ، وهي اكثر الصيغ استعمالا ، واوسعها ورودا في كتب الامثال

وخاصة مجمع الامثال للميداني ، وان هذه الصياغة كانت تعطي المحاولة الفضلى في الوصول الى الاحسن والاكمل والامكن ، وانها كانت تحدد التطلع الاجتماعي نحو الصيغة المقبولة التي تسعى اليها المجاميع الانسانية، فعندما يقال أجود من حاتم ، وافصح من سحبان ، وارق من النسيم وارسى من الرصاص واحذر من الغراب واحر من الجمر ، يقصد بذلك الشكل الاحسن من الشيء المذكور ، وكلها توحي بالصفة التي عرف بها الموصوف ولكنها جاءت على شكل تفضيل وهي صيغة افعل .. وقد تركت هذه الامثال، وهي تحدد من خلال الشكل الموصوف ، اثارها البارزة في الاستخدام ، كما تركت اثارها في وضع المثل موضع الاهتمام باعتباره أعلى صورة لما يراد ..

فارتباط المثل بالقصة أو الحكاية أو العبرة التأريخية ترك لهذه الفنون الادبية أن تنمو وتستعيد صورتها ، وتستكمل اشكالها وعناصرها . كما ان الاهتمام بها طورها تطويرا جعلها صالحة للاستعمال في مجالات أدبية أخرى حتى اصبح شيوعها واضحا في تلك الفنون ، وقد بدأ استخدامها يأخذ شكل التوجه نحو الغاية التي كان يرمي اليها الشاعر من خلال الاساطير التي احتواها المثل . فعندما استعمل زهير بن ابي سلمى عطر منشم في قوله :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما  تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

كان يريد به ما عرفت به هذه المرأة من شؤم لانها ـ كما تقول الروايات عطّاره تبيع الطيب ، فكانوا اذا قصدوا الحرب غمسوا ايديهم في طيبها وتحالفوا عليه بان يستميتوا في تلك الحرب ولا يولّوا أو يقتلوا .. فكانوا اذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول الناس : قد دقوا بينهم عطر منشم .. وكذلك قولهم أشأم من البسوس أو داحس أو اية صورة أخرى تشاءموا منها .

فالقصة هنا أو الحكايات بدأت تتسع وبدأت تدخل في دائرتها حوادث جديدة ومتشابهة ، وتضاف اليها صور قريبة ، وربما جمعت اكثر من قصة

وزيدت اكثر من حادثة ، فتضاعفت الاعـداد وتضخمت الحكايـات وفي طواياها كانت تتجسد نوازع الناس ، وتبرز آمالهم ، وتتعالى امانيهم التي كانت لا تظهر بشكل مباشر ، حتى اصبحت هـذه القصص متنفساً للتعبير الداخلي ، واطارا لاضواء المشاعر والاراء ، لانها في الغالب تتحدث عـن الناس ، وتدور في رحاب اوضاعهم وتصور واقعهم بكل دقائقـه ، وتقف عند الصور التي كانوا يؤكدونها ولعل هذا التعبير الداخلي ، أو التداعي الفكرى الذى انعكس من خلال الاحاديث المتشابهة ، والاحداث المتلازمة هو الذى دفعهم الى هذا الاهتمام وحملهم على الوقوف عند هذا النـوع لصدق تعبيره ، وسلامة تجربته ، وصلاح غايته • وقد ظلت الامثال متنازعة النسبة ، مجهولة القائل ، لانها نابعة من ضمير الامة ، ولان الناس كلهـم يتحسسون تجربتها ويدركون صحـة وقوعها ، وانهـا كانت تجـرى عـلى الالسن دون الاهتمام بمن قالها أو أوجدها ، لانهم كانوا يعرفون انهـا مرتبطة بوجودهم ، ومنحدرة اليهم من اصلابهم الذين استخدموها قبلهم ، ومن غير المعقول أن تنسب لمعاصر لهم ، ولكن الاحتمال بان فلانا استخدمها ثم نسبت اليه هو الراجح في هذا المجال •

وقد عالج المثل الحياة باشكالها ، والواقع بأحداثه ، فلم يترك بابـا الا طرقها ولا موضوعا الا افاض فيه ، ولا صفة الا وقف عندها ، وهو في هذه المعالجة قد أدى مهمته في الالتزام لانه اعتنى بجانب التوجيه ، واخـذ على عاتقه الرعاية ، وساير جنبا الى جنب توعية المجتمع الى ما يحيق به من أوضاع اخلاقية وخلقية ، وكان يدفع الناس الى تحسين اوضاعهم ، ويدعوهم الى تجنب كل ما يفسد عليهم نعم الحياة ، كما كان يبث في نفوسهم الصورة المثلى في كل باب ، ويدعوهم الى الاقتداء بالنموذج الامثل ، ليخلق الجيل الصالح ، والمجتمع الافضل الذى تسود فيه العدالة ، وتمحق عنـده اثـار العبودية ، وتموت النوازع الشريرة •

ان دراسة المثل في الادب العربي تحتاج الى دراسته من الوجهة النفسية والاجتماعية والتربوية ، لانه اقرب اليها ، والصق بتجربتها ، وربما استطاعت امثال هذه الدراسات من ابراز جوانب أخرى اغفلها الدارسون ، لانها تعتمد التحليل الداخلي وتستبطن الاحاسيس التي تحيط بالحدث وتتلمس الهواجس والانفعالات التي يقف عندها ، ومن خلال ذلك ترتسم صورة جديدة • وتعلو صيغة داخلية ملموسة ، يهتدى اليها الدارسون ، يمكن الاعتماد عليها في دراسة تلك المجتمعات دراسة معاصرة ، والوقوف عند نزعات النفوس ورغباتها ، وفي مثل ذلك اضافة موضوعية جديدة ترفد الباحثين بما غاب عنهم وتضع امامهم من الحقائق المجهولة مايمكن في ضوئها اظهار ملامح ظلت بعيدة عن انظار الدارسين امادا طويلة ••

ومثل ما كانت الامثال ملتزمة في تقديم الصورة الواقعية للمجتمع العربي ، وكانت معالجتها الموضوعية سليمة كانت المقامة صورة أخرى من صور الالتزام الواقعي ونموذجا قريبا من نماذج المعالجة المباشرة لكثير من الظواهر التي اعترت الحياة واصبحت جزء محسوسا منها ، لانها ارتدت رداء القصة ، وتمثلت احداثها ، وحددت مكانها بالمجلس ، وزمانها بالغرض، واتخذت لها طابعا متميزا ، وخططت لموضوعها اتجاها اقتصر في اغلب الاحيان على الكدية ( الاستعطاء ) ، وما يدور في هذا المجال من أحداث ، ويدخل فيه من اساليب ، وتستحدث فيه من وسائل ، وقد بدأ هذا الفن يستقطع شرائحه من واقع الحياة العملية ، ويركب عناصر تكوينه من موافقات واقعية ، يراها الناس متباعدة ، وتروى لهم على شكل قصص • وقد أوشكت المقامة ان تكون قصة في كثير من جوانبها لانها تستخدم الحدث ، وتحدد النتيجة ، وتستهدف المعالجة ، وفيها الشخوص القادرون على ترتيب الحوار • وفي ثناياها تكمن العقدة التي تحاك حولها المقامة •

وقد اتخذ منها اصحابها مجالا لعكس الواقع ، ومعالجته ، وتصوير

الاحوال ونقدها ، ومجالا لاظهار براعتهم الادبية في الصنعة اللفظية واللغوية، فاستطاعوا حصر غايتها ، وقد أدى هذا التضيق في الغاية والوسيلة الى براعة فنية فريدة ، وابتداع لفظي يوحي بالاقتدار والابداع • وترك لنا ثروة في هذين المجالين ، كما كان هذا الفن محفزا واضحا في تطوير فن الرسم واستخدام اشخاص المقامات استخداما حدد اشكال صورهم ، وحركات اجسامهم ، وتقاطيع وجوههم ، كما حدد لنا الاشكال الحضارية المستخدمة، والملابس المستعملة ، والالوان المألوفة ، كما حدد لنا طبيعة العلاقة التي ارتسمت خطوطها من خلال التعامل الفني وهذا يعني ان الرسم قد اخذ وظيفته في تحديد شخوص المقامة ، وهو اشارة اولى من اشارات الالتزام الذى وظفه الفنان العربي ، وادخله في نطاق المعالجة الاجتماعية ، فالتاجر والحمال والبائس والبائع والمرأة العجوز ومواكب الافراح والحج كلها اصبحت موضوعات بارزة من موضوعاتها

لقد كان فن المقامات ميدانا لتجربة الفنان العربي ، وعنصرا من عناصر ابراز قدراته ، وباعثا من بواعث نبوغه وانطلاقه لانهم وجدوا في حوادثها تجاوبا لما أرادوا ان يعبروا عنه وموضوعات فتحت آفاقا جديدة لفنهم فالاحتفالات والمواكب والندوات والاسواق والباعة كلها تركت لخيالهم أن ينطلق ولقابلياتهم أن تبرز ولقدراتهم أن تستفيق لتعطي الصورة حجمها ، وتحدد قوتها ••

ولم يقف بعض هؤلاء عند زاوية من زواياها ، أو جانب من جوانبها، وانما حاولوا استقصاء اجزائها ، ومتابعة دقائقها لانهم اعتقدوا بأن الصورة لابد أن تكون متكاملة ، وان الموضوع لايمكن أن يصور مبتورا ، لتكون قدرته على التعبير أقوى ، وتأثيره في النفس اوقع ••

ولعل يحيى بن محمود بن الحسن الواسطى الفنان العربي

المتميز الذى حدد لنفسه طريقة خاصة كان من اوائل الفنانين الذين ابدعوا في المهارة، وبرعوا في الطريقة ، لابراز مظاهر التأثير ، وتجسيد ملامح التعبير وقد انعكست هذه القدرة في امارات الفرح أو الحزن أو التعجب أو الدهشة، بدلالة النظرة ، واشارة اليد ، وحركة الجسم ، .. كما تجسد لاول مرة في هذا التوظيف سلامة الفنان في اعطاء الصور قدرتها من خلال مزج الالوان ، وطريقة استخدامها ، وتحديد مواضعها مما ترك اثارا فريدة في مجال هذا الفن ... ومثل الواسطي أحمد بن جلية الموصلي . وابي الفضل ابن ابي اسحق . وغازى بن عبدالرحمن الدمشقي وآخرين غيرهم شاركوا في هذا الميدان وتركوا بصمات رائدة في هذا المجال .

ان اصحاب هذه المقامات لايمكن ان يخرجوا عن دائرة الالتزام اذا اردنا ان نحدد ابعاد هذا الالتزام ، ولا اغالي اذا قلت انهم يكونون من غلاة الملتزمين لانهم وظفوها توظيفا كليا لتصوير اوضاع المجتمع ، ونقد احواله، والكشف عن المظالم التي يزخر بها ، والمعتقدات الباطلة التي احاطت به ، فايمان الناس بالتمائم واعتقادهم بقدرة هذه التمائم على العلاج ، كانت موضوعا بارزا ، واستعباد الانسان وبيعه وتجارة الرقيق ورواجها، واستهلاك الانسان كانت موضوعا آخر .

ان اهمية المقامات لم تقف عند حدّ الوصف التحليلي للمجتمع العربي الذى عاصر مؤلفو هذه المقامات ، ولم تنته مهمة الفنانين الذين ابدعوا في نقل الصورة الواقعية الى اللوحة الفنية ، وانما تجاوزوها الى عالم آخر كان يزخر بالحركة ، ويموج بالابداع ، ويزدهر بانواع الفنون التي اصبحت جزء من الحضارة العربية في تلك الفترة . وقد اعطى هؤلاء الفنانون هذا الجانب اهمية خاصة ، وأولوه عناية يستحقها . وقد استطاعوا ان ينفذوا من خلاله الى رسم العناصر المعمارية بطريقة حققوا فيها قدرتهم على التعبير ، ووفقوا الى ابراز الجانب التعبيرى عن الافكار التي كانت تدور في رؤوسهم ، وان

كانت هذه الاشكال بعيدة عن التفاصيل الدقيقة التي كانت تتداخل في هذه الاشكال المعمارية ..

ان المقامة أصبحت لوحة فنية متكاملة في خيال الرسام العربي ، واستحالت عبارات اصحابها الى نماذج بارعة ، استغرقتها افكار هذا الفنان ، وطعمتها ريشته التي استطاعت أن تضع بصماتها بقدرة وتمكن ، حتى برزت مظاهر العمارة بوضوح فكانت المساجد والمآذن والقباب وكانت المنازل والنوافذ والباصات وكانت القاعات والخانات والحانات والاسواق وكانت الاشكال الاخرى التي عاشت في الواقع العربي ، صورا لها مكانتها ، واماكن لهـا موقعها . وقد ازدانت بالزخارف ، ولونت بالنقوش ، وحفلت بكل لمسة فنان ، وازدهرت بكل خفقة بارعة وضعها باناقة فوق صفحة الصور الادبية وهو يحدد ملامح الفن ، ويدقق في اجزاء العمارة .. وكما كانت الاشكال الكبيرة تأخذ حجمها في زوايا واواسط الصورة فقد كانت الاشكال المعمارية المكملة تبرز بوضوح في الهيكل العام لها ، فالاعمدة عناصر استخدمها الرسام في تثبيت اللوحة ، واستخدمها في تزيينها وزخرفتها ، وجعل قواعدها اشكالا زخرفية تتعانق فوقها المنحنيات ، وتشد اواسطها الاقواس ، وتزين رؤسها الخطوط المتوازية – وكذلك المحاريب التي ظلت عنصرا واضحا في صور المقامات . والمآذن الاسطوانية الرشيقة التي اخذت امتدادها المتميز ، وشموخها الفني الرائع وهي تقف باباء وكبرياء ورشاقة ومثلها المحاريب والمآذن الابواب والشرفات ... والسقوف .. والعناصر المعمارية الاخرى المتداخلة في البناء والزخارف الهندسية والمنحنيات المتعاقبة والاقواس المكررة وهي استخدامات توحي بقدرة هذا الفنان ،واستيعابه للعناصر ، واحساسه بالاجزاء الدقيقة التي تشكل ابعاد هذا الفن ..

ولم ينس الفنان وهو في غمرة الملامح المعمارية ان يقدم لنا الانسان الذى أراد أن يخلده في لوحاته ، لانه صاحب القضية ، ومبدع الخيال ،

ومبعث الاحياء ، وقد منحه صاحب المقامة اولاً والرسام ثانيا حقه في اللوحة، وحقه في التعبير ، وحقه في الحركة المقررة ، فقدم الرسام هذا الانسان وقد ارتدى زيه المقرر بكل اصنافه فالعمامة كان لها شكلها وكانت لها اصنافها وقد برزت بوضوح واستخدمت ببراعة ، والقلنسوة التي كانت تختفي تحت العمامة وقد اختص بلبسها نفر من الناس حددتهم احاديث المقامات ، والخمار والبرقع والطيلسان والجلباب والسروال والازار والجبة والنطاق والخف كلها اصناف وقفت عندها المقامة وابرزها الفنان بالوانها الزاهية واجزائها الدقيقة ومواضع استعمالها المعروفة ، وقد شاركت هذه الصور في تحديد الهوية الحقيقة لطبيعة هذه الملابس لان اشكالها لم تصل الينا ، وانما ظلت احاديثها تدور واجزاؤها تتردد فهي وثائق مهمة في اثبات الحقائق ، وتأكيد الاخبار ، وترسيخ الصورة التي كان عليها الناس ..

ان اهمية الفنان اصبحت مشتركة ، واهمية الاديب اصبحت مرتبطة لان الفن خلد الادب ، وخلد معه الانسان ، وكلاهما ترك لنفسه براعة الاستخدام، فكانت اثارهما غنية ، والتزامهما واضح المعالم وهما نموذجان من نماذج العمل الخالد الذى تعاونت على اخراجه قدرات الانسان العربي ، وهما عملان من اعمال التوافق الفني في اطار الدائرة الانسانية التي فقدت تعاملها في عصرنا الحاضر ، ونحن بأمس الحاجة الى انصراف الفن لتخليد الواقع وتثبيت الحركة الانسانية الخيرة وهي تصوغ الحياة ، وتبدع الفكر النير ، وتقدم النموذج ليقتدى به ، وقد آن له ان يأخذ دوره في معالجة الحاضر ، وترسيخ الحاجة الملحة ، من خلال اللون الزاهي ، والحركة المعبرة ، والتجسيد الواعي .

لقد صور النثر بمثله ومقاماته وقصصه الواقع العربي ، وبالغ احيانا في تصوير ذلك الواقع ، لانه حاول ان يغور في اعماقه ، ويستبطن احداثه ، ويستكشف ما يدور فيه من وقائع ، متخذا منها نماذجه التي يستطيع ان

يقدمها للمجتمع ، صورة محسوسة ، وواقعاً معبراً ، وصفحة تشرق من الوانها ما يمكن ان يكون عظة لمن يريد • ومن هنا كانت اقاصيص الف ليلة وليلة ادبا انسانيا معبرا ، ونماذج اجتماعية معروفة ، واحوال دينية لها ما يقابلها في الواقع ، وصور اخلاقية ، ألفها الناس ، واحداث اجتماعية وتأريخية واقتصادية تدافعت في خضم البيئة العربية لتأخذ حجمها ، وتؤكد وجودها ، وترسم واقعها فوق صفحاتها وتضع سماتها عند كل شريحة من شرائح المجتمع انذاك ••

وقصص الف ليلة وليلة تنبع احداثها من حاجات المجتمع وترتسم وقائعها من خلال المتطلبات التي حددتها الحاجات ، والشعوب بطبيعتها تميل الى الاستماع الى السير لترى العبر التي وقعت لغيرها من الشعوب أو لأسلافها من الاقوام ، ولتأخذ منها الدرس ، وتنتفع من الخطأ ، وتتجنب الكوارث وهي احوال لها صلة بدراسة التاريخ، وهذا يعني ان نشأة القصص هذه مرتبطة بنشأة الشعب العربي ، وموصولة بأحداثه التي عاصرها ، ولقيمها التي سعى الى تحقيقها ، وبأنسانه الذى كان مدار هذه القصص وبطل تلك الحكايات والامثال • ولعل هذه النشأة البسيطة ، والصور الساذجة قد اتاحت الفرصة للقاص ان يدونها بسيطة وساذجة ، تضم احداثا محصورة ، والوانا من الحكايات محدودة ، ثم تناولها قاص آخر اضاف اليها ما وقع له من الاحداث الجديدة واخضعها لعنصر التجديد والصنعة ، وألبسها من اردية الخيال ما جعلها موافقة ، وهكذا تعاور عليها القصاص ، يضيفون ويزيدون ، يجوّدون وينقحون ، ويظهرون من براعتها ما يضيف عنصر التشويق ، ويبتدعون في تهويل الاحداث ، ويستخدمون الخيال اساسا في حبك القصة ، حتى شكلها الذى وصل الينا ، واصبحت صورة من الادب الرفيع الخالد الذى عاش هذه القرون ، وترك اثاره على الشرق والغرب ، فعرف المستشرقون فضله وترجم الى التركية والفارسية والاردية

والهندستانية ، الى جانب ترجمته الى الفرنسية والالمانية والانكليزية ، ولم يقف اثر الكتاب عند الترجمة وانما كانت اثاره العلمية والآدبية واضحة على اثارهم ، وصرفوا جهوداً كبيرة للبحث عن اصل الكتاب الذى كان جمعاً لقصص متفرقة كتبت لتسلية العامة ، ورويت احداثها للتخفيف عن اعباء الحياة ، وامضاء الوقت ..

والذى نريده من هذا الكتاب هو مدى معالجته لاحوال الناس ، وتسجيله لاحداث الواقع ، وتقييمه تقيما سليما لتلك الاحداث .. وقد حرص مؤلفو هذا الكتاب على ابراز الاحداث ابرازا دقيقا ، ومعالجة المشاكل معالجة شخصية ، وتحديد الجوانب التي شاركت في البناء الاجتماعي تحديدا يوشك أن يكون موفقا في كثير من جوانبه .

فالليالي وقفت في احداثها عند المرأة المحاربة ، والمرأة العالمة ، وكانت تحيط هذه المرأة باعمال بطولية ، قد تكون في بعض الاحيان قريبة من الخيال ، ولكنها تمثل طموح القاص في منزلة هذه المرأة ، وتصوره في المواقع التي يمكن أن تمثلها ، وهي تبدى في حربها مهارة تفوق مهارة الرجال ، وتضرب في اقدامها امثلة من التضحية تصبح في اثرها رائدة من رواد المعارك ، أو صفحة مشرقة من صفحات الثبات والاقتدار وتمثل هذه الفكرة ، فكرة الاعتداد التي شاعت في تراث الامة ، وادبها القديم وانعكست بوضوح من خلال الاعمال الادبية التي ازدحمت بها الليالي .

وتأخذ المرأة العالمة موقعها في الليالي ، لانها ظلت الصورة المرئية في الاخبار ، تحسن الكلام اذا تحدثت ، وتصوغ الاجابة اذا طلبت منها ، وتنفرد بالاخبار التي يطلب منها أن ترويها ، وتقول الشعر الجيد اذا استنشدت ، وقد وجد القصاص في هذه النماذج مجالا للابداع ، وفسحة لاستعمال الخيال ، وامكانية لاستحداث الاشكال التي توافق المجتمع وتنسجم مع الغايات التي يتصورها الناس للمرأة في ذلك العصر ، وهي

غايات مشروعة ، تبررها قدرة المرأة وجرأتها ، وتحميها تجربتها في المواجهة، وتؤيدها وجهة نظر المجموعة البشرية التي آمنت بهذه الغايات والى جانب هذين اللونين كانت هناك الوان أخرى تمر عليها الليالي فالمرأة التي تشارك في تعليم الابن القرآن والحساب والفنون والادب • وهي مهمة تحدد للمرأة وظيفة ثقافية ، كانت تمارسها بشكل أو بأخر ، وهي مهمة شاركت في البناء الثقافي والحضارى للامة • وكانت صورتها نابضة بالحياة والمرأة التي تقف ناصحة وموجهة ، ترشد الابناء الى طريق الفضيلة ، وتمنعهم من التمادي في دروب العبث واللهو والاتفاق• وتحبب اليهم الصدق والوفاء والاخلاص•• ومن هنا كان دورها في الكتاب دورا مهما وبارزا في توجيه الاحداث وتأكيد الخصائص الاجتماعية التي تحرص عليها ، وتعميق الخط الانساني الذى اصبح سمة من سماتها ، لتحتل المقام المناسب والمركز المرموق ، ولتكون الاداة الفاعله في امتلاك زمام المبادرة في كثير من الاحداث ، لتؤكد قدرتها في المجتمع ، ودورها التربوى في مجال البناء ••

لم تغفل قصص الليالي الحياة الاجتماعية التي سادت العصر الذى كتبت فيه ، أو اضافت الى الاخبار التي سمعها القاص وقد احيطت بأشكال من المبالغات ولكنها كانت تعرض لهذه الاحوال عرضا يحقق تأثير الحياة المعاصرة للقصة ولمؤلفها ، من جهة ، ويبرز ما في اذهان الجماهير من الاخبار من جهة أخرى ، فبغداد كانت لها صورتها التأريخية وان كانت تشوبها بعض صور المبالغات وتغطي بيئتها ظلال من الوقائع التي تلوح من خلالها غير مستقلة ، ولطبقات بغداد اوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ، كما اخذت اخبار بلاطات الخلفاء وما سادها من بذخ ، واحاط حياة اهلها من ترف جانبا واسعا من هذا القصص الى جانب اساليب الحكم ومعاملة الرعية وما تداخل فيها من روايات اصبحت موضع اهتمام القصاص تمثلا بحكايات الخلفاء الراشدين الذين كانوا يخرجون في الليالي متنكرين

ليتطلعوا على أحوال الناس ، ويستمعوا الى احاديثهم عن قرب ، ويعيشوا واقعهم الاجتماعي والاقتصادى البائس ، ويطيب لهؤلاء الرواة أن يستمروا في هذه الحكايات وصولا الى اهدافهم التي كانوا يتطلعون اليها ، فيحضرون اولئك الناس الى مجالسهم صباح اليوم التالي ليعيدوا على مسامع الخليفة في مجلسه وامام رجال دولته وحاشيته ما حدثوا به الخليفة المتنكر ليلا ، فترسم على وجهه أمارات الرضا والاطمئنان ، وتبدو علامات العجب والاستحسان فيكرم المحسن ، ويعاقب المسيء ويسجن الظالم ، ويخفف عن هم المظلوم، ويطعم الجائع ، ويقضي حاجة المحتاج ، محاولا وضع الامور في نصابها ، وتسوية المسائل التي وقف عليها ، وهي معالجة توحي بالتزام القاص بالجانب الاجتماعي البائس ، الذى حاولوا ان يبرزوه من خلال القصة ، ويؤكدوا تكرر صورته في كثير منها ، ليرسموا الواقع رسما ، وتتجلى براعتهم في استخدام الخليفة وهو المسؤول في الوقوف على هذا الواقع ، لتأكيد مسؤوليته ، وتحديد تحركه الوظيفي ، كما تتجلى في النهاية التي يختتمون بها القصة ، وهي نهاية تعالج ـ الى حد ما ـ جانبا من جوانب المجتمع ، وتكشف عن سلبيات أولي الامر ، وتبرز الهموم التي كانت تتعاظم في نفوس الناس وهم يصارعون الواقع •• وهي دراسة يمكن ان تكشف عن ابعاد اجتماعية لم يتلمسها الدارسون من خلال النصوص المجردة ، ولم يقفوا عند دخائلها من ثنايا السطور التي انتهت عند حدود الخبر ، أو سكتت عند نهاية القصيدة ، أو قطعت قبل ان ترسم الصورة •

ان ميزة الليالي واهمية دراسة هذه الميزة تتحدد من خلال رسم الصورة المتمثلة في اذهان الناس ، لانها كانت بعيدة عن الصورة ، وخارجة عن اطار الاحداث ، ولهذا ظلت جزئياتها خافية في اروقة الاحاديث البعيدة، وضائعة في خضم الصورة المتزاحمة التي كانت تلف المجتمع آنذاك ، وان هذه الاهمية تحتاج الى دراسة النصوص المتناثرة في هذا الكتاب دراسة

جادة ، ومتابعة الاخبار والاقوال والاستشهادات والتصورات متابعة متلاحقة، تربط بين الخبر ومدلوله ، والقول وما ينطوى عليه ، والاستشهاد وما يرومه، والتصور وما يحكى ثم تحليل ذلك وفق مفاهيم اجتماعية ونفسية تنتهي الى ابراز الجوانب بشكل علمي ، وفرز عناصر المجتمع فرزا يؤيده الشاهد ويثبته الدليل • وتستشف من احداثه طموح الجماهير التي كانت تجد في هذه القصص تجاوباً نفسيا معقولا ••

ولعل صور التجار والجوارى والحكام تمثل المجال الفسيح الذى امتدت اليه اقلام القصاص وهم يفصلون هذه الصور ، ويطيلون في سردها، ويدققون في كل حركة من حركاتهم ، وعلاقة من علاقاتهم ، وما يعتري هذه العلاقات ، ويؤثر في احكامها ، أو يؤدى الى اضعافها ، وقد انتقلت الى بيوتهم ، وتحدثت عن اولادهم ، وما يصنعونه في حالة الميلاد من عادت ، والتربية وما يصاحبها ، والحسد وما ينطوى عليه من نتائج ، واتقاؤه بالاساليب التي تعارف عليها الناس وما تركته في النفوس من آثار ، وانحدر مؤلفو الليالي الى المجالس الخاصة وما يدور فيها ، وبيوت اللهو الخاصة وما يجرى في اروقتها ، وكيف تبدد الاموال ، ويقاد الشباب ، وتذبح الفضائل •

ومن الطبيعي ان يدخل التاريخ في حوادث الليالي ليضيف اليها بعدا جديدا ، ويحقق لها قوة دافعة تحببها الى نفوس المستمعين ، وتقربها الى مجالسهم ، ومن الطبيعي أن يسود الخيال هذا التاريخ ، ليجعله منسجما مع الرغبة التي كانت تعتلج في نفوس الجماهير ، ولكنه كان يحمل مهمة تخليد الابطال ، وتخليد اعمالهم ، وما سجلوه فوق صفحات هذا التاريخ ، وكانت اسماؤهم خالدة في خيال هذه الجماهير ، تذكرها باجلال ، وتتحمس لها باندفاع ، وتعيش معها البطولة والفروسية ، تحزن لحزنها ، وتتأثر لتأثرها ، تزهو اذا سجلت العمل الخالد والانتصار المؤزر ، والموقف الرائع ، وتصيبها الخيبة اذا شعرت بحراجة موقفها ، وضعف مركزها •

لقد ارتسمت المثل الاخلاقية في الليالي ارتساما يؤكد استساغة الجماهير لها ، والفته لأحداثها ، وهي مثل انبعثت من ايمان هذه الجماهير بسلامة هذه المثل ويتضح من سياق القصص المذكورة أن الاشكال العامة لهذه القصص تأخذ نمطا متشابها ، ونسقا تكوينيا متقاربا وتعالج أمورا اجتماعية متقاربة ، فالجماهير لا يروق لها أن ترى الفارس الظالم أو الشرير منتصرا ، ولا تنهى لياليها أو احداثها بخذلان لان الخير ، أو هزيمة قوى الحق، او ضياع حقّ واضح المعالم ، ولاتؤمن بالصورة المهزوزة التي يتسرب من خلالها الموقف الفج ، أو الشخصية الضعيفة ، أو الخصلة المرذولة ، لهذا كانت مطامحها وغاياتها تشكل نقطة التحول التي تبدو سماتها واضحة من الوقائع الصغيرة ، والاحداث الاولى ، واللمسات المتكررة .

فالجانب الاخلاقي في الليالي يمثل الجانب الاخلاقي الشعبي الذى تحسسه الجمهور فأصبح حلقة من حلقات حياته ، وآمنت به طبقات الشعب فأصبح جزء من كيانها ، وقد ازدهر هذا اللون ازدهارا دللّت على بروزه النماذج الكثيرة ، واكدت رسوخه القصص المكررة ، فالمال في الليالي له سلطان يزول بزواله ، وينتهي عند حدود نفاده ، وله اصحاب يكثرون عند توفره ، ويتجمعون في حالة وجوده ، وتختفي معالمهم عند ذهابه ، وتنقطع صلاتهم عند انقطاع اجله ، وهي تشد بين هذا الجانب المادى وبين الجانب الروحي ، وتحدد العلاقات التي يحكمها المال ، ويبقيها دوامه ولكن الليالي لا تقف عند هذا الحد ، ولا تسلم بهذا الواقع ، وانما تعطي للجمهور حق طموحه ، وتحقق للمشاعر الانسانية سبيل بقائها ، فالانسان الذى تقسو عليه الطبيعة بعارض من عوارضها أو تهدر أمواله بسبب من اسبابها، لايعدم المساعدة ، ولا تنقطع عنه اسباب الرحمة ، ولا يبتعد عنه عطف الكرام ، فيظهر الرجل المنقذ ، وتشمخ عناصرا لوفاء ، وتزدهر المواقف الانسانية التي لم تنقطع اسبابها ، وعندها تجد الجماهير موقفها البطولي يرتسم فوق هذه

المعالم، وتجد طموحها يتحقق في اروقة الليالي نماذج وفاء انسانية بليغة، وقواعد مجد قومي خير ، فيأخذ هذا الانسان من دهره عبرة الاجيال ، ويحس في رحمة الناس مجالا للالتزام بما تريده الجماهير ، فيرد الجميل الى اصحابه ، ويعيد الى الناس ثقتهم فتعلو على الوجوه اسارير البهجة ، وتتلألأ خصال الارتياح ، فتنتعش النفوس ، وتطمئن القلوب . ويظل الناس يتابعون الموقف بتلهف ويستمعون الى الاحاديث بشوق . وقد شدت اليهــا العواطف ، وانتصبت المشاعر وكان القصاص يحركون الاشخاص وفق الغايات التــي يجدون الانظار تتجه اليها، ويدركون أن تأثيرها قد اخذ حجمه في الفكر والواقع والحدث، ويظل الجمهور يتابع ذلك الفقر الذى ذاق صاحبه مرارة العصر ، وتجرع قسوة الحرمان ، ولوعته تعاسة الواقع ، ثم كيف عليه أن يعمــل ويجد ، ويثابر ويجمع المال ويحصل عليه بعد الكــد والتعب ، فيعود الى اولئك الذين أحسنو اليه يوم حاجته ، وعاونوه يوم شدته ، فيقدم اليهــم المال ، ويجزل العطاء ، ردا للجميل ، وحفظا لليد التي احسنت اليــه . وهكذا .. ترتفع القيم ، وتحفظ الاخلاق ، ويعم عالم الوفــاء والتعــاون والاخلاص ، وتسود مثل رد الجميل والاعتراف بالاحسان وتنتشر القواعد التي تؤمن بأن جزاء الخير هو الخير ، وأن العقاب لابد أن ينتظر المسيء والشرير وتتأكد هذه الحقائق في معظم القصص ، وتتحقق احداثها بشــكل متناسق ، فكانت صفة الخير هي الغالبة ونزعة الفضيلة هي السائدة واصبحت القصص تحمل عنصر التوجيه ، وتقوم مقام الارشاد ، وتقرأ في كل محفل ، وفي وسط كل حلقة وبيت فيستمتع بها الجمهــور ، ويتذوق توجيههــا ، ويطبق صورها في حياته اليومية ، فكان العدل أنموذجا من نماذج التطبيق ، وتحمل المسؤولية صورة من صور التقليد ، وتبادل الثقة ، وحسن المعاملة، والالتزام بالوفاء اشكالا من اشكال التعامل ..

ان الصدى الحقيقي الذى دار في اذهان القصاص وهم يتبارون في

تأكيده كان يرسم الغايات النبيلة والاهداف الانسانية الشريفة التي كانت تؤكد هذا الخلق ، وتدعو الى الالتزام به ، وكانت جحافل مؤلفي الليـالي تستجيب لهذه الغايات استجابات نابعة من ايمانهم باهميتها لاعلاء شـأن الجانب الاخلاقي واظهار مدى هذا الجانب في حياة الجماهير ، وبالاستشهادات القريبـة والقصص المعروفة والاحداث الملموسة ، فكـانوا يؤدون دورهـم في التوجيه أداء يعجز الكثير من الادباء عن ادائه ، ويوظفون الادب في هذا المجال توظيفا يخدم الجماهير ، ويحقق اهدافه في اوساطها ، ويدخل عنصرا اساسيا في التربية الاخلاقية الموجهة ..

لقد ظل النثر العربي يؤدى دوره في التربية الفكرية والاخلاقيـة ، ويؤدى مهمته في التوعية السياسية والثقافية من خلال انواعـه المتميزة ، واشكاله التي كانت تستخدم في كل غرض مناسب ، فاذا كان المثل والمقامة وقصص الليالي قد شهدت هذا التحول الواضح في العمل الوظيفي ، واذا كانت اشكالها الادبية ومعالجتها الموضوعية قد حددت المهمة التي كانت تتضح من ثنايـا الاستخدام المباشـر ، أو التوجيه المحـدد ، فـان الاجزاء الاخـرى التي كانت تترأى من زوايا المعالجة كانت تأخذ حجما ثقافيـا وحضاريا آخر ، لانه كان يعرض لاحوال الناس الذين تقصدهـم هـذه الضروب ، ويفصل في استقصاء اوضاعهم الاجتماعية ، واصناف حياتهـم الاقتصادية ، وضروب المعيشة واشكال العلاقة ، وتحديد الواقع الـذى كانت تخفيه استار من الارتباطات . ولانه كان يدخل في تفاصيل هذه الاحوال ومتابعة نتائجها ، ودراسة اسبابها وعللها وعناصرها ودوافعها . وكل مايحيط بها ، وفي هذه الدراسة والمتابعة كانت تبرز الصور الذى يبحث عنها الدارس، ويفتش عنها الباحث ، لينتهي الى تحديد كثير من اشكال التوجيهـات .. ولانه كان يقف عند دخائل النفوس ، وما تطويه من انفعالات ، وترسمه من احوال ، وتطمح اليه من آمال ، ليقدمها نماذج من الاوضاع التي كـانت

تشكل اللوحة الاخلاقية للمجموعة البشرية ، ولانها تعطي الانعكاسات والاحاسيس التي يزخر بها المجتمع الانساني في تلك الفترة ، وهي صور ما تزال خفاياها غير مدروسة ، وما تزال البحوث تقف عند المظاهر التي حددتها هذه الضروب من الادب ، وما يصح أن يقال في تلك النماذج يصح أن يقال في الرسالة والخطبة والوصية وكل الانواع الادبية الاخرى التي خاطبت الناس لاصلاح احوالهم ، وكتبت لتوجيه حياتهم ، وارشادهم لكل صالح اجمعت على صلاحه الامة ، والابتعاد عن كل أمر اجمعت على بطلانه الامة ، وقد ظلت هذه الضروب تمثل الوانا من الوان التوجيه ، وشعارات من شعارات الامة التي ترفعها عند كل أمر ، وفي كل مناسبة ، لقد افردت للقصة بابا في مجال حديثي عن النثر والالتزام ، لانها تمثل مساحة كبيرة تشابكت فيها عناصر ، وتجسدت في احداثها وقائع ، وتداخلت في اساليب صوغها مطامح ، وارتسمت من بين موضوعاتها اشكال ، وهي جميعها انسانية التكوين ، شمولية المعالجة ، لايمكن تجاوزها ، أو اختزالها في معالجة سريعة ، وهذا ما جعلني افرد لها باباً ، يعطيها حقها ، ويبرز قيمتها ، ويرفعها مصافها الذى تستحقه في عالم الادب ، فكرة واداء •

والقصة في الادب العربي منذ نشأتها اعتمدت الانسان عنصرا من عناصر تكوينها ، فأعارته من الاهتمام ما يتناسب مع دوره في الحياة ، وقيمته في تغيير الواقع ، وقدرته على هذا التغيير ، وكثيرا ما كانت اخباره تأخذ جانب الابتعاد عن الاعمال المألوفة ، والاحوال التي تعارف الناس على القيام بها ، فدخلت اعماله في نطاق الخوارق ، وانتقلت قدراته الى المحيط الذى لا يعجز التمكن منه البشر •

وقد التزمت بالحدود التي تحركت في داخلها والمكان الذى ابتدأت فيه ، والنهاية التي انتهت اليها ، كما التزمت بمظاهر الحياة التي احاطت بها ، وصور الواقع الذى تعيش فيه • والخطة الاساسية التي ارتكزت

عليها في البناء • التزمت بها وادتها بوضوح وجلاء ، واستخدمتها استخداما يدل على النضوج في المعالجة والاقتدار على اداء المهمة ، ولم تغفل وحدة العمل القصصي الذى كان يشد بين سلاسل فصولها ، ويربط بين اجزاء عناصرها ، حتى اصبح هذا الشد في العمل القصصي خصيصة من الخصائص التي عرفت بها ، لانها اوشكت أن تكون عملا متكاملا لا تبدو عليه امارات الانفصال ، أو تظهر عليه علامات التفكك • وقد يلجأ القاص الى اساليب متعددة يدخلها في اطار قصته ، لتأخذ مكانتها في واقع الاحداث فالموقف الحاد ، والصراع المحتدم والحيوية التي يتميز بها البطل ، والتأجج الذى تتعالى ومضاته ، والعواطف الملتهبة التي تأخذ زاويتها ، كلها عناصر لهـا دائرتها الموفقة في التكوين العام ، وهي تترابط ترابطا عضويا مع سير الاحداث الذى يشق مساره في الخط العام لاتجاه القصة •

والقصة بأصولها التي اعتمدت الانسان مرتكزا حاولت ان تقف عند علاقاته الاجتماعية التي تشده بالآخرين ، كما حاولت متابعة المظاهر والانماط السلوكية التي انعكست من خلال تصرفاته ، وما كانت تحدثه من تغيير في واقع المجتمع ، وتضيفه من اشكال تترك في نفوس الناس ما يجعلها قريبة من مشاربهم حبيبة الى نفوسهم فتستخدم عنصر التشويق والامتاع والمؤانسة ، فتستهوي المتابعين وتشدهم الى احداثها شدّاً قويا ، وتلبي طموح هذا الانسان الذى يميل الى معرفة العقل الانساني الذى يتحكم في احداث القصة ، ويسعى الى معرفة الدوافع مع الاسباب التي تحمله على أن يتصرف هذه التصرفات ، وتحدثه نفسه الى الانسياق وراء الخط الاخلاقي الذى تلوح ابعاده من خلال الاندفاع ، والعوامل التي تؤثر فيه • والمظاهر التي تمخّض عنها هذا التأثر ، وهذا جانب نفساني بحت ، انتفع منه القاص ووظفّه في نتاجه توظيفاً انسانيا موفقا ، واستطاع أن يجعله تيارا يحكم احداث القصة ، ويربط بين سلاسل تكوينها ، ربطا فنيا بارعا •

ولابد ان يكون تتابع الانسان لهذه الاحداث ناتجا من التوافق السلوكي الذى ينعقد من خلال الالتقاء عند الصفة المشابهة ، والحالة المتوافقة والاحداث التي ترتاح اليها النفوس ، والعناصر التي تجد في ابرازها بغيتها ، الى غير ذلك من الاعتبارات الفنية والنفسية التي يحاول القاص ابرازها ، والتأكيد عليها ، أو اثارتها • ومن خلال التفاعل النفسي ، والاعتراف الداخلي ، والبوح الصامت الذىيتداخل في عملية المتابعة لاحداث القصة وما يجرى في حدود التأثر الذى تعكسه شخصياتها وتستثيره النوازع والمطامح والحركات المتباعدة أو المتقاربة تتجلى البراعة التي تحقق النتائج التي تنتظرها جماهير المستمعين ، وتود أن تقف عندها رغباتهم المتوثبة ، وهي نوازع ترضي هذه الجماهير لانها تجسم لها المثل العليا التي كانت تفتش عنها ، وترسم لها البطل الذى افتقدت وجوده ، وتحدد ملامح المجتمع السعيد الذى يجد فيه الانسان سعادته وحقوقه ، ولابد أن يكتب لمثل هذه القصص الخلود ، وتبقى احداثها وشخصياتها حية على امتداد الزمن ، لان هذه الشخصيات تتفاعل مع القارىء مما يجعلها مقبولة يسهل على القارى فهمها وادراكها ، وهي براعة توحي بقدرة كاتبها أو مؤلفها لانه استطاع أن يجمع جزئياتها التي فسحت المجال لتحرك العمل القصصي تحركا شاملا حتى جعلت العناصر الثانوية من القصة تبدو ضعيفة في نطاق الشخصيات البارزة التي اكد دورها القاص ، وحدد مسيرتها المرسومة ، وأغدق عليها من الخصائص ما تركها مكتملة العناصر •

لقد استطاع العقل العربي ان يتخذ من السير القديمة ركائز ثابتة لبناء اعمدة القصة ويشيد منها صرحا شامخا في المجال القصصي العالمي منذ أن عرف العالم القصة ، وقد استطاع هذا العقل ان يحول قصة كليب وعنترة وحرب البسوس وذى قار وابي زيد الهلالي والبراق الى اشكال ادبية سمعتها الاجيال فأدركت فيها هدفها ، ورددتها الجماهير فأستوعبت فكرها

وبناءهــا ..

ان قصة كليب وائل واحدة من القصص التي أبدعت في رسمها ريشة القاص العربي ، فحولتها من حقيقتها البسيطة الى اصولهـا الفنيـــة التـي ما تزال تفتقر الى الدراسة النقدية والتي تعيد الى هذه القصة قيمتها فـــي المجال الادبي ، وقوتها في الاداء ، ومكانتها في عالم القصة الحديث ، وكليب هو وائل بن ربيعة التغلبي ، قائد قومه في حرب حاسـمة ، حققوا فيهـــا الانتصار ، وطهروا ارضهم من الخصوم ، وكانت امانيهم ترمي الى عـــالم يسعدون فيه بالحرية ، وينعمون في ظله برغد العيش ، بعد أن تحملوا من الجور ما دفعهم الى التمرد .. ولم يحسن هذا القائد ادارة قومه فاستأثـر بالمراعي الخصبة ، واستمع لوحده بما تدره عليه الارض ، وترك النـاس يحملون هموم الحياة ، ويقاسون قسوتها ومرارتها ، وأحل لنفسه ما حرمه على الاخرين .. ولم تعدم القبيلة انسانا يوقف هذا المتمادى ، ويحد مـن سلوكه الذى خرج على تقاليد القبيلة . فكان الرجل المنتظر جساس بن مرة أحد اخوة زوجته جليلة ، فقد اخذ هذا الرجل دوره في القصة ، واخذ مكانته في المهمة التي حملته اياها هذه المرحلة في القصة .

ان هذا الجانب من القصة اخذ مكانته فيها بشكل فني ناجح ، كتبـه القاص العربي فحدد البيئة الزمانية والمكانيـة ، ورصـد كـل ما يتصـل بعالمها الطبيعي ، وباوضاع الشـخصيات التـي لازمت القصة واخلاقهـم واساليبهم في الحياة وخصائصهم الانسانية وعلاقاتهم التي حددت مراكزهم، وصلاتهم بالواقع ، والمؤاثرات التي كانت تأخذ حجمها في التعبير والتأثير ، وما تتركه من ظواهر ، وكانت قدرة هذا القاص تتمكن عندمـا يحـاول تحريك هذه الشخصيات بحيوية واقتدار فيلتقط المواقع الحساسـة مستعينا بما كانت تفرضه عليه الوقائع ومستخدما خياله في طبع اشكالها بلمساتـه الفنية ، مؤكدا التفاعل الحقيقي الذى برزت ملامحه من ثنايا السلوك الفردى

أو الجماعي ، وهو في عمله هذا لم يهمل الاسلوب التعبيرى الذى كان اساسا في الربط بين المدلول القصصي واسلوب التعبير الموافق ، وقد استطاع هذا القاص أن يؤكد العناصر الاساسية التي أراد لها الوضوح فموقفه كان واضحا من سياق القصة ، وتوفيقه في الاقتراب من مشاعر الجماهير كان مدركا من خلال التوقيت الزمني للاحداث • وغايته التي سعى الى تحقيقها وبلوغ مراميها اصبحت هدفا من أهداف البناء العام للقصة ••

ان بساطة الاسلوب واستخدام الالفاظ المعبرة والموحية والابتعاد عن الغريب من الالفاظ كان سببا مهما من اسباب انتشار القصة ، وجريان اخبارها جريانا اكسبها شعبية قل ان نالتها قصة أخرى ••

لقد افلح القاص العربي في استخدام العناصر الانسانية التي عرفتها بيئته ، وعرفها زمانه وكان يتعامل معها تعاملا يوحي بحسن تمثلها ، ويؤكد قدرته على فهمها واستقصاء اجزائها وقد منحته هذه المعرفة قوة الايغال في الاحداث ، وشدة الملازمة لادراك الروابط التي تشد بينها فكانت قصة احبك نسيجها ، وتماسكت خيوطها ، ومظهرا من المظاهر الفنية البارزة•

أن وقوف القاص عند كليب الذى اغتصب حق قومه يمثل التفاتة جريئة لتحديد العقدة الاساسية في القصة ، وتحديد ابعاد الرجل المنقذ المتمثل في جساس بن مرة ويمثل التفاتة أخرى لايجاد الحل الصحيح للعقدة، ووقوفه عند أحوال القوم الذين اشتد فيهم الظلم وضاقت عليهم فرص الحياة وعانوا من بؤس الايام يمثل التزاماً بتحديد الطرف المتحرك في القصة ، ويمثل التزاما بمتابعة هذا الطرف صاحب المصلحة الاساسية في القصة ، ويمثل تأكيدا بأن القاص كان يحرك الاشخاص وفق الاسس التي يراها صالحة لخدمة هذه الجماهير التي كانت تضغط من خلال مشاعرها ، وتؤثر من خلال علاقاتها في توجيه القصة الوجهة الانسانية المقبولة لتحقق لهم

الحياة التي كانوا يرغبون في الوصول اليها ، وتحقق لهم المستقبل الـذى من أجله وقفوا امام خصومهم واجبروهم على الهزيمة •• ووقوف القاص عند جليلة زوجة كليب واخت جساس يمثل التفاتة اخرى في سـياق الاحـداث لابراز الصراع العاطفي الذى أخذ دوره في تحريـك العواطف في موقفين غريبين من مواقف الاعتزاز والعاطفة ، موقف الزوجة التي اخلصت وضحت وموقف الاخت التي ترى في اخيها الرجل المنقذ والانسان الذى تطمح اليه قلـوب النـاس •

ان وقوف القاص عند هذا الجانب يمثل الادراك الحقيقي لتحـريك العواطف عند النقطة الحرجة ، والموقف الحاد ، وان هذا الموقف ظل اساسا في بنـاء الهيـكل العـام للمأساة في القصص العالمي ، وظلت مرتكزاته نماذج للربط بين الكثير من اشهر وأغرب هذه القصص •

ان وقوع الانسان بين عاطفتين كريمتين تتنازعان العواطف ، وتتقاسمان المشاعر ، وتشد كل واحدة منهما الى ناحية تمثـل الصراع الذى يحتدم في النفس البشرية عندما تقف هذا الموقف ، وان روابط الاخوة ، ووشـائج الاتصال حملت الاخت جليلة على التعاطف مع اخيها الانسان ، الذى كـان يوفر لهـا وسائل الحياة ، ويحقق لها الحماية المنتظرة ، ويؤكد لها وجودها الانساني في عالم اعتمد القوة عنصرا من عناصر الحياة • ان هذا الربـاط الوثيق كان عامل شد حاسم في اذكاء جذوة الالتزام بجانب الاخ • وفـاء للقيم السائدة ، واعترافا بالحقوق التي اصبحت اساسا من أسس الانتماء•• وان روابط الزوجية دفعتها الى الاخلاص الى زوجهـا • والتضحية من أجـل الحفاظ على الكيان العائلي ، لانه المسؤول عنها ، المدافع عن وجودها ، الى جانب الرابطة العاطفية التي تحكم بناء العلاقات وتلم اشتات الشمل ، فهو البطل والزوج والنموذج ، وهو الانسان الذى يقدر نزاهـة الحب الذى يجمع بينهما ••

ان هذا الصراع بين هذه العواطف يمثل ذروة المعاناة ويعكس قمة الصراع الذى كان يساور المرأة وهي تتمزق احساسا ، ولكنها تظل رمزا من رموز المجد الانساني الذى استطاع ان يغلب جانب الخير ، وينتصر للحق الذى يراه ، وهي نهاية تحددها القصة •

# الالتزام والنقد

ان محاولة اعادة تقويم الواقع الادبي محاولة ليست باليسيرة ، لانها تعني ايقاف المحاولات التقليدية التي تعد استمرارا للدراسات القديمة ، وهي في حد ذاتها دراسات وقفت عند جوانب محدودة ، وتناولت الموضوعات الادبية تناولاً يتسم بالتقليد ، وتنتهي عند الابعاد المرسومة ، واتخذت لها اسلوبا في المعالجة يتمثل في التأكيد على الجانب التاريخي والسرد الحياتي ويبني قواعده من خلال الاحكام السريعة التي اعتمدت العبارة الموجزة والحكم الارتجالي . والتقويم الفردى السريع ، وقد جرّت هذه الدراسات والاحكام على الادب العربي مسائل كان لها حجمها في امتداد الادب واهدافه وكان لها تأثيرها في تقويم هذا النتاج ، وتقويم اصحابه الذين أدخلوا في اطار تلك الاحكام . فمات الابداع ، واندثر الخلق الفني ، وضاع الجهد الاصيل ، وتساوت في كثير من الصور الاحكام ، وانتهت الى نهايات متشابهة الا فروقا كانت غير متميزة ، واكتفت هذه الدراسات بالاعلام البارزين ، الذين استطاعوا أن يفرضوا انفسهم على الواقع ، أو استطاع الواقع أن يرفعهم الى المستوى الرسمي الذى اصبح مقتنعا باحقيتهم في الوصول والتعبير والتفاعل ، وظلت الجحافل الكبيرة التي لم يقدر لها أن ترتفع ، أو تمكنها اوضاعها من الارتفاع ، تكتب الحياة ، وترسم الواقع ، وتضع البصمات الانسانية التي تراها موافقة فوق ادبها الذى ظل بعيدا . وهو

أدب فيه جوانب كثيرة تستحق الاهتمام لالتزامها باحوال الجماهير ؛ وتعبيرها عن طموحها في الحياة الحرة ، ورصدها لكل الاحداث التي كانت تراها بعيدة عن الواقع الانساني .

ويدخل في هذا الاطار التناول النقدى الذى حدد الطريقة ، وشخص الاساس والتزم بالمنهج المرسوم ، وفي ظلال هذا المناخ الادبي ، والتناول المحدد الذى فرضته طبيعة المرحلة ، والاستنتاج الموجز الذى كان نتيجة طبيعية لتلك المقدمات درس النص الادبي ، ودرست موضوعات الادب ، ودرس الشعراء والكتاب والرواة والنقاد ، ودرست نتاجاتهم الادبية ، وقيلت بشأنهم اقوال اصبحت نصوصا لا يطاولها حكم ، ولا يحد من قوتها قول، ولا يوقف من امتداد تسلطها رأى ومن الطبيعي ان تظل الاحكام قائمة ، وتظل معها النصوص محكومة فيسلاسل تلك الاحكام والآراء ، وقد تركت اثارها في عالم الدراسة الادبية ، واضاعت من الصور والجوانب ما نحن بحاجة اليه ، واوقفت من التصورات ما يغني حركة الاحياء العربي ويرفد تيارها الدافق ..

ان هذا الواقع الادبي في جانبيه السردى والنقدى ، والاسلوب الذى ساد حياته كان صورة من صور الاتجاهات التي عولجت من خلالها النتاجات الادبية ، وقد ظلت هذه الدراساتمفتقرة الى التناول الجديد ، واعادة التقويم السليم ، والاستجابة الاجتماعية والنفس التي كانت تأخذ بعدها في واقع النص ودلالته ولابد ان تكون هذه المقدمة وما عرضت له من مسائلتشكل المواضع الحقيقية التي كانت تنبعث منها علامات الاهتداء الى التحليل الذى يجب ان يتم ، والربط الذى يفترض ان يجد مكانته ، وابراز اماكن الابداع التي تضمنها النص .. وقد تركت هذه الانطباعات اثارها الواضحة في كل الدراسات التي دارت في فلكها ، واتسمت بنمطها ووقفت عند طريقتها اداء وتنسيقا والتزاما . وقد ادى ذلك الى خفوت كثير من الاصوات التي كانت

تتعالى ولكنها نقع في اطار الدائرة المرسومة ، ونسيان الاعداد الكبيرة من الشعراء الذين استطاعوا أن يطبعوا براعتهم بقوة وصلابة فوق جباه الاحداث ، وضياع اكداس من النصوص التي عبرت عن الجوانب الانسانية والاجتماعية والنفسية •• وتختفي في زحمة الخفوت النسيان والضياع • معالم الادب العربي الذى حاول بناته أن يجعلوه ادبا معبرا عن الواقع المحسوس وقد تميز بمواهبهم الخلاّقة المشفوعة بحب الحياة، وقدرة التعبير عن هذه الحياة والتضحية من أجل الفناء في موضوع الاعجاب ، وموضوع الايداع الخلاق ، ولابد ان يكون ذلك نتيجة لايمان الاديب بشرعية المهمة التي اخذ على نفسه الاضطلاع بها فهو على الرغم من تعاسة الحياة التي كان يمر بها ، أو بؤس الواقع الاجتماعي والنفسي الذى كان يلف حياته كان يرسم هذا الواقع البائس ، ويجهد نفسه في تلوين زواياه بما يتناسب معه من الوان ، ويكسبه من جمال اللفظ وجلال المعنى ما يتركه نموذجا حيا من نماذج الحياة الحية ، ان قيمة الحياة عند الاديب كانت تتحدد من خلال تضحيته من أجل العمل الادبي ، وان قيمة الخلود كانت تتحقق من خلال ايمانه بصراحة التعبير عن الواقع النفسي الذى كان يمر به أو الواقع الاجتماعي الذى كان يحيط حياته ، ومن هنا كانت مشاعر المسؤولية تتراكم في تعبيره، وتحمل تبعات وعيه ـ دون غيره لجواهر الاحداث وادراكه لما يجب ان يقوم به ، كانت تلزمه بالوقوف موقف الصراحة ، والانقياد بوعي متكامل الى اخذ الموقع المناسب ليكتسب عمله الادبي دلالته الحسية والواقعية •

ولعل هذا التكامل الفني في اختيار الموضوع وقدرة التعبير والاخلاص لدلالة النص هي التي جعلت نماذج الادب تأخذ طريقها الى القارى ـ عبر مئات السنين ـ ، وتأخذ مكانتها في اطار العلاقات الاجتماعية ، وتتفاعل تفاعلاً وجدانيا متبادلا • وقد شدت هذه الوشائج المصيرية الادب في كثير من عصوره ومراحله باوساط المجتمع ، واحكمت طرائق استمرار هذه

الوشائج • التي اكدت صلة العمل الادبي بالمجتمع ، حتى اصبح الادب صورة واضحة لكثير من الظواهر الاجتماعية التي يصعب الوقوف عليها ••

لقد حاول الاديب العربي ان يربط بين عمله وبين مجتمعه وفق صورة من الصور ، وقد تجلى هذا الربط من خلال معالجاته للاغراض الشعرية التي وقف عندها واحلال المضامين الاجتماعية التي كان يراها مناسبة ، متخذا من شيوعها وموافقتها للنظام الاجتماعي ، والتزامها بما يحقق لها استقطاب الاغلبية من الجمهور ، حجة للاستخدام ، ودليلا للاستشهاد • ولم يكن غريبا عن تصورنا ديوان المتنبي الذى يمكن اعتباره مجموعة من النصوص الاجتماعية التي وقفت عند كل جانب اجتماعي ، وتحدثت عن كثير من الاحوال التي تدخل في نطاق هذا الجانب ، كما استطاع الشاعر ان يغور الى النفوس فيسبر اعماقها ، ويستخلص اثارها ويدرك بذكاء مفرط وجهتها وما ترتاح اليه ، ومطامحها وما ترغب فيه ، وقد مكنته قدرته اللغوية وثقافته الفلسفية من صياغتها صياغة مبدعة ووضعها في اطار فني جعلها مجال بحث ومناقشة من جهة ، وموضع اهتمام ومتابعة ودراسة من جهة اخرى لان كثيرا من مضامينها تدخل في اطار العلاقات الاجتماعية ، ومعانيها تعبر بحذق وذكاء عن الاواصر التي تشد أو تضعف هذه العلاقات ، وقد وجد ان الناس ، على اختلاف مشاربهم ونزعاتهم قد وجدوا فيها مواقع تطمأن اليها نفوسهم فعاشوا مع شعره في كل جيل ، وتذوقوا معانيه في كل عصر ، وشغفوا بقرائته في كل مجلس • ووجد فيه كل فرد بغيته ، ولعل تغلغل اشعاره ودورانها على كل لسان ، واستخدامها في كل مجال دليل من أدلة استيعابها لتجارب الناس ، وامتصاصها لما يشعرون به من اوضاع وما يقال عن المتنبي يقال عن ابي العلاء وعن غيرهما من الشعراء الذين عرفوا بهذا الاتجاه •

ان دراسة شعر المتنبي أو أبي العلاء بمعزل عن الواقع الاجتماعي

والسياسي وبمعزل عن الاحداث التي رافقت العصر تعد دراسة مبتورة ، وان كل التقييمات التى تحددت من خلال هذه الدراسة كانت تقييمات ادبية ضيقة ، وان ابعاد الربط بين التاريخ الادبي لهما ولغيرهما من الشعراء الذين ضاعوا في زحمة الشهرة ، وبين الحاضر ، هي الاخرى محاولة من محاولات الطمس الذى تعرضت له الحركة الادبية العربية •

ان محاولة اعادة التفسير وفق التقييم الجديد لكل الظواهر ولكل النصوص، تشكل المرتكز الاساسي للدراسة الجديدة، التي يمكن اعتبارها بعيدة عن القوالب الجامدة التي احكمت صياغتها على كل عصر ، ووضعت مواصفاتها لكل شاعر ، ووقفت حدودها عند كل نص وان ادراك الاديب العربي لدوره في التوجيه والقيادة أهلّه للتأثير على الجمهور المستمع ، الذى كان يمثل مجموعة الظواهر الحضارية المعاصرة ومجموعة القيم الاجتماعية السائدة ، ومجموعة المفاهيم الثقافية المتعارف عليها ، ولهذا كان النص صورة لاستخدام الظواهر ، وتنسيق المعارف ، وانتقاء الاحوال ، وصياغة الفكر وهي عملية لابد ان يعاد النظر في اصولها ، لانها لا تقتصر على دراسة النص المجرد ولا تقف عند حدود الشاعر المعزول ، فهي نتاج امتزاج اجتماعي وحضارى وفكرى احسن فيه الشاعر دوره في تقديم النص ، وأحسن فيه الاديب مقدرته في صياغة القطعة الادبية ، وأدى الجمهور المستوعب لدوره في الحياة مهمته الثقافية من خلال التلقي والتأثر ، والتفاعل والاستجابة ، وهي جوانب لها دورها في العمل الادبي ولها قيمتها في عملية النقد ، ولها موازينها في البناء الاجتماعي الذى كان الشاعر جزء منه، وكان الجمهور قاعدته الواسعة •

ان الدور الحقيقي للاديب العربي ـ عبر امتداد الزمن ـ كان دورا واعيا وبناء لانه اقبل على التجربة وقد استوعب مضامينها ، وعبر عنها وقد خاض معتركها ، وانتقى لها من الصور ، وقد استهدف غايتها ، وكان تعامله مع الجمهور تعامل الاستجابة الانسانية ، واحتفاظة بدوره القيادى

احتفاظ الوعي والادراك وفي حدود هذه الحدود الفكرية والاجتماعيـة والنفسية ، كان عمله يجد موضعه المحدد ووظيفته الفكرية والتربويـة ، ويحتل مكانته المطلوبة ، لان المناخ المهيء قد وجد طريقه ، واسلوب التعبير قد اخذ مساره ، وفي هذين الاطارين ، كانت العمليـة الادبيـة تستقطب الجمهور ، وتتسرب الى النفوس فتؤثر فيها ، وتوجهها الوجهة المحددة .. على الرغم من ضآلة الجانب الاعلامي الذى كان يتسلل فيه النص ، وضعف الوسائل المستخدمة ، وصعوبة الطرق المؤدية الى الانتقال ، فكانت القصيدة أو الديوان أو الكتاب يأخذ طريقه الى الانتشار بسرعة مذهلة . وكان الناس يقدمون على التلاوة أو الاستماع أو المعرفة بتلهف . الى جـانب المركـز الوظيفي الذى استأثر به كثير من الشعراء والكتاب وموضع الرعاية التـي نالوها ، أو وصلوا اليها . وهي دلالات لها معانيها في الواقع الحضـاري والاجتماعي ، ولها اثرها في التألق الادبي أو الفني .

ان هذه الاشارات وهذه الجوانب لا يمكن ان تظل واقعة في الجانب المهمل من الدراسة ، وان انسياق الدارسين وراء الملامح التقليدية التي لم تمسك من الادب الا جانبـا ، أو لم تتعرض في وظيفتهـا الا الى الصورة المتعارف عليها . لايمكن ان تقدم للبحث الواقع الادبي المطلوب ولايمكـن ان تقوم الشخصية العربية الاصيلة التي وجدت حقيقتها قبل اكثر من الف عـام وتقوّم الاديب العربي الذى عرف ابعاد الحياة ، وادرك معطياتهـا بدقة وذكاء ، وتقوم الجمهور الذى استطاع ان يتلمس عناصر الابـداع في النص فأقبل بشغف واعجاب على قراءته وحفظه ودراسته وشرحه وتخريج معانيه ونقده وتحليل مضامينه والوقوف عند مواضع الايداع فيـه أو الاخفـاق .

لم يعد خافيا الدور الذى اداه الاديب العربي باعتباره مدرسة اجتماعية يمثل الحياة في اطارها الشامل ، ويقرر مقاييسها الواقعية من خلال التعبير

الذى اضطلع بمهمته الاديب ولم يعد خافيا ايضا دور هذا الاديب المعبر عن الوضع الاجتماعي الذى يمر به أو يحيا في اطاره ، وان هذا ملتزم بمخاطبة الجمهور بالاسلوب الذى يرتضيه هذا الجمهور ، وباللغة التي تكون قريبة مفهومة ، وبالمشاعر التي تجد مجالها في التوافق مع مشاعره والاستجابة لنوازعه . وهذا يعني ان المعاني التي كان يطرقها ، والصور التي يقدمها والصفات التي يذكرها هي معان وصور وصفات اجتماعية اتصلت بالواقع فأصبحت جزء منه ، وعبرت عن الاحداث فكانت صورة لها ، ولازمت المعاني فصارت حقيقة لايمكن فصلها ، فالصلة بين الادب والمجتمع اصبحت صلة موثقة ، ورابطة تؤازرها اكثر من وشيجة .

ان هذا الحديث لم يشغل احداً من النقاد القدامى الى حد والمحدثين الى حدود ولم نجد وعيا حقيقيا لاستيعاب هذه الحقيقة من خلال النقود التي عرضت للادب العربي وهذا يعني ان الوعي بأثر الجانب الاجتماعي كاد ان يكون ضعيفا ، ولكن هذا لا يعني ان الادب كان خاليا من هذا الجانب، أو ان الاديب العربي لم يقف عند هذا الجانب أو لم يعبر عن عن الواقع الاجتماعي وان الادب العربي كان منفصلا عن القضايا الانسانية أو الاجتماعية ، أو بعيدا عن مشاكل الناس التي تشغل حياتهم ، لان البديهية الانسانية بالضرورة تعني ان الادب التعبيرى الصادق هو صورة من صور الحياة ، وهو التفاتة من التفاتات الاديب الثابتة التي ادركت واقعا معنياً فعبرت عنه ، أو انتابتها حالة شعورية تستوجب التأثر فتأثرت بها وعندها برز العمل الادبي ، واكتسب شكله وصورته واتخذ حجمه في النتاج .

ولا اغالي اذا قلت ان موقف الشاعر العربي من الحياة كان موقفا واضحا كل الوضوح . وموقفا محددا لانه عكس وجهة نظره ، وحدد موقعه ، ورسم لنفسه المكانة التي اختارها ولم يكن تعبيره عن ذلك

تعبيرا عائما أو مهما أو مشوبا بما يجعله بعيدا عن المجابهة دائما هو موقف واضح حركته جرأة الاديب ، ورؤياه الواضحة ، وايمانه المطلق بما كـان يعتقد به ، الى جانب المعاناة الفردية أو الجماعية التي كانت تكسب الموقف قوة الاحساس وتمكن الشاعر من القدرة على التعبير ، وهو يتحدث عـن معايشة ، تعاونت عـلى صياغتها التجـارب الخاصـة والثقافـات المخزونـة والصورة المرئية التي تتكرر في الواقع ، وعندها يقدم الاديب هذه القطعـة الادبية وقد اكتملت عناصرها ، وتوحدت صورها ، واحيطت بمشاعـر الاديب ، ان هذه الصورة نموذج من نماذج الخبرة الاجتماعية ، وصورة من صور الواقع الذى كانت الجماهير تجابهه في كل يوم ، وتتأثر به فـي كل مرحلة ، نقله الينا الاديب متكاملا ، وحملته الاجيال وليدا يحمل عناصـر الحياة الدائمة .

ولكننا وقفنا امامه مبهورين ، لا نحلل ابعاده ، ولا نستجلي مظاهره وانما نكتفي بالنظرة العابرة التي لا تخرج عن نطاق النقـد التقليدى ، أو الاعجاب السريع الذى يطري العبارة ، أو يستحسن النص، أو يرفع الاديب الى درجة من درجات الرقي المؤقت .

ان مهمة الشعر هي مهمة الشـاعر نفسـه ، وهي بالتالي مسـؤولية تاريخية اوكلت لـه ، فتفهم الواقـع بمشاكلـه وقضايـاه ، وادرك دور الامـة في البنـاء والحضارة ، واستوعب دوره في خضمّ هـذه القضايـا التـي تلزمـه بالواجب الحقيقـي الذى تفرضـه عليـه الامة من جهة ، والواجب الذى يفرضه عليه دوره في هذه الحياة من جهة اخرى ، فهو لم يكن انسانا يعيش في معزل عن الاحداث ، ولا بعيداً عن المشاكل المجابهـة وانما هو انسان يتفاعل مع الحدث وكأنه يخصه ويعيش مع المشاكل وكأنها مشاكله ، ومن هنا كانت مهمته متصلة ، والتزامه محددا ، واذا حاولنـا ان نضع ادبنا العربي القديم في محور هذه الاطر اتضحت لنا الصورة الحقيقية

التي اضطلع بها ، واخذ نفسه بالدفاع عنها ، فالاديب كان صورة للواقع بكل ابعاده ، وصورة للفكر بكل جوانبه ، وصورة للطموح بكل الوانه • وقد ظل الاديب يحمل هذه المهمة عبر حياته الطويلة وحياة الامة عبر عصورها ، ولم يتخل عنها في احلك الظروف ، ولم يتنازل عنها في اعنف المواجهات • ولعل صفحات التاريخ الادبي تحدثنا بهذه المواقف بشكل تفصيلي •

فلقيط بن يعمر وهو يكتب الى قومه وهم بالجزيرة يبلغهم خبر كسرى وهو يوجه اليهم ستين الفا من المسلحين ، ويعلم عظم المسؤولية المترتبة عليه اذا ظفر به ، يقدم على عمله وهو في بلاط كسرى ، ويتحمل مسؤوليته وهو في بلاد الخصوم ، ويحذر قومه من هذا الجيش ، ويحرضهم على الاستعداد للوقوف وقفة واحدة ، والاستعداد استعدادا يتناسب مع الجيوش الزاحفة اليهم ، لقيط هذا نموذج متقدم من نماذج الالتزام ، التي وظفت الشعر توظيفا قوميا سليما ، ووضعته في خدمة الهدف الذى اوجد من اجله ، وهي قصيدة لا يمكن تجاوزها في الدراسة والتحليل ، والتقويم ، لانها نموذج ادبي يجمع في اصوله عناصر التكامل ، ويحمل في معانيه مواقف العقيدة السليمة ، وضوابط الالتزام الصحيح •

والنابغة الذبياني على الرغم من صلته الوثيقة بالغساسنة ، وارتباطه معهم بأكثر من مصلحة لكنه وجد نفسه ملزما بالدفاع عن ارتباطه القومي وفي ذلك نموذج واضح لهذه الظاهره ان شعور النابغة بمنزلته الرفيعة كان يدفعه الى ان يأخذ موضعه الطبيعي في حركة التاريخ الذى دارت حوله الاحداث ، فهو سيد في قبيلته ، يحيط به قومه لانهم يدركون قدرته ، ويعلمون منزلته ، ويقدرون المركز المرموق الذى كان يتمتع به عند ملوك المناذرة والغساسنة ، وكان النابغة يعرف ذلك حق المعرفة • وهو يعلم ان منزلته بينهم كانت رفيعة لعلو كعبه فيهم ، وهولا يتورع – وهو في منزلته

هذه ـ ان يقدم انذاك لعمرو بن هند وينصحه حتى لا يتورط في حرب قومه، بعد ان يعدد له ابطال قومه ••

ان منزلة النابغة كانت مرموقة • لا في قومه فحسب ، وانما عند الاقوام الاخرين ، وهو دائما يدعو القبائل المتخاصمة الى المصالحة ، ويدخل بينهما طرفا له اهمية في فض الخصومة ، ودفع المظالم ، وايقاف نزيف الدم وهي خصيصة أخرى من خصائص هذا الرجل الحريص على السلم ، المؤمن بتجميع القوى لا يقل عن مواقف زهير بن ابي سلمى في دعوته التي عرف بها ، وسعى اليها ، واشاد بكل من حاول الوقوف امام لهيب الحرب •

ان مقومات هذه المنزلة تشكل الحدود البارزة في اعتزازه بقومه ، ولانه ادرك أن اخلاقيته الرفيعة ، وحرصه على الالتزام بها ، كانت تقوي هذا الادراك ، وتعزز حرصه ، فالنابغة ملتزم التزاما اخلاقيا مع قومه على الرغم من وجوده عند الغساسنة ،وقد تمثل هذا الالتزام في تحذيره حصينا وزبان بن سيّار من جيوش الغساسنة لانهما كان يغيران مرارا على ما كان في يد الغساسنة من مملكة الروم فيأخذان ما قدرا عليه ، وعندما الحا عليهم في الغزو جمعت لهم غسان جموعا كثيرة ، وارادوا ان يعبروا على حصن فجاءهم النابغة محذرا •

وكان النابغة يعلم أن الغساسنة اصبحوا يتحينون الفرص لضربهم الضربة الساحقة ، وينتهزون الاشارة التي تكون بداية الهجوم الذى استعدوا له ، والتهيؤ الذى حشدوا له كل قواهم لانزال البطشة المثخنة ، وكان النابغة ـ بما وهب من حس سياسي واع ـ يدرك هذه الحقيقة ، ويدرك البعد المتوقع الذى يحيط بالعملية المنتظرة ويدرك ايضا عظم الخسارة التي ستلحق بقومه من جراء هذه العملية الخاسرة ، وما سيلحق ابناء قومه من سبي فكانت صور كل هذه الابعاد واضحة في شعره •

ان التزام النابغة لم يقتصر على الالتزام بقومه وحدهم ، وانما كان التزامه متكاملا ومحسوبا ، فهو يلتزم مع احلاف قومه ، ولا يرتضي لنفسه ان يغدر بهؤلاء الاحلاف حتى اذا جاء هذا الغدر بتحريض •

وعندما يجد النابغة قومه قد تمتعوا بحقوقهم وقد خلت لهم بلادهم ، من كل غريب وتابع ، ويجد احلاف قومه من بني أسد قد اصبحوا قوة تدفع عن ارضهم كل باغ بكل ذى سلاح ودارع ، تأخذه النشوة ، ويشعر بالاعتزاز فتنطلق نفسه عزيزة أبية وتتفتح مشاعره صدقا وقوة •

ليهنيء بني ذبيان ان بلادهم     خلت لهم من كل مولى وتابع
سوى أسد يحمونها كل شارق     بألفي مدل ذى سلاح ودارع
تعود على آل الوجيه ولاحق     يقيمون حولياتها بالمقارع
يهزون ارماحا طوالا متونها     بايد طوال عاريات الاشاجع

وهي ابيات تذكرنا باناشيد البطولة الوطنية عندما تتغنى بها الشعوب بعد تحررها ، وينطلق شعراؤها الاحرار يرسمون لها طريق النصر ، وينظمون لها اهازيج الانعتاق والتحرر من كل نير ، وفي هذا الجانب تتألق شخصية الشاعر قوية مؤمنة بقوة الامة التي ينتمي اليها ، مؤكدا التحالف الذى يشد هذه القبيلة ، بغيرها من القبائل التي تشاركها المشاعر ، وهو ايمان يلون صورة الوحدة العربية التي كانت الجزيرة العربية تثوق اليها على الرغم من حالة التجزء التي كانت تسودها لتقف صامدة امام الهجمات الاجنبية التي كانت تمتد بين الفينة والفينة لتحاول بسط سلطانها على قبائل الجزيرة •

ان موقف النابغة هذا يمثل موقف الشاعر الملتزم الذى اخذ على نفسه مهمة الدفاع عن قومه باعتباره لسان هؤلاء القوم ، وقوتهم التي تستطيع ان تسمع صوتها وتنشر رأيها ، وقد استطاع هذا الشاعر أن يجعل الشعر وسيلته في هذا التميز ويوظفه في مجال الدفاع والثبات والتحدي •

من الصعب على الباحث ان يجد ادبا خاليا من العقيدة ، ومن الصعب عليه ان يجد نصوصا لا تحتويها فكرة ترتبط بهذه العقيدة سلبا أو ايجابا. لان الادب تعبير عن طريقة الحياة ومحاولة لاستخدام هذه الطريقة في استيعاب الفكر والمشاعر والاحاسيس وصياغتها صياغة فنية تبرز المعنى وتؤكد الفكرة . وعندما تستحيل الاداب قوالب جامدة ، وتعابير خالية من الافكار تفقد قدرتها على البقاء والاستمرار ، وكثيرا ما تكون العقيدة مرتبطة بالدين لاتصالها بأصوله واعتمادها قواعده في التوجيه والاستعانة، وانبثاق كثير من اساليبها ومناهجها من حقيقته الكبرى وتعاليمه الانسانية.

وتتحول العقيدة في كثير من الاحيان الى ايمان باعتباره القوة الموجهة والمحركة والمفكرة عندما تجابه الجماهير عوامل التحدى ، وتجد نفسها وجها لوجه امام الظروف الجديدة التي تفرضها طبيعة المرحلة ، وفي هذا الاطار تجد الامة نفسها ملزمة بالدفاع عن وجودها ، والحفاظ على اصالتها ، والتمكن من بناء قاعدة مستقبلها ، وتتحرك عوامل الامة المتمثلة بالفكر ورجاله والادب وطاقاته والحضارة وبناتها لتركيز الاعمدة التي ارست قواعدها ، وتثبيت القيم التي احكمت مفاهيمها متفاعلة ومؤثرة ، وطبيعة قدراتها وطاقاتها في خدمة العقيدة التي آمنت بها الجماهير وقدمت من التضحيات الكبيرة .

ان تجربة الامة وهي تبني الحاضر ، وتجربتها وهي تضع دعامات المستقبل تمثل الواقع الذى تعيشه ، ولابد ان يكون هذا الواقع هو نتاج المجموعة البشرية التي ساهمت في صنعه وتعاونت على تحقيقه ، والاديب الشاعر أو الناثر لايمكن ان يتحرك الا في هذا الاطار ، لانه انسان في مجموعة لا ينفصل وجوده عن وجودها ، ولا تتباعد مطامحه عن مطامحها، ولا تختلف نزعاته اختلافاً بعيداً عن نزعاته ، ومن هنا كان جزء من تجربة الامة ، ووحدة من وحدات بنائها ، وهولا يستطيع أن يعبر عن تجارب

اخرى لن يمر بها ، ولن يستطيع أن يرسم ابعاد واقع لم يكتب له فيه أن يخوض احداثه • وقد دللت هذه التجربة عند ادباء العربية على عمق استيعاب قدرتهم على هضمها وادراك الجوانب المتشعبة منها ، مما اكسب تجربتهم قوة استمرارها ، وسلامة بقائها ، واكتمال شموليتها حتى اصبحت نماذجهم حية في كل عصر ، جديدة لدى كل سامع ، منسجمة مع متطلبات الحياة الى حد ما • ومن الطبيعي ان نتائج هذه التجارب كانت تثير في الناس الانفعال، وكان هذا الانفعال يدفعهم الى اتخاذ الموقف المناسب ، وتحديد وجهة النظر الخاصة التي تتفق والاغراض الاجتماعية أو السياسية أو الفكرية المباشرة التي يريدها الاديب خلال تجربته كالدفاع عن وجهة نظر محددة أو نصرة عقيدة لها ابعادها السياسية، أو ابراز جانب ايجابي أو سلبي لحاكم أو طبقة، يوجه الجمهور الى الوقوف معه أو يحرض على من يريد التحريض عليه ، وفي كل هذه الاحوال كان الادب نموذجا من نماذج التوجيه وجانبا اعلاميا مشهودا من جوانب التوعية التي تأخذ دورها في الحركة الفكرية والثقافية • وهذا جانب آخر لم تقف عليه حركة النقد الادبي المعاصر أو القديم لدراسته واستيعابه ان تحليل الادب وفق هذا المنظور يعيد الى هذا الجانب دوره الحاسم في كثير من احداث التاريخ ووقائع الايام التي وقف فيها الادب مواقفه الحاسمة تجاه الحكام ولعل كتاب اخلاق الوزيرين أو مثالب الوزيرين للصاحب بن عباد وابن العميد لابي حيان التوحيدى نموذج حي لهذا الاتجاه ، فقد وقف هذا الرجل الذى لم توظف له وظيفة ولا أجرى عليه رزق ولاقى من أهله الانكار الموقف الصريح لابراز مثالب الوزيرين وقد اكسبته صلته بالناس ، ومشاركته لهم في حياتهم تجربة واسعة مما سهل عليه متابعة احوالهما ، واستقصاء اخبارهما، على الرغم من أن الدوافع التي احاطت به كانت تشترك بين خيبة الامل واساءة المعاملة •

الا ان اجادته وجرأته في تصوير المأساة وحدتها ، وابراز الحرمان

وصورته والوقوف عند مواقف الاستهانة بالناس والاعتداء عليهم كانت اجادة نادرة وجرأة متناهية حتى تركت لهذا الرجل اطيب الاثر واحفظ الذكر في القرن الرابع الهجرى ٠

ولم يكن أبو حيان وحده النموذج الانساني فهناك اعداد كبيرة من ادباء العربية وقفوا مواقفها الصريحة ، واكدت وجودها الاصيل ، وفرضت قدرتها من خلال ادبها ، ورسست للاجيال صورة الثبات والمقاومة والرفض فكانت حياتهم صورة فريدة بهم ٠ فقد سخروا أدبهم للكشف عن الواقع المأساوي واعلنوا للجماهير مواقف الحكام الظالمين ، واوضحوا المساوىء التي تكشف عن طبيعة حكمهم ، لم ترهبهم سلطة ، ولن يخيفهم سوط ترفعه ايدى الظالمين ٠٠

ان تأكيد موضوع اهمال النقاد لهذه الجوانب الاجتماعية والانسانية أفقد الادب وافقد الدراسة الادبية قدرتها على الوقوف ٠ الى جانب الاداب الاخرى واضاع ملامح انسانية بارزة وقف عندها الادباء وقفات طويلة وعالجوا من خلالها واقعهم الاجتماعي معالجة دقيقة ولكنهم ظلوا بعيدين عن دائرة الضوء ٠ بسبب الدراسات النقدية التقليدية التي سادت في ركاب النقد القديم والتزمت بالخطوط العامة وحصرت نفسها في اطار المفهوم النقدى المرتكز على الاحكام الموضوعة ٠

ان حركة النقد لابد ان تتجاوز هذا الاطار ونخرج عن الشكل التقليدى في ممارسة العملية النقدية ، وان النقاد ملزمون باعادة النظر في الاشكال الادبية في مختلف عصورها واعادة تقويمها تقويما يتفق مع الحقيقة التي أراد لها الشعراء ان تكون في ضوء الدراسة الشاملة للواقع والانسان والبيئة ، وفي ضوء التحليل السليم للمضمون الادبي الذى استوعب الصورة الحقيقة للفكر السائد في الفترات الادبية ، والصور المحددة من خلال الاحساس المدرك ٠

# الالتزام وتاريخ الادب[١٤]

لقد ظل الادب العربي وفيا في التعبير عن الاحوال التي تجتازها الامة، وظل الادباء العرب صورة مخلصة في مشاركة الامة احداثها ، ومشاركتها آلامها الكبيرة التي ألمت بها على الرغم من تدهور الاوضاع وشيوع الواقع الاقتصادي السيء ، وتعرض الارض العربية لحملات التتر والمغول ..

ان فترة القرنين السادس والسابع الهجريين كانت فترة عصيبـة فـي تاريخ الدولة العربية لانها تعرضت لاحداث كبيرة ، وضعت الامة وضعاً مصيريا وجعلتها امام تحديات صعبة كانت حصيلتها سقوط بيت المقدس ، وسيطرت الفرنجة على كافة المدن الممتدة على الشريط السفلي للبحر الابيض، ودمار بغداد واستباحتها على ايدي التتار وتعرض الثغور المصرية لحمـلات التهديد .. وهي احداث كانت لها خطورتها ، لانها استهدفت المراكز العربية، وحاولت انهاء وجودها حضاريا وفكريا وبشريا ، وقد تعاونت على ذلـك قوى مختلفة ، وامم متباينة ، جمعتها اطماعها ووحدت بينهـا مصالحهـا المشتركة ، ولكن اصالة الشعب العربي وقدرته التي استمدها من تأريخـه الحافل بالبطولات ، وايمانه المطلق بحقه في الحياة مكنه من الوقوف بكـل جرأة امام هذه الجحافل ، وهيأ له من الاسباب ما جعلها قادرة على الصمود والتحدي، لطرد المعتدين ورد الغزاة ، واستعادة الارض العربية وتحريرها .

ان ادب الفترة لم يكن بعيدا عن الاحداث ، وشعراء الفترة لم يكونوا غائبين عن الساحة ، وانما استطاع الادب ان يدخل المعركة فيرسم صورها ، ويعيش مع الاحداث فيكشف عن اوضاعها ، ويتابع دقائقها وخاصة ما كان يدور في اطار تلك الاحداث التي برزت بروزا واضحا وقد حاول الشعراء ان يؤكدوا من خلال قصائدهم احساسهم بصورة البطل المنتصر الذى كانت ملامحه تلوح من تطلعات الواقع ، وتوقعات الاحداث وقد حاول الشعراء ان يضفوا على هذا البطل من الصور ما يجعله محررا ومنقذا ومن الطبيعي ان تنعكس على هذه الصورة مطامح الجماهير التي كانت تؤمن بالرجل المنقذ ليعيد اليها حقها ، ويحقق لها كرامتها ، ويستعيد الارض التي اصبحت نهبا، ويسترد الحمى المستباح ، وهي طموحات مشروعة في اعراف هذه الجماهير، وتطلعات قومية محسوسة ، كانت تمثل الصورة المثلى التي تحددت معالمها في المنظور الجماهيري وقد استطاع شعراء هذه الفترة ان يخرجوا على اطار المعاني المعروفة والصور الشعرية التقليدية التي كانت تأخذ بزمام القصيدة ، لان ارتباط المعاني اصبح مشدودا بالصورة الجديدة التي كانت تنبع من الشكل المرسوم لها ، وهي صورة خلقتها ظروف الواقع الجديد ، ولونتها احاسيس الجماهير المتطلعة التي حاولت ان تكسب الصورة كل المعاني والخواطر ، وتشحنها بالمصالح المشروعة . وهي صورة غير مألوفة في الدائرة الشعرية التي تعارف عليها الشعراء ، وان الدراسة التحليلية لقصائد الفترة، ومحاولة الوقوف على المعاني التي ضمنها الشعراء ، تحدد الطبيعة التي تختفي وراء كل معنى ، وتجسد الاندفاع الذى كان يستعجل الاحداث ، وترسم الموقف المطلوب ، الذى يلوح في الانتصار المرتقب . وقد تمكن الشعراء من التعبير الصادق عن كل الرغبات المتدافعة في نفوس الجماهير ، كما حاولوا ان يذهبوا ابعد من ذلك في تخليد المعارك وتمجيد الابطال ودفعهم الى سوح الجهاد ، وتكريس الشعر تكريسا لم يشهد له عصر من

العصور هذا الاندفاع ، وقد الزم الشعراء الابطال باستمرار الدفاع والقتال حتى تتحرر الارض • ويسترجع بيت المقدس ، وكانت صيحاتهم تتعالى بالتذكير بالمعارك التاريخية الحاسمة ، واستذكار قادة الفتح وابطال المعارك، والاستشهاد بهم في مواضع الثبات والمطاولة في القتال ، وكانوا حريصين على نقل الوقائع نقلا حقيقيا مستمدا من الاحداث المرئية او المسموعة فهذا ابن قسيم الحموى المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة يمدح الامير بدرالدين فيقول[١] :

| | |
|---|---|
| بكت الخطوب وثغر مجدك ضاحك | وثبا الحسام وسيف عزمك باتك |
| يا بن الألى اغتصبوا الممالك بالقنا | والى العلا بهم الطريق السالك |
| ولقد عجزت عن الهناء بدولة | نحن العبيد لها وانت المالك |
| عربية الاوصاف ذات مكارم | جُبِرَ الكسير بها وعاش الهالك |

ان الاشارة الى الدولة العربية تمثل تطلعا جديدا في قصائد الشعراء ، وان وقوف الشاعر عند هذا التحديد وفي اطار القيم الاصيلة التي تجبر الكسير ويعيش فيها الفقير البائس لا يمكن ان تكون موقفا فرديا عابرا ، ولا يمكن ان تمثل عاطفة سريعة ، وانما هي توجه واندفاع وتطلع ومحاولة لقيام الدولة المرتقبة التي كانت تشخص اليها كل الابصار في وقت تكالبت فيه قوى البغي والعدوان ، وتطاولت على الامة عناصر التمزيق والفرقة واستبدت بها نزعات الضياع والتهاون ، ان صرخة الشاعر كانت تعني محاولة تجميع القوى وتوحيد الشمل بانتظار البطل المرتقب ليعيد الى هذه الامة عظمتها ويكشف عنها غشاوة الواقع المرير ، ولم تكن هذه الصرخة الوحيدة في هذا المجال وانما هي واحدة من صرخات تعالت في ارجاء العالم العربي والاسلامي متطلعة الى الرجل المنقذ •

---

(١) العماد الكاتب • الخريدة قسم شعراء الشام ج ٤٦٢/١ •

ان فترة القرنين السادس والسابع الهجريين تعد امتدادا لفترة الشموخ العربي ، واستمرارا لعصر البطولة العربية التي تركت احداثها شكلها المتميز في خضم العصر ، وقد تجلّى ذلك من خلال الاندفاع الجماهيرى الصاخب الذى استطاع ان يرفع عن كاهله اثقل الاعباء ويشق طريقه الى النصر ، ويطارد خصومه وهم يملكون اكبر قوة وتجلى في القيادة الحكيمة المتمثلة في ابطال الانتصار من دولة الزنكيين امثال عماد الدين ونورالدين والصالح اسماعيل الذين خلدهم الشعراء وسجلوا انتصارهم واوقفوا قصائدهم لتثمين المواقف البطولية . وابطال التحرير من الايوبيين امثال نجم الدين واسدالدين وصلاح الدين الذى تم على يده تحرير بيت المقدس ، وقد سجل الشعر هذه المواقف تسجيلا تاريخيا دقيقا ، وتابع تصوير الوقائع متابعة توحي باستيعاب الشعراء لمهماتهم الاساسية ، والتزامهم بالدور القيادي في استمرار عملية الاندفاع ، وتأكيد الجانب البطولي في تثمين المواقف ، وتسجيل الاحداث التزاما بالرصد التاريخي .

ولعل ملحمة اسامة بن منقذ التي سجل فيها جانبا من الفتح تمثل خالدة من خوالد الشعر العربي في هذا المجال ، لانه دون فيها الوقائع والسرايا والجيوش ومن قادها والمواقع وما جرى فيها ، ويفتتحها بقوله :

أبى الله الا ان يدين لنا النصر     ويخدمنا في ملكنا العز والنصر

وهي ملحمة طويلة سجل فيها الشاعر أمله المرتقب في تحرير بيت المقدس فقال ..

ونرتجع القدس المطهر منهم     ويتلى باذن الله في الصخرة الذكر

ان الدائرة التي احاطت بالدولة العربية تتجدد ولكنها وفق تخطيط اوسع ، ودراسة تشارك فيها جهات متعددة ، ووجوه مختلفة ، ولكن الذى نحسه الان هو موقف الادب من الاحداث ، فالشعر في فترة القرنين السادس

والسابع الهجريين وقف في الشام ومصر وبغداد وكل الاقطار . موقفا واحدا يردد وبصوت واحد يهتف لاستعادة الارض ، وتحريرها ، وطرد الاعداء وتوحيد الصف للدفاع عن حقوق الجماهير ، وموقف الفكر موقف واحد يهيء الاذهان ويشارك في دفع هذه الجماهير لتقف الموقف الموحد من كل الدعوات التي خلفتها عناصر التمزق . ان موقف بعض الادباء في هذه المرحلة موقف مخذول ، وموقف بعض الشعراء متردد لم تدفعهم نخوة ، ولم يهزهم احساس ، وهم يرقبون الساحة وقد ذبحت فوقها العناصر الوطنية ، واوشك الاحساس القومي ان يتناهى عند هذا البعض الذي لم نجد في اشعاره ما يخلد فيه مواقف الابطال الذين رسموا الطريق بدمائهم الزكية ، وسجلوا الملاحم باعمالهم الخالدة .

ان بطولات الشعب العربي وهو يقاوم المؤامرة ، وبطولاته وهو يقاوم العدوان في الارض المحتلة وفي بؤرة التكثيف الصهيوني ، وبطولاته وهو يسجل معارك الدفاع والاقتحام في سيناء والجولان ، وبطولاته وهو يتحدى المؤامرة العالمية والعربية في لبنان ، وبطولاته وهو يرسم ابعاد الملاحم الخالدة في تل الزعتر ومخيم صبرة واحياء بيروت الخالدة وساحات حيفا وتل ابيب وميادين رام الله والخليل وسجون عسقلان وصفد .. كل هذه البطولات لم تهز الشاعر العربي المعاصر بما ينبغي ولم تحرك مشاعره الوجدانية بما يجب ان تتحرك له، ولم تجد صداها في احاسيسه الانسانية بما يتناسب وحجمها القومي والانساني . ان دراسة هذه الظاهرة البطولية الخلاقة التي يسجلها الشعب العربي فوق كل ارض ويؤكد وجوده وانسانيته وارتباطه الحقيقي في كل مناسبة ، وانفصالها عن التعبير من خلال النماذج الادبية التي يقدمها الادباء المعاصرون تشكل ظاهرة مدانة ، وموقفا غير مقبول ، وانفصاما عن الجوهر الحقيقي للامة التي تحرك فيها الجانب البطولي ، واخفق فيها الجانب الحسي على لسان بعض الادباء ، على الرغم

من اتاحة كل الامكانيات وتوفر كل الشروط ، وفسح كل المجالات لتقديم النتاج الادبي المتناسب مع عظمة مواقف الثبات ..

ان هذه الاشارة التي دفعني الى الوقوف عندها ما اشاهده وانا اقلب صفحات التاريخ البطولي لهذه الامة ، واجد الموقف الانساني لاولئك الادباء والمفكرين الذين تقدموا الصفوف ، ومجدوا مواقف البطولة وواكبوا مسيرة التحرير من موقع الى موقع ، ورافقوا جحافل المحررين من بلد الى بلد، وخلدوا مواقف الرجال .. هذا التاريخ الذى اطلقنا عليه تاريخ الفترة المظلمة .. ظلما وعدوانا . هذه الاشارة أعدّها فاتحة لاعادة تقييم الواقع الادبي الذى عاصرها ، ليأخذ حقه في مجال التقييم ودوره في مسار الادب .

اذا كان الادب الذى واكب الاحداث الكبرى في هذه الفترة . فترة القرنين السادس والسابع الهجريين وهو يسجل كل هذه الانتصارات هو ادب الفترة المظلمة فماذا يمكنني ان اقول وانا ارى بعض الشعراء والادباء وقد تحجروا وهم على مقربة من كل البطولات ، يسمعون احداثها ، وينظرون وقائعها ويتصلون اتصالا مباشرا بكل صغيرة وكبيرة من اجزائها .. الا يحق لي ان اسمي ادب الفترة الحاضرة الذى لم يعبر عن طموح الجماهير ، ولم يتحسس امالها ، ولم يسجل خلودها او انتصارها ، بأدب الفترة المظلمة.. ان هذه الوقفة على الرغم من قصرها تعد مفتاح دراسة عميقة لابد ان تأخذ مكانها في الميدان الادبي ..

لقد زخرت فترة القرنين السادس والسابع الهجريين باعلام الشعراء الذين خلدوا الاحداث ، ووقفوا فيها موقفا واضحا يتطور من خلال النضال العنيف ضد قوى الشر والبغي ، وحاولوا ان يحتفظوا بشخصية الادب العربي ويحرصوا على المقومات الاساسية التي تألقت اصولها ، وظلت جذوتها

المتقدمة تمد الشعراء بالوقود الجزل والضرام العاصف لتلهب الاعداء والخصوم بشواظها المحرق •

ان حرص الادباء في هذه الفترة على بعض الجوانب التقليدية في ابواب الادب او محافظتهم على الاصول لم ينطلق من فكرة الجمود او التقليد اللاواعي لمبررات هذا الحرص او التقليد ، وانما كان ذلك ضرورة لازمة فرضتها طبيعة المرحلة واكدت الالتزام بها اصالة الوعي لتظل هذه الاصول حية دافقة ، ترفد الحركة الادبية والفكرية بروافد الفكر العربي الخلاق ، وتغذي نسق الحياة العربية بالعطاء النقي ، وقد ادى ذلك الى استمرار بقاء روح العروبة ، ودفعها الى ان تحيط نفسها بما وقاها من السقوط والاندثار، وجعلها في مركز حضاري مرموق استطاع ان يفرض وجوده حتى على تلك الامم التي فرضت نفسها على الامة العربية واحتلت ارضها لفترة من الزمن•• ومن الطبيعي ان يدفعهم هذا الحرص الى ان يتمسكوا بالادب تمسكا موغلا، ويحتفظوا باشكال قد نراها الان غير مقبولة ، ولكن طبيعة التحدي الذي جابه الامة ، وشراسة الهجمة الظالمة التي تعرضت اليها ، وقسوة الاقوام الذين استباحوا الحضارة العربية ، ولدت في ضمير الامة قوة الالتزام ، ودفعتها الى الحرص على تقاليدها وما يتصل بها لانها جزء لا يتجزأ من جوهر اصالتها ، ومن هنا كانت طبيعة التقليد ، على ان هذا لم يفقدها خصائص حياتها المرحلية ، وطبيعة اوضاعها التي تعيشها ، لان الشعراء تركوا لحياتهم مجالا في ادبهم ، فعبروا عن الواقع الى جانب التعبير الوجداني والحسي والذاتي الذى كانت تلوح اماراته من ثنايا الحديث الا ان الصورة الكبيرة التي رسمها الشعراء كانت تستقطب المعارك البارزة ، وتجمع الشعر الحماسي الذى اشاد بنضال المقاتلين ، وسجل معاركهم الضارية ، ومجّد مواقع الثبات ، ولعل كلمة صلاح الدين المشهورة التي اكد فيها دور الادب في المعركة حيث قال : انني لم انتصر بسيفي وانما انتصرت بقلم القاضي الفاضل،

لهـا مدلولهـا المشهود في تسيير واقـع الاحداث ولهـا وقعهـا الفاصل في الدور الحماسي الذى اداه الادباء وهم يدفعون الجموع ويثيرون فـي النفوس الاندفاع ، ويرسمون لهم طريق النضـال الخالـد ، ويستشـهدون امامهم بمظاهر البطولة الفذة ، ويرتلون في صفوفهم اناشيد الثورة والقتال •

ان وقفة قصيرة عند فترة صلاح الدين ترسم صورة واضحة لهذا العصر البطولي الخالد ، وتدفع كل الباحثين الى اعادة النظر في كل الاحكام السريعة التي نقلوها وهي غير حقيقية ، واكدوها وهي بعيدة كل البعد عن منطـق الاحداث وواقع العصر ••

لقد اقترن العصر بالبطولة ، واتفق على تخليد المجد ، والاشادة بالوقائع ، والتفاخر بالجهاد ، وقد وجد الشـعراء في بطولـة صـلاح الدين الصورة النموذجية ، وعرفوا في قدرته وتضحيته الرجل المسؤول الذى حمـل لـواء الجهاد وليس غريبا ان يتعاون على رسم بطولته اكثر من خمسين شاعرا من مصر والعراق وبلاد الشام ويروي صاحب الخريدة[1] فيقـول : كنت جالسـا بين يدى الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل ، فحضـر سـعادة الضرير وهو من اهل حمص ، ووقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة احدى وسبعين وخمسمائة •

حيتّك اعطـاف القـدود بيانهـا　　لمـا انثنت تيهـا عـلى كثبانهـا

الى ان يقـول :

بصـوارم اجفانها قمم العـدى　　لا ماكساها القـين من اجفانهـا
ملك اذا جلبت عرائس ملكـه　　رصعت فريد العدل في تيجانها
واذا جحافلـه اثـرن سحائبـا　　لمعت بروق النصر في احضانهـا

وهذا مهذب الدين عبدالله الموصلي بن اسعد الموصلي يفد عليه وهو في مخيم بالعاصي عندما وصل الى حمص وينشده في مدحه •

---

(١) العماد • خريدة القصر ٤٠٦ •

وما خضع الفرنج لديك حتى رأوا ما لا يطاق من الكفاح
وما سألوك عقد الصلح ودا ولكن خوف معلمة رداح
ملأت بلادهم سهلا وحزنا اسودا تحت غايات الرماح

وهكذا ظل الشعراء يسجلون خطى صلاحالدين وخطى جحافل جيشه القوى ، منذ ان ادرك الشعراء انه الرجل المنقذ ، والفارس المنتظر ، والبطل الذى يملك زمام المبادرة ، ويؤدى الامانة حيث يجب ان تؤدى . ولكن هذا الشعر المتبقي لم يكشف الا عن جانب ضئيل من الشعر الذى انشد في حضرته او ارسل اليه . وان اعدادا ضخمة من القصائد قد ضاعت او فقدت او اطمست ، ولعل وجود الاخبار المنقطعة التي رويت عن ابن الساعاتي الذى قال في صلاحالدين قصائد طويلة وكثيرة تدل على الاهتمام الكبير والتوجه الواضح الذى التزم به الشعر في تكريم هذا البطل ولكن الذي بقي منها هو أبيات مفردة او مطالع قصائد ، ومثل ابن الساعاتي على ابن المبارك ، وابن الشحنة والحكيم ابو الفضل .

لقد ظل موقف الشعراء من الاحداث في فترة القرنين السادس والسابع الهجريين مرتبطا بمواقف البطولة لانهم سجلوا الوقائع ، ودفعوا الجماهير الى التضحية والفداء ، والتحريض على الاستشهاد او التهنئة بالنصر ، وقد قدم هؤلاء الشعراء تاريخاً مفصلا لكل معركة ، وقفوا من خلالها على شدتها وقدرة المقاتلين ، وخطط الحرب ، ومبلغ الاندفاع ، ودواعي الانتصار ، كما وقفوا عند الاتجاهات التي كانت تحيط الموقف ، والتيارات التي كانت تدور في الجو السياسي والحربي ، واشارت بعض القصائد الى اولئك المارقين الذين كانوا لا يجدون غضاضة في التعاون مع الغزاة ولا يجدون حرجا في التعاون مع قوى الظلم والغزو ، ولا يجدون حراجة من الاستعانة بهم والاستنصار بقواتهم والاحتفاظ بعلاقاتهم وهي مرحلة سياسية كانت لها اهميتها في الساحة الحربية في تلك الفترة ، كما اشارت الى الاتفاقات

السرية والمحادثات المشبوهة التي كانت تدور في اروقة الخفاء للوثوب على احتلال ما تبقى من الارض العربية ، وكانت اهدافهم هذه تدفعهم الى انتهاز كل فرصة للوصول الى هذه الغاية ، واشارت الى الموقف المتخاذل الذي وقفته بعض الاطراف • ولم يكن الشعر متسامحا مع هؤلاء ولا مع اولئك، وانما كان صريحا في المجابهة ، وحادا في التشخيص ، وصادقاً في التعامل مع كل الاطراف ولعل هذه الخصيصة الفنية قد اضفت على ادب الفترة من الصفاء والنقاء ما جعلها واضحة المعالم لمن حاول استجلاءها، ولكنها ظلت تختفي وراء حجاب سميك من التقولات التي احاطت الفترة وتركتها نهبا لكل قائل ، ومجالا لكل مدعي ، ومسرحا لكل رواية ضعيفة ••

لقد رسم الشعر الواقع القلق ، وحدد معالم الانتصار والثبات ، واستبطن الصورة الجديدة التي يمكن ان تمثل من خلال التفاعل الحقيقي مع هذه الاحداث كما رسم الابعاد الحقيقية والاطماع الشخصية التي كانت تتكالب على تمزيق وحدة هذه الامة ، لتساهم في نكبتها ، وتشارك في تقويض وحدتها ، وتجعلها نهبا لكل طامع ، وصور الحزن الذى كان يساور قلوب المؤمنين بانتصار هذه الامةوهم يتابعون الموقف بحذر، ويفسرون الوقائع، ويحللون مجريات الاخبار • ان هذه الاشكال الحقيقية التي وقف عندها الشعر وافلح في تصويرها الشعراء لايمكن ان تكون بعيدة عن اقلام الباحثين الذين تناولوا الفترة ، وبذلوا جهودهم في تقويم ادبها ، وتسجيل احداثها ••

ان خطوة صلاح الدين في توحيد جهود الامة لاسترداد فلسطين تمثل المنطلق الحقيقي لتهيئة الجو السليم لخوض معركة التحرير ، وان هذه التجربة الحقيقية تشكل الاساس الذى يجب اعتماده حقيقةً في فرض كل معركة ، وقد استطاع ان يحقق امله وطموح الجماهير في وحدته هذه • وفق عمليةسوقية مرسومة من اجل توحيد الجبهتين الشرقية والغربية مع

الجهة الشمالية لاحكام القبضة وضبط الخطة ، وهذا يعني ان الوعي العربي لهذه الخطوة كان وعيا نابعا من المصلحة الحقيقية لهذا الشعب ،وان ادراك القيادة لسلامة هذا التخطيط كان يمثل الدراسة التحليلية لفن قيادة الحرب .

ان فكرة الشعراء كانت تتركز في هذا التوجيه ، وان بناء قصائدهم كان يتركز في تكثيف هذا الموقف وتحديد البعد الفكري الذى كان يساور جماهير الامة وهي تتلمس نوايا هذه الوحدة تتحقق على يد البطل المصلح. وقد ظلت اصداء هذه الوحدة تتعالى في قصائدهم ، وكانوا يجاهرون في ان الساعة قد حانت لتحرير بيت المقدس .. فهذا ابن عساكر علي بن الحسن ابن هبة الله يمدح نورالدين ويؤكد هذه الحقيقة فيقول :

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد ... أصبحت تملك من مصر الى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل ... لما تريد فبادر فجأة النوب

وبقيت فكرة تحرير بيت المقدس نقطة تركيز في اشعار شعراء الفترة ، لانهم كانوا يؤكدونها في كل مناسبة ، ويعيدون الحديث عنها في كثير من القصائد الموجهة ، وهذا يعني ان الشعراء كانوا ينطلقون من فكرة ثابتة ، ويتحدثون من خلال معطيات مصيرية محدودة ، لانهم آمنوا ان النصر لا يمكن ان يتحقق الا اذا تم التحرير واعيدت الارض ، ولعل القصائد التي كانت توجه الى صلاح‌الدين كانت لا تغفل الحديث عن تحرير القدس فهذا العماد الكاتب يعزي صلاح‌الدين بمناسبة وفاة عمه بقصيدة ولكنه يميل في بعض ابياتها الى الموضوع الذى كان يشد الناس الى الحقيقة ، ويوجههم الى محور الالتقاء فيقول :

ولا تهملوا البيت المقدس واعزموا ... على فتحه غازين وافترعوا البكرا

وعندما يتحدث اليه مهنئا بفتح غزة يعيد على اسماعه حديث فتح بيت المقدس فيقول :

غزوا عقر دار المشركين بغزة ... جهارا وطرف الشرك خزيان مطرق

وهيجت للبيت المقـدس لوعـة يطـول بهـا منه اليـك التشـوّق
هـو البيت ان تفتحـه والله فاعل فما بعده باب مـن الشـام مغلـق

ان بيت المقدس هي نقطة الالتقاء عند شعراء الفترة ، وهي موئل الامل في توحيد الشعب العربي الممتد عبر الارض العربية ، وفي حمى هذه الحركة الوحدوية كانت تتجلى وحدة الجماهير ، وتتحدد اهدافهم المثلى في التخلص جحافل الغزاة والدعوة الى تحرير الارض واقامة الوحدة •

لقد اكدت احداث هذين القرنين الخامس والسادس الهجريين قـوة التصميم العربي ، وقدرة المقاومة العربية على الثبات الفعلي ، لتأكيد الحـق العربي في تحرير بيت المقدس ، وهو ثبات يتحدد من خـلال الافكار التي التزم بها الشعراء والاساليب التي استخدموها والمعاني التي كـانوا يشحنون بها قصائدهم ، وان محاولة تحليل هذه الافكار ودراسة الاساليب وتوحيد المعاني تقدم نموذجا ادبيا سليما في اعادة تقويم الشعر العربي في هذه الفترة لان هذه الدراسة ستقدم الصورة الانسانية التي كانت تعتمل في رأسـها الافكار والحس القومي الذى كان يقدم هذه الاساليب والقدرة الشخصية التي كانت تضع المعاني والاساليب في خدمة تلك الافكار فالشعر لم يكـن تعبيرا شكليا فرضته طبيعة المرحلة ، او حسا عائما فرزته الاحداث ، وانمـا كان يمثل التوافق بين الامتداد التاريخي للموروث العربي حسـا ووعيـاً وفكرا ، ويمثل الارتباط الوجداني الذى يشـد بـين التحسس والوجـود ، وما يتنامى من خلالهما من انعطافات لها صلة وثيقة بتحويل هذا التحسس الى قوة فاعلة في استعادة الوجود الحقيقي لجوهر الامة • وقد كانت جذور هذا الشعر تمتد في اصول الوجدان العربي وتحتل المكانة التي حددت قدرتهـا الاحداث ، واكدت وجودها حتمية المصير الذى اصبح يهدد الامة ، ويهـز كيانها ، ويتطاول لضرب قيمها • ولم يكن هذا الشعور بعيدا عن الاحساس الذى بدأ يساور الفئة الكبيرة من مفكري الامة ، الذين اخذوا على عاتقهـم تحصين هذه الامة بما يجعلها قادرة على رد عاديات الهجمات الظالمة ، وايقافه

حالة التردى التي اصابت فصائل متعددة من هذه الجماهير ، وقد وجد مفكرو الامة ودعاة وحدتها • والسنة مشاعرها من عناصر التحصين ودعائم التقوية وجلائل المثل ما يعاونهم على تحقيق طموحهم ، فانصرفوا الى توعية الجماهير، وتجميع قواها، وتوحيد كلمتها، ولابد ان يكون الشعر الوسيلة المعبرة عن هذا الطموح متوافقا مع الاحساس المتكامل بواقع هذه الاحداث • ومن هنا فان محاولة تحليل النصوص الشعرية التي قيلت في هذه الاحداث ، وتوحيد المعاني التي اصبحت تشكل الصورة الواضحة لهذا الواقع ، والوقوف عند الفكر السياسي والاحساس القومي الذى كان يمثل الدافع الحقيقي لهذه الصيغ الشعرية ، يضع العلامة الكبيرة في خضم القرون المتباعدة ويحقق التقويم السليم الذى يجب ان يأخذ موقعه في مجموع هذه النصوص •

ان دراسة الشعر الذى خلفته حروب التحرير في زمن البطل صلاح الدين سوف تترك البصمات الحقيقية التي طبعت هذا الشعر وحددت ابعاد اغراضه المتمثلة في شعر الجهاد والكفاح ، والثبات والمقاومة ، والتحريض على مجابهة العدو المغتصب ، والاندفاع في تسجيل ملامح البطولة ، والتغني باناشيد الانتصار ، وتخليد الاعمال التي كانت مثار اعجاب الشعراء والمعاني الاخرى التي ولدتها هذه السورة القومية العارمة فكانت نقطة التماع في السجل القومي ، ومركز اندفاع في استعادة المجد الذى اغرقته تعاسة القرون، وموئل امل في القدرة على بناء المستقبل المرتقب ولعل ابيات الملك الا مجد التي سجل فيها صورة الابطال ، وعكف على متابعة الصور التي تمثلت في نفسه وهو يراها مجسدة ، تقدم النموذج الشعرى المعبر الذى أصبح اللوحة البطولية لكل فارس امتلك القدرة على خوض المعركة •

وأحماس حرب فوق كل طمرة ... مضبرة المتنين محبوكة القرا
ليوث وغى يوم الكفاح تراهم ... اقل عديدا في اللقاء واكثرا
معوّدة ان تترك البيض في الوغى ... محطمة والسمهرىّ مكسّرا

بحيث لسان السيف يصبح خاطبا وحيث يكون الهام للسيف منبرا
وان اقبلت زرق الاسنة شرّعا وعاينت في اطرافها الموت احمرا
بايدى رجال • ما اخف الى الوغى اذا ما دعا داعي الجلاد واصبرا
رأيتهم والموت مـرّ مذاقه يخوضون منه في الملمات أبحرا
اسود تخال السمهرية في الوغى لها اجما والمشرفية اظفرا
يبيعون في يوم النزال نفوسهم اذا ما رأوا ابن المحامد يشترى
ومن كان في يوم اللقاء ابن حرّة تقدم لا يختار ان يتأخرا
بعزم يفل المرهفات بجدّه ويهزم في يوم الكريهة عسكرا

ان هذه الصور التي يقدمها الشاعر لم تكن بعيدة عن واقع الحياة ، وان اصحابها الذين رسموا هذه الاوصاف هم اولئك الذين كانوا يسجلون الانتصار فوق الارض العربية ، ويحققون المجد في المواقع الخالدة التي اراقوا على ترابها الزكي دمهم الطاهر فاقتحموا حصونها المنيعة ، واعادوا اليها حريتها التي سلبت ، هم اولئك النفر الذين اندفعوا بعقيدة صادقة يدافعون عن الارض التي ابعدوا عنها ، يطهرونها من المغتصب الذى حاول ان يستوطنها ، اذلالا لاهلها ، ويستعمرها امعانا في اغتصابها ، لقد كان الشعراء مخلصين في تحديد الصورة ومؤمنين بتقديم النموذج ، وموقنين بسلامة النتائج التي تنتهي اليها هذه الحرب ، كما كانوا واثقين بصدق الدوافع التي كانت تدفع هؤلاء الابطال لتسجيل مثل هذه الانتصارات ..

ان دواوين الشعر التي قيلت في هذين القرنين تمثل الثروة الادبية التي ارخّت لا خطر فترة ، وتمثل الخصب الفني لا على نماذج واقعية • وتمثل الحس القومي لا صدق مشاعر ، ادركت مرحلة الانهيار واستفاقت وتلمست بوادر المؤامرة فجابهت ، وتحسست عوامل السقوط فاندفعت وقد استطاعت هذه الجماهير ان تخوض التجربة وتعيش المجابهة ، وتجتاز الامتحان المريع وتسجل القدرة التي حققت لها الانتصار وتكتب الشعر

الذى خلد هذا الانسان .

ان مصادر التاريخ قد حفلت بهذه السيرة ، ووقفت عند المعارك التاريخية الحاسمة ، واكدت وقوف الشعر الى جانب المجاهدين والمحررين، ولعل مقدمة كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية لعبدالرحمن المقدسي المعروف بابي شامة المتوفى سنة ٦٦٥ للهجرة تكشف عن الكتب التي اعتمدها هذا المؤرخ في تثبيت سيرة هاتين الدولتين كما ان هذا الكتاب يعد وثيقة تاريخية نادرة في تسجيل معارك الفتوح وما جرى فيها وقيل بشأنها من اشعار ودون من اخبار وما اكتنف هذه الفتوح من احداث ، واعتراها من نوازع . وقد كان الشعر حليفا ورفيقا لكل هذه المعارك ، ومؤرخا ومسجلا لكل تلك الاحداث ، وموفقا في رصد كل الظواهر البشرية والتطلعات القومية التي كانت تنطلق من افواه الشعراء او تبرز من خلال الاحداث ، او تتعالى من ثنايا شدة المعارك وهي تأخذ شكلها الحماسي او اطارها القومي ، وكثيرا ما تلتقي هذه القصائد في المعاني التي تعرض اليها لانها تمثل التطلع العام الذى عبر عنه الشعراء ، وتلتقي في الدوافع لانها ترتبط بالتحسس الذى كان يؤكد موقف الامة وهي ترد عنها عادية السقوط ، وتدفع عن تأريخها صرامة الهجمة ، وتلتقي في النوازع لانها ترسم المطامح الكبرى التي عاشت في الفكر العربي الواعي الذى اخذ على نفسه مهمة تحديد المرحلة المستقبلية وفي هذه اللقاءات كانت تلتقي الامة مجاهدة ومفكرة ، وتتحد اهدافها واعية وموجهة ، وتقتحم الموقف ثابتة ومؤمنة بالانتصار ، وقد حاول الشعراء ان يكونوا دعاة الامة في طريقها الصعب ، ورواد الطريق في مجالها الضيق، ومشاعل النصر في مرحلتها الحرجة ، وقد استطاعوا ان يكونوا عند حسن ظن جماهيرهم لانهم استوعبوا المهمة بشكلها الانساني ، واحترموا المسؤولية بوعي وادراك ، وحددوا لانفسهم المركز الذى يجب ان يحتلوه

في عالمهم . ولعل هذا الاحساس قد سجل لهم الخلود ، وحقق لهم التعبير الصادق .

ان قيم الحق والخير والوطنية لايمكن الحديث عنها بمعزل عن الدوافع الحقيقية التي حددت هذه القيم ، وان الارتباط بينها وبين الاطر الاجتماعية والحضارية والفكرية التي شدت بينها وبرزت من خلالها يمثل القصور الواضح الذى رسم لهذه القيم خط سيرها واتجاه حركتها في هذا العصر ، وان استرجاع الواقع الذى تبلورت فيه فكرة التحرير ومراجعة العوامل التي هيأت لهذه الحركة العربية مسيرتها تشكل النقطة التي يجب ان تبدأ منها الدراسة ، والمنطلق الذى يؤخذ بنظر الاعتبار في تحديد مفهوم التحرير والانتصار والمقاومة والثبات ، لان التحرير كان يعني بالنسبة للعرب العودة الى الوطن وطرد الغزاة ، واسترجاع الارض وان هذا المفهوم يختلف عن اى مفهوم آخر يحدد هذا المعنى ويبرز في مكان غير هذا المكان ، وعليه فان دراسة الشعر والوقوف عند معانيه ، واستبطان اغراضه التي حصرت في هذا المعنى ودارت في قطر هذه الدائرة ، والتقت في حدود التوجه الارادى للامة تكشف عن الدوافع الاجتماعية التي احاطت بالادب ورسمت طريقه واثرت في اتجاهاته وحددت معالم التيارات الانسانية البارزة في كل خطرة من خطراته . كما انها تكشف عن المسارات الفكرية التي بلورت عملية التحدى ، وروعتها شراسة الهجمة ، واثقلتها صرامة الانتقام الذى برز في القسوة القاهرة والاستباحة الدموية المفجعة وسيول الدم العربي الذى اريق فوق كل رابية والى جوار كل حصن وعند كل واد ممرع ، وعلى تراب كل بيت يأبى ان يحتله مغتصب أو يعبث به دخيل أو يستوطنه غزاة دخلاء وفي طرق وازقة كل مدينة عربية استباحتها الخيول الهمجية ، ومزقتها سنابك البربرية الظالمة .

فمحاولة الانتصار لهؤلاء الشعراء ، او الانتصاف لهم لا تقتصر على هذه الفترة ، ولا تتحدد في هذه النخبة ولا تقف عند هذا النوع من الادب،

وانما هي محاولة اعادة الشكل الحقيقي لمهمة الشاعر والاديب والفنان ، وهو يقاتل وينتصر ويثبت ويخلد وهنا يجب ان نقف عند الواقع الحضاري الذى يعيشه هذا الشاعر ، ونحلل هذا الواقع تحليلا متوازيا يعيد اليه مرحلة التكوين التي تفاعلت في بناء هذا الواقع ، وهي لا تخلو من بناء فكري موروث او مكتسب ورثته الامة من خلال بنائها الحضارى وبناء اجتماعي تفاعلت في تكوينه ، عوامل مترابطة تحددت من خلال النمط السلوكي الذي التزم به الفرد ، وبناء سياسي مفروض خضعت له الامة لاسباب لم تكن مسؤولة عنها او قادرة على ردها ، وقد ظلت هذه العناصر تنحت في وجود الامة وتطبع شخصيتها وتؤثر فيها حتى جعلتها تلتقي في اهداف لم تتوحد في اى وقت ، ولم تبرز في اية مرحلة ، وتندفع بثبات لتحقيق هذه الاهداف على الرغم من واقع التمزق ، والاحساس بالفرقة والشتات ، وتستميت بعنف امام كل الجحافل الغادرة التي تكالبت ، وهنا تبرز اصالة الامة ، وتنتفض هويتها وتستعيد هذه الامة امجادها من خلال التاريخ او الادب او العلم فتحول التمزق الى وحدة ، والفرقة الى تلاحم ، والانخذال الى اندفاع وتوثب . ولايمكن في هذه المرحلة ان يسوت دور الادب ، او تضيع صيحات الشعر ، او تتضاءل قدرات المفكرين الذين هيأوا الجو لظهور البطل ، ومهدوا السبيل لتسجيل الملاحم الخالدة في كل معركة ، ودفعوا الجماهير الى بناء النصر . وقد كانت هذه الاصوات تنتقل من جبل الى قلعة ، ومن مدينة الى ثغر ، وفي كل عمل ادبي كانت صيحة الامة تأخذ حقها ، وكان نشيد النصر يدور على كل لسان ، وكان الشاعر يصدح مفتخرا وراثيا ومادحا ، وقد تحول الرثاء الى انشودة تمجيد ، واغنية المديح الى تسجيل مآثر ، وتثبيت قيم ، وتعداد مفاخر ، اما الحماسة وماقيل في دواعيها ، فقد شغلت مساحات كبيرة في عالم الادب وكتب التاريخ ، وقد ظلت هذه الاصوات تعلو حتى تحررت الارض ، واستعيدت المحارم ،

وطرد الغزاة ، وتركوا للاجيال التي تلت هذا العصر الذكر الحميد والسؤدد الرفيع والمجد المؤثل •

ان وقوف الشعر الى جانب الاحداث الكبرى في فترة حرب التحرير التي خاضتها الجماهير العربية خلال تحرير بيت المقدس ، والتزامه بتسجيل الملاحم الخالدة التي سجلها ابطال المعارك وتحريضهم على تحرير ما بقي من الارض ، يعد موقفا ادبيا ، واسلوبا فكريا من اساليب التوجه الجديد الذى اخذ الشعراء به انفسهم وهم يخوضون تجربة الثبات ، ويدفعون عنهم ظلامة التخاذل والاستكانة ، وقد سجل فيه الشعراء مواقفهم بوضوح ، ورسموا للجماهير صورة البطل الذى حقق الانتصار ، وخلد الشعب ، واكد قدرة المجابهة الحربية ، وقد اصبحت هذه الانتصارات اناشيد فخر وملاحم تمجيد في اشعار ابن قسيم الحموى وابن القيسراني وابن منير الطرابلسي •• ولم يخف الشعراء تحفظهم او يظهروا خوفهم وهم يفقدون الابطال ويرون الاحداث قد بدأت تأخذ طريقا غير الطريق المرسوم ، بسبب فقدان اولئك الابطال ، وتفرق الجماهير ، ووقوعها تحت سيطرة عوامل التمزق وتكالب القوى الحافدة على الامة ، وضياع التنظيم وفقدان التوجه في اطار الواقع الذى تفرضه المرحلة ، فكانت مراثي الشعراء توغل في تأكيد هذا المعنى ، وتلح في تصويره وتجسد الرؤية المنتظرة التي تختفي في افق المستقبل • وكأنهم كانوا يدركون الصورة التي باتت منتظرة بعد ذهاب البطل ، وفقدان النموذج ، وهي حالة تعطي هؤلاء الشعراء رؤية سليمة في استكشاف الاحداث ، والقدرة على معرفة المستقبل وفهما لواقع الاحداث المنتظرة التي ستحيق بالامة ، ولعل ابيات العماد الكاتب في رثاء صلاح الدين تكشف عن هذا التطلع •

اين الذى مذ لم يزل مخشية  مرجوة رهباته وهباته
اين الذى كانت له طاعاتنا  مبذولة ولربه طاعاته

من في الجهاد صفاحه ما اغمدت بالنصر حتى اغمدت صفحاته

لذّ المتاعب في الجهاد ولم تكن قد عاش قط لذاته لذّاته

لا تحسبوه مات شخص واحد فممات كل العالمين مماته

ما كان اسرع عصره لما انقضى فكأنما سنواته ساعاته

اعزز على عيني برؤية بهجة الدنيا ووجهك لا ترى بهجاته

ان هذا الاحساس بالفقد ، وهذا الادراك لما كانوا يتوقعون ، يؤكد المامهم بالواقع الاجتماعي والنفسي والفكرى ، ويؤيد حرصهم الذى كان يدفعهم الى التأهب والاستعداد ، والتعجيل باختيار الرجل القادر على المجابهة ، المتمكن من تفهم الاشكال المطلوبة لقيادة هذه الجماهير وهي تتعرض لهذه الحملات الكبيرة التي تستهدف مصيرها ، وتهدد مستقبلها ، والشعراء قد خرجوا في نهجهم عن الاطار التقليدى في حصر الموضوعات بالاغراض التقليدية ، وكانوا يعالجون الاحداث بما يتناسب مع حجمها ويتفق مع خطورتها ، فالصراع المرير كان موضع استثارة لمشاعرهم ، وبداية تحول في الاسلوب الشعري ، لتوعية الناس ، وتهيئتهم للقاء المنتظر ، وبث روح الجهاد والعزيمة ، وتحريك العواطف باتجاه المسائل الكبيرة التي بدأت تعترض مسيرة الحياة ، وتقاوم انطلاقة النيار ، وقد اخذت هذه الاغراض تستوعب المضامين المعنوية الجديدة ، التي اوجدتها طبيعة العصر ، وفرضتها مستلزمات المرحلة ، فكان الشاعر في رثائه وفخره ، في حماسته ومديحه متوجها في صوب الافكار التي اخذت مواقعها ، فالرثاء لم يعد رثاء خاليا من ربطه باسباب الحياة وشده مع المعاني الانسانية التي كانت تزخر بها حياة المرثي، ولم يعد مجموعة معان بكائية تقف عند حدود الندب او العزاء او التأبين ، وانما اصبحت معانيه محملة بكل ما يثرى الحياة من عطاء ، ويغنيها من تضحية، ويراق فوق جوانبها من فداء ، وفي اطار هذه المعاني كان الابطال يتأثرون بهذه المعاني ويستجيبون لهذه الاصوات ، ويندفعون من اجل المعنى الجديد

والتخليد الذى يلازمهم في حالة الاستشهاد او الانتصار ، فكانت بطولاتهم فريدة وتضحياتهم نادرة ، ومواقفهم خالدة . وكذلك خرج الفخر عن الحدود التي ظل يدور فيها او يتحرك في ابعادها لانه اصبح يسجل المكرمة ويخلد الملحمة ، وينزع الى الاستئثار بالموقف الانساني الذى يدعو الناس الى تعظيمه والافتخار به . فالمأثرة اصبحت موجبة للتخليد ، والعمل المبدع والخلاق يفرض على الشاعر ان يتابعه ويسجله ليكون موضع رعاية ، ومدعاة تقليد ، ونموذج اقتداء لمن يريد . ومثلهما تكون الحماسة والمديح لانهما خرجا عن الحدود المعروفة واتسعا ليشملا ميادين فسيحة ، وبدا يعالجان المواقف الانية ، ويدورا في حدود المستحدثات الواقعية التي اوجدتهما ظروف التحدي ، وخلفتهما عوامل الاستعداد وهما بذلك يقدمان نماذج جديدة لايمكن تجاوزها او الابتعاد عنها بحجة الاغراض التقليدية التي سادت العصور وعرفها الشعراء .

ان حيوية عصر القرنين الخامس والسادس الهجريين دفعت الشعراء الى المشاركة الحسية في المعركة ، وحملتهم على ان يقدموا اليها كل ما يستطيعون تقديمه ، وربما يستغرب الانسان وهو يرى اناشيد الجهاد ، وهي تأخذ لونا واضحا ، وتشغل حجما من الشعر العربي في تلك الفترة حتى تصبح ظاهرة من ظواهر العصر ، ومفخرة من مفاخر الشعراء الذين كانوا يتبارون في تقديم المعاني الجديدة والصور الشعرية المحببة لاستثارة الجماهير واستنفار مشاعرها لتندفع بقوة . مجاهدة ومقاتلة صامدة ومضحية . وقد اصبح لهذا اللون شكله في المخاطبة ، واطاره في المعاني ، وابعاده في الحس القومي والوطني فهو نشيد البطل الذي يغني ، اغنية الثائر وهو يقود الجحافل ، وترتيلة الجماهير التي ترى التضحية في اعمال قادتها الميامين وهم يرسمون طريق المجد والخلود . وقد اصبح هذا الضرب من الشعر ظاهرة في هذا العصر وقد استخدموا وزن الدوبيت في هذا الضرب الشعري . وقد عرف العماد الكاتب

به ، وروى ابو شامه في كتاب الروضتين في اخبار الدولتين مجموعة من هذه الدوبيتات • على لسان الملك العادل نورالدين •••

للغزو نشاطي ، واليه طربي    مالي في العيش غيره من أدب
بالجد وبالجهاد نجح الطلب    والراحة مستودعة في التعب

وقال في نشيد آخر :

لا راحة لي في العيش سوى ان اغزو    وسيفي طربا الى الطلى يهتز
في ذل ذوى الكفر يكون العز    والقدرة في غير جهاد عجز

وفي ثالثة يقول :

اقسمت سوى الجهاد مالي ادب    والراحة في سواه عندي تعب
الا بالجد لا ينال الطلب    والعيش بلا جهاد جد لعب

ان هذه الاناشيد التي قيلت على لسان البطل تمثل نقطة تحول جديدة في الشعر لان العملية اصبحت تجريبية بحتة ، يتحدث الشعر من خلالها عن تجربته ويصف نوازعه واحواله ، ويتحرك وفق التصور الذى يرسمه البطل وهو يعد خطته للهجوم ، ويوجه جنده للقتال ، ويقدر موقفه من الخصوم • وكانت المعاني الصادقة والحقيقية تبرز باتجاه التحدى ورفض الانصياع لمنطق التكاسل والتواني والتخاذل • ونبذ الحياة السهلة ••

ولعل عبارة الجهاد التي تكررت في الاناشيد الثلاثة كانت تعطي نقطة الارتكاز في هذا التحرك لان الجهاد اصبح حقا وهدفا ومنطلقا ، وان الالتزام به والتأكيد عليه والاندفاع نحو تحقيقه اصبح امثولة العصر ونموذج الاقتداء وقد استطاع هذا الاتجاه ان يثبت نفسه في اذهان وقلوب الجماهير ، ويستحوذ على مشاعرهم واحاسيسهم لانه استقطب هذه المشاعر فوجهها ، وحول العامل الديني فوفق الى الانتفاع منه •• والجهاد يمثل القدرة التوجيهية التي تستطيع ان تدفع الجميع الى التضحية والاستشهاد وهي مؤمنة بمصيرها ، وواثقة

بقدرتها على التحدي والوقوف امام جحافل الغزاة الذين ارادوا ان يمرغوا مجدها ويذلوا كبرياءها ، ويسحقوا قدرتها . ان صرخة الجهاد التي تعالت في هذه المرحلة كانت تمثل الرد الحقيقي على الاصوات التي ارادت الاجهاز على حقيقة الامة ، وافناء شخصيتها وقتل طموحها في البناء الحضارى ، وقد استطاعت هذه الصرخات ان توحد صفوف الامة ، وتجمع اطرافها المتباعدة ، وتلم جبهاتها الشمالية والشرقية لتطبق على جحافل الغزاة ، وتقطع دابر المعتدين .. وقد تحقق لها ذلك . فكان الانتصار وكان الخلود ..

ان شعر الجهاد في هذه الفترة كان شعر العقيدة الاصيلة ، وشعر الثبات في وجه التحديات وشعر التوثب لايقاف موجة التداعي التي بدأت تظهر في الوسط السياسي والفكرى والاجتماعي ، وقد اكتسب واقعا شعريا جديدا لاحتوائه تلك المفاهيم ولانصرافه الى المعالجات المضادة لما كان يريد ان يقع او يسود وقد تجلت تلك القدرات في المضامين التي اصبحت جزء من عناصر الحياة ، ونسغاً جديدا يغذى عروق شجرتها التي قاومت كل صروف التهاون والانحدار .

لقد استمر الشعر في تصعيد مشاعر الجماهير وهي تكتب صفحات الانتصار وتخلد روائع المجد ، وترتدى حلة الفخر والتباهي ، وقد استطاع ايضا ان يحتوى المعاني الجديدة ، ويصوغ الافكار التي افرزتها حركة التحرير ، ويسجل اضراب البطولة التي اكدت قدرتها من خلال المعارك ، كما استطاع ان يفرض نفسه على الاحداث وسيلة من وسائل التعبير الملحة ، ورافدا من روافد الفكر القومي الذى واكب المسيرة ، فاعد لها من قوته ما جعلها واضحة الاهداف بارزة المعالم ... لقد تميز العصر باحداثه الكبيرة التي كان لها وقعها في تحديد مسيرة الامة ، وملاحمه الخالدة التي وضعت الامة في موضع الامتحان ، ورسمت لها طريق الاهتداء ، ومكنتها من تأكيد شخصيتها . وقد استطاعت هذه الاحداث والملاحم ان تطبع العصر بطابع

خاص وضحت جوانبه ، وحددت خطوطه من خلال التأثير المباشر الذى امتد الى كل مظهر من مظاهر الحياة ، ومن خلال التحرك الفكري الذى انعكس في كل حركة من حركات التحرير ولعل وقوف الشعراء عند ملحمة حطين وتحرير بيت المقدس وتمجيد ابطال المعارك تمثل الانعطافات الشعرية الحادة في حركة الشعر العربي ، وان كل جانب من هذه الجوانب يشكل دراسة مستقلة في التحليل ، لتأخذ الفترة حقها ، ولتستعيد صورتها ولتصبح في اعراف الباحثين مركز دفع ، وحركة انطلاق ، ومجال توثب .

ان موقف الشعر لم يقف عند الجانب الحربي او البطولي وانما كان سجلا حافلا لحضارة العصر وتقاليده ، وسفرا خالدا من اسفار الواقع الاجتماعي الذى كانت تعيشه الامة ، وتتحرك في اطاره جموع الشعب ، ومستودعاً ثرّاً من مستودعات الخزين الفكري لما كان يدور في الاذهان ويطرح في مجال النقاش وان محاولة الوقوف عند هذا الشعر ووضعه موضع التحليل يكشف عن كثير من المسائل التي ما تزال اشكالها غير متميزة ..

ولعل الحدث الثاني الكبير الذى الم بالامة بعد انتصارها في حروب تحرير بيت المقدس هو الصراع المرير الذى خاضته ضد الغزاة الجدد الذين اندفعوا من اواسط آسيا الصغرى ، لمحاولة اكتساح هذه الامة ، وازالة معالم وجودها وطمس حضارتها وان اندفاعهم بهذه الاعداد الغفيرة ، وانطلاقهم صوب عاصمة الحضارة العربية وموئل الفكر العربي بغداد ، كانت تمثل الهدف الاساس الذى كان يراودهم لاستئصال جذور الامة ، وانتزاع وجودها الاصيل ، وقد استطاعت هذه الجحافل الغازية ان تكتسح فعلا البلاد الاسلامية لاسباب عرضت لها كتب التاريخ تفصيلاً ، وان تكون على مقربة من بغداد .. وبعدها تدخل هذه الجيوش بغداد المدينة الصابرة فتعيث فيها فسادا ، وتستبيح الارض والعرض ، وتنتهك الحرمات وتترك المدينة صورة من صور الدمار ولوحة من لوحات الخراب ، بعد ان ديست بسنابك الخيول

التترية ، وذلت لسيوف الغزاة الذين حاولوا اغتيال كبريائهـا ، واذلال شموخها ، وانهاء صوتها العربي المدوي ... وهنا يقف الشعر مرة اخرى موقفه البطولي ، ويندفع الشعراء اندفاع الملتزمين للدفاع عن الارض والشرف ، والذود عن حياض الكرامة المستباحة ، والاصالة العربية المضاعة، ورثاء المدينة التي تداولت عليها النكبات ، وتجمعت فوق كل مظهر من مظاهر عزها امارات البؤس وازدحمت في طرقاتها جثث القتلى وهم يدافعون عن ارضهم ، ويردون عنهم غائلة الغزو المغولي . لقد وقف الشعر ثانية يبكي بغداد ويرثى مأساتها الانسانية وقد ارتسمت على كلماته امارات البؤس وصيحات الاسى واستثارة النخوة وهو يتعالى في رسم صرخات الاستغاثة .. ووقف الشعراء بتحد ينشرون صفحات النكبة ويكشفون بدقة عن فداحة المصاب ، ولوعة الفجيعة وكان شعراء بغداد وغيرهم يعبرون عن عمق مأساتهم ، ولوعتهم واحساسهم بالمجد الذى استبيح والحضارة التي هدمت ، والنفوس البريئة التي ازهقت ومجاميع الكتب التي اصبحت نهب الضياع ... وكان الشعراء يدركون ان البعد المأساوي للحدث لم يعد مقتصرا على مرحلة قصيرة ، او على فترة زمنية محددة ، وانما يدركون ان امتداد هذه المأساة ـ من خلال قصائدهم ـ تمتد الى فترة ستترك اثارها واضحة فوق صفحات هذا التاريخ ، وان الانسان العربي الذى تعرض لهذه الهجمة التترية لم تقف حدودها عند وجوده الانساني وانما تعرض اليها وجوده البشري والحضاري والفكري . وهي محاولة تضع الشعر في موضع المسؤولية ، وان النماذج التي عرض لها والبطولات التي برزت في خضمها تؤكد ان معركة المصير كانت قائمة ، وان الشعراء كانوا يدركون ذلك ادراكا حقيقيا ، وانهم استطاعوا ان يستشفوا مظاهر النكبة قبل وقوعها ، وان الشعر قد عرض لاوضاع دقيقة ، ووصف حالات بشرية رهيبة ، وخلّد مواقف بطولية لا يمكن ان تنسى .

ان هذا الموقف البطولي للشعراء ، وهذا الموقف الوصفي للشعر يؤكد امكانية توظيف الشعر في المشاركة ويؤكد امكانية قدرته التعبيرية عن الجوانب الحسية التي اخفق في التعبير عنها الجانب التاريخي ، ولعل مرحلة الوقوف عند ادب هذه الفترة ومحاولة دراسته دراسة علمية ومنطقية سوف يقدم لنا مادة جديدة اخرى نحن بامس الحاجة اليها ، لاننا بحاجة ماسة الى مثل هذه الادلة .

لم يكن من السهل على الباحث ان يخوض تجربة مرحلة جديدة لم تستكمل عناصر بحثها ، او تحدد ابعاد مجالاتها ، لانها مرحلة ما تزال اخبارها متباعدة، ودراستها غريبة ، والوقوف على ادبها يعد ضربا من المستحيل ـــــ من الاخبار متناثرة ، وقطعا من الاقوال متضاربة ، ومن الغريب ان تكون الاحكام عن مثل هذه الفترات قاطعة ، ويكون التقويم لاحداثها تقويما يوحي باستكمال الاستقصاء وشمول المتابعة وملاحقة الاجزاء .

ان هذا الحديث يصح ان يقال بالنسبة للأدب الذى اعقب سقوط بغداد لان الصورة من خلال النتف والقطع تؤكد موقف الاديب من احداث بغداد، وتؤكد تعبيره الحسي ، وموقفه الانساني ، وانفعاله وهو يرى ابناء قومه تستباح دماؤهم وهم يذوقون من هول المغول ما لا يوصف بعد ان وضع السيف فيهم فامضوا تحت رحمة القتل والنهب والتعذيب اياما ثقيلة ، الا ان الاحكام عن هذه الفترة لا تعطي هذا الجانب بعض حقه ، ولم تحاول التثبت من صدق المقولات التي اصبحت تلقى بلا تردد ، وتمنح بلا استئذان .

ان الشعر العربي الذى قيل في نكبة بغداد على الرغم من قلته وضياع كثير منه، استطاع ان يعبر عن روح شعرائه وهم يشاهدون جموع البشر كالتلول في الدروب والاسواق . ومجاميع القتلى اكداسا تركلها الخيول وجثث الاطفال تمتلىء بها بطون القنوات والآبار وآلاف الناس يفتك بهم الجوع والوباء ويتزاحمون على المياه التي شابتها اجساد الموتى . ان هذه الصور وما رافقها من مآسٍ

بعد ان استبيحت المدينة نيفا وثلاثين يوما تركت اثرهـا المؤلم في نفـوس الشعراء وتركت صورا لم تزل خالدة لصدق التعبير وعمق المأساة وقسـوة الهجمـة .

ان هذا الموقف الحربي وهذه القسوة البشرية وما رافقها من وقائـع واحداث تركت الوانا من المآسي ، وحملت المؤرخين على ان يقولوا فيهـا ما يقولون ولعل ما ذكره صاحب الحوادث الجامعة في اخبار المائة السابعـة والعماد في شذور الذهب وابن الاثير في الكامل وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة وغير هؤلاء من المؤرخين يكشف عن المآسي التي الحقت والمصائب التي نزلت وهي صور مرعبة واحوال مخيفة . ولعلها تذكرنا بمذابح التاريخ الكبرى الحديثة مثل مجزرة ايلول الاسود وتل الزعتر ودير ياسين وقبيـة واللـد وغيرها من المواقع التي ارتكبت فيهـا من الفواجع ما يعجـز عن تصويره اللسان . ولم يقف الشعر العربي موقف المتفرج من احداث بغداد وهي تتهاوى امام ضربات المغول ، وعن سكانها وهم يدافعون ببسالة عن الارض فقد خلد الشعر هذه المآسي فقال تقيالدين ابن ابي اليسر قصيدته المشـهورة[٢] ..

| | |
|---|---|
| لسائل الدمع عن بغـداد اخبار | فما وقوفك والاحباب قد ساروا |
| يا زائرين الى الزوراء لا تفدوا | فما بذاك الحمى والدار ديّـار |
| تاج الخلافة والربع الذى شرفت | بـه المعالم قـد عفّـاه اقفـار |
| اضحى لعطف البلى في ربعه اثـر | وللدمـوع عـلى الاثار أثـارُ |
| يا نار قلبي من نار لحرب وغى | شبت عليه ووافى الربع اعصـار |

وفيها يقـول :

| | |
|---|---|
| وكم حريم سبته الترك غاصبـة | وكان من دون ذاك الستر استار |
| وكم بدور على البدرية انخسفت | ولم يعـد لبدور منـه ابـدار |

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٢٩ و ٣٣٣ـ٣٣٤ نقلا عن كتاب الشعر العربي في العراق للدكتور عبدالكريم توفيق .

وكم ذخائر اضحت وهي شائعة — من التهاب وقد حازته كفّار
وكم حدود أقيمت من سيوفهم — على الرقاب وحطت فيه اوزار
ان القيامة في بغداد قد وجدت — وحدّها حين للاقبال ادبار
ماكنت آمل ان ابقى وقد ذهبوا — لكن أبت دون ما اختار اقدار

وهي قصيدة طويلة وقف فيها الشاعر عند مآسي المدينة الخالدة ، وتحدث عن الفاجعة التي تمنى ابن الاثير المؤرخ ان لا يكتب عنها لفضاعتها •

وبكى شمس الدين محمد بن عبدالله الكوفي الواعظ بغداد بكاء صادقا ، عبر فيه عن مشاعره واحاسيسه وهو يرثى الخلافة ، ويتوجع للمصاب ، وقد افتتح قصيدته •• باللوعة وتجسيد النكبة التي لم ينج من صرفها احد من الورى وقد تمكنت ايدى الاعداء في الاحبة ، وهي احاديث ترسم صورة الالم الذى اصبح سمة متميزة ، وتحدد ملامح التعاسة التي احاطت بالبشر ، وحلّت بالمدينة ، وقد كان موقف الشاعر واضحا من التعاطف ، فقال(٣) :

يا نكبة ما نجا من صرفها احد — من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكنت بعد عزّ في احبتنا — ايدي الاعادي فما ابقوا ولاتركوا
لو ان ما نالهم يفدى فديتهم — بمهجتي وبما اصبحت امتلك
اين الذين على كل الورى حكموا — اين الذين اقتنوا اين الاولى ملكوا
وقفتُ من بعدهم في الدار اسألها — عنهم وعمّا حووا فيها وما مسكوا
اجابني الطلل البالي وربعهم الخالي نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا
لاتحسبوا الدمع ماءً في الخدودجرى — وانما هي روح الصبِّ تنسبك

ان عمق الاحساس اكد تداعي صورة المجد المقترن بالبناء والحضارة

---

(٣) الحوادث الجامعة ٣٣٤_٣٣٥ نقلا عن المصدر نفسه •

والفكر . وان انصراف الشعراء الى ابراز الجانب الانساني الذى تعرض للسقوط يؤكد الموقف الملتزم في الاصرار على التعبير، ويؤكد الموقف الحاد الذى اصبح صورة من صور الاحتفاظ باستقلال الشخصية الانسانية وهي ترى البشاعة تتحدى القيم ، وتراقب الاحداث وهي تسجل انخذال الفضيلة والاستهانة بالانسان وتتجاوزه الى الموتى ، وعندها تستحيل الصورة الى فاجعة يصعب تصديقها .. ان احساس الشعراء كان يوحي بالالتزام ، وتعبيرهم كان ينم عن الربط الحقيقي الذى دفعهم الى الاستثارة ، فبغداد لم تعد في عرفهم مدينة عابرة او عاصمة مجردة ، وانما استحالت الى رمز من رموز الحضارة العربية ، ومركز من مراكز المجد العربي ، والثبات العربي في مواجهة التحديات ، ومن هنا فان رثاء بغداد كان يعني رثاء للمجد الذى استبيح ، وللفكر الذى انتهك ، وللثروة القومية التي اصبحت نهب الضياع ، وللبطولة العربية التي ذبحت بسيوف التتار والمغول .. وان صرخات الشعر التي تعالت ، واستغاثات الشعراء التي ارتفعت كانت تمثل هذا الاحساس .

وقد تجاوزت حدود النكبة شعراء بغداد الى شعراء فارس فهذا الشيخ سعدي الشيرازى يبكي مأساة بغداد بقصيدة تعد من غرر الشعر ، فيخلد فيها الصورة المحزنة ، ويجد في ثناياها المأساة الحضارية التي نزلت بهذه المدينة الصابرة فيقول(٤) ..

| | |
|---|---|
| حبست بجفني المدامع لا تجرى | فلما طغى الماء استطال على السكر(٥) |
| نسيم صبا بغداد بعد خرابها | تمنيت لو كانت تمر على قبرى |
| لزمت اصطبارا حيث كنت مفارقا | وهذا فراق لا يعالج بالصبر |

(٤) د . حسين محفوظ . المتنبي وسعدي ص ٧٣-٧٤ .

(٥) السكر : سد الشق ومنفجر الماء ، والسكر : اسم ذلك السد أو الذي يجعل سدا للشق والسكر : العرم والمسناة .

بكت جـدر المستنصرية ندبـة    على العلماء الراسخين ذوى الحجر[٦]
نوائـب دهـر ليتنـي مت قبلهـا    ولم ار عدوان السفيه على الحبر

ويمضي شاعر النكبة يروى الاحداث ، وقد وقف بعبادان يرقب دجلة وهو يسيل الى البحر كالدم القاني ، فتفيض دموعه ، وتزداد حرقته ثم يعلل نفسه بالاماني ، ولكنه يرجع ثانية الى انكار هذه الافكار ولـو تصور دار الملك ترجع عامرة . وان وجه المدافعين عنها قد غسلت ولم يجـد الشاعر امنية يتمناها وهو يجد النكبة قد تجسدت ، والفتنة عمت ، الا ان يدعو دجلة الى التوقف ، ويطلب الى الاوراق الخضر ان تجف ، لان الناس الذين حلّوا هذه الديار لا يستحقون هذا الخير .

لقد اقفرت البلاد فلم تجد فيها الا الغربان المتزاحمة حول رسـومها والعنقاء قد لزمت الوكر ، وهو لا يملـك بعد هـذا الا ان يحيي الشهداء الطاهرين تحية مشتاق ويترحم عليهم الف ترحم ، ويعدهم كما وعد اللـه الشهداء بدار الكرامة ، ثم يبدأ بوصف بعض جوانب هذه النكبة ...

لقد كان الموقف صريحا في الاستجابة ، وكان واضحـا في التعبير ، وكان موفقا في تحديد معالم الموقف الصائب ، فالمأساة التـي نزلت لا تترك مجالا للهروب ، والنفوس التي ازهقت لا تعطي مبررا للسكوت، والحضارة الانسانية التي ديست بسنابك الخيول التترية ، لا تعفو الشعراء والكتـاب والمثقفين من مسؤولية الاستنكار ومسؤولية التحدى ، ان هـذه النمـاذج الشعرية القليلة التي استشهدنا بها تمثل جانبا من صورة الاستنكار وتمثل نموذجا من نماذج التعبير عن الموقف الملتزم . وان شراسة المعتدين ، وهجمتهم لم تحل دون وقوف المؤرخين من هذه الاحداث المـوقف الانسـاني ، ان جماهير بغداد البطلة التي خرجت لصد هذه الهجمة وهي تقدر الاعـداد

---

٦) الحجر بالكسـر . العقـل واللب لامساكه ومنعه واحاطته بالتمييز وفي التنزيل هل في ذلك قسم لذي حجر .

الضخمة التي اندفعت لاكتساح المنطقة كانت تمثل الصورة العربية البطلة التي اكدت وجودها القومي وحققت ذاتها الانسانية •

ومن الطبيعي ان تسجل الاحداث بطولات فردية نادرة كانت تتميز من خلال المعارك ، وتندفع من اواسط الجماهير لتصد عنها الهجمة الظالمة فهذا الشاعر ابو زكريا يحيى بن يوسف الصرصرى البغدادى كان ضريرا وله اشعار في تسجيل احداث النكبة • وحين وصل التتر الى بغداد سنة ٦٥٦ خرج اليهم يحمل عكازته ، ويحرض الناس على القتال ، ويدفعهم الى الجهاد والتضحية ، ويروى انه استطاع ان يقتل منهم بعكازته نحو اثني عشر رجلا ثم قتلوه شهيدا برباط الشيخ علي الخباز •

ومن اشعاره في محاربة التتار قوله ••

وكم قمعت بالنصر والقهر في الوغى — رجالك خيل المشركين وفلّت
بوعدك نرجو النصر يا سيدَ الورى — على عُصبةٍ من خطة الرشد ضلّت
اتت تبتغي دار السلام بكيدها — فلما رأت اجنادك الغرّ ولّت

وقال في ابيات اخرى يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام ويشكو عصره ••

اشكو اليك رسول الله ما أجد — من الخطوب التي أعيا بها الجلد
وفتنة التتر العظمى التي فرحت — منا لوقعتها الاحشاء والكبد
رمت صميم القرى منها بفاقرةٍ — لم ينج من شرها مال ولا ولد
أودت بمن حولنا فتكا وليس لنا — الا الى وعدك الميمون مستند

ان توجه الشعر في فترة القرن السابع الهجرى نحو الالتزام بالمواقف القومية والانسانية التي فرضتها طبيعة المرحلة ، ودخوله معترك الحياة السياسية والفكرية التي استهدفت اصول الامة وحاولت انهاء وجودها يمثل توجها بارزا في طبيعة العصر ، ويمثل استقطابا لجملة المشاعر التي كانت تمارس

التعبير من خلال المظاهر اليومية او التوجهات الثقافية المختلفة ، لان اسلوب التحدي الذى تعرضت له الامة كان اسلوبا عنيفا ومكثفا ، تعاونت على توحيده عوامل كثيرة وخلقته ظروف عصيبة ساهمت فيها طبيعة الحكم ، وعدم اخلاص العناصر المسؤولة ، وتمزق الجماهير بعد فقدان القيادة الحاسمة ، وابتعادها عن التخطيط الهادف الذى مارسته هذه الجماهير خلال الازمات التي تعرضت لها . ولعل دراسة موسعة لهذا الجانب تكشف عن تلك العوامل لتجلعها نموذجا للانتفاع وصورة للاعتبار .. ولكن الذي يجب ان يؤكد هو ان هذا الشعر ومن ورائه جموع الشعراء الذين ادركوا ان الخطر الماحق اصبح وشيكا، وان جحافل الغزو بدأت تهز كيان الدولة بعد ان تحركت جموعهما نحو اربل سنة اربع وثلاثين وستمائة فعاثوا فيها نهبا واسراً واحراقا وتخريبا ولكنهم رحلوا عنها راجعين ، وقد وضعت هذه المجاميع من الشعراء نفسها في خدمة هذا التوجه، وبدأت تدرك ان شرا مستطيرا ينتظر هذه الامة ، وان خرابا عظيما يتهدد حضارتها ، وان امرا كبيرا يعد لها . فانطلقت تحذر من وقوع النكبة ، وتنبه الى دفعها والوقوف بوجهها لاحباطها فمما قيل قبيل الحادث[7] .

| | |
|---|---|
| قـل للخليفة مهـلا | اتاك مـا لا تحـب |
| ها قـد دهتك فنـون | من المصائب غـرب |
| فانهض بعـزم والا | غشاك ويـل" وحـرب |
| كسـر وهتـك وأسـر | ضـرب ونهب وسلب |

ان صرخة الشعر تعني التزامه وادراكه لمهمته ، وتعني استشفافه للاحداث ، ورؤياه البعيدة لوقوعها ، ومخاوفه من النهاية المؤلمة المنتظرة التي لا تقتصر على الخليفة وحده وانما سيعم الشر ويسود الهتك والاسر والضرب والنهب والسلب ، وعندها تتحول الدولة الى ميدان صراع ، ومجال انتقام . وهي رؤية كانت في موقعها ، وتوقع يؤشر البعد الفكري الذي عبر عنه الشاعر

(٧) عباس العزاوي . تاريخ الادب العربي في العراق ١ ٣٠١ .

وهو لم يكن بعدا فرديا ، او تخوفا ذاتيا وانما يعني تيارا واسعا كان يتحسس النكبة وجماهير غفيرة كانت تتوقع المأساة . وقد عبرت عنها بهذه الصورة ، وسجلتها من خلال التوعية الشعرية . ان صرخة الشاعر هذا لم تكن الوحيدة فهناك شاعر آخر هو المجد النشابي ينذر ويحذر ويدعو الى الاصلاح ويحدد اطراف الفساد ، ويؤشر مواقع الضعف ويسمي الاشخاص باسمائهم وما يقترفون من آثام ، ويرتكبون من معاصي ، منطلقا من حرصه واخلاصه لهذه الامة التي ظلت اعمدة وجودها قائمة ، ومعالم انسانيتها لا ينكرها منكر . فيقول[٨] ..

| | |
|---|---|
| يا سائلي ولمحض الحق يرتاد | اصرخ فعندى نشدان وانشاد |
| واسمع فعندي روايات تحققها | درايـة واحاديث واسناد |
| فهم ذكي وقلب حاذق يقظ | وخاطر لنفوذ النقد نقّاد |
| عن فتية فتكوا في الدين وانتهكوا | حماه جهلا برأي فيه افساد |
| اذا ترامت امور الناس ليس لهم | فيها دواء ولا حزم وانجاد |

وبعد ان يحدد الجهات المسؤولة وما تقوم به تحديدا يؤكد انصرافها الكلي عن المهمات الموكلة اليها يقول :

| | |
|---|---|
| يا ضيعة الملك والدين الحنيف وما | تلقاه من حادثات الدهر بغداد |
| ايـن المنيـة مني كي تساورني | فللمنيـة اصـدار وايـراد |
| من قبـل واقعـة شنعاء مظلمـة | يشيب من هولها طفل واكباد |

ان هذه الاصوات كانت تتعالى لتعلن الرفض ولتؤكد الواقع المؤلم ولتحدد المسؤولية القومية التي ضاعت في زحمات احداث الفتن ، وتبددت في غمار الفوضى وانصراف المسؤولين الى تطمين المصالح الفردية . انهم كانوا يعلنون رفضهم بكل جرأة لانهم كانوا يعلمون عظم المأساة التي سوف

---

(٨) ابن الفوطي . الحوادث الجامعة ٣٢١-٣٢٢ .

يتعرضون اليها ، ويدركون الفواجع التي ستحل ومن هنا كان التزامهم التزاما مسؤولا ، وكان اندفاعهم اندفاعا قوميا واضحا ..

ان جرأة الشعراء في مقارعة الواقع ومجابهة السقوط الذى تتعرض اليه الدولة ومعالجة التدهور الذى كانت تنحدر اليه يمثل موقفا قوميا سليما لانه يسجل الرفض الادبي والانساني ، ويمثل موقفا جريئا وجديا لانه يصارح قوى البغي وهي تملك وسائل القتل ، ويكشف عن ظلمها ويجاهر بمعاداتها ويدعو الى ايقاف زحفها وهو في الموقفين مرحلة نضالية متقدمة ، ونموذج كفاحي متميز . اكتسبه الشعراء من خلال الممارسة النضالية التي كانت تتكرر منذ المراحل الاولى للغزو التتري ، واصبح صورة من صور الجهاد ، وقاعدة من قواعد الدفاع عن العاصمة العربية الاسلامية بغداد ، ولعل تنوع اساليب التعبير التي كانت تعالج المسألة ، واختلاف مناهج الوصول الى الهدف تمثل المنطلقات التي كانت تنطلق منها صيحات الشعراء وهم يلتقون عند الدفاع عن الارض والحفاظ على التراث ، والوقوف بوجه المعتدين والدعوة الى الكفاح من اجل طرد الغزاة واستعادة المجد الضائع .. واذا قدر لبعض قصائد الشعراء ان تستقل في معالجة هذا الغرض او تتابع احداث الفاجعة ، او تفصّل في المسائل التي عرضت لها فان ذلك يعني ان عملية المقاومة واستثارة المشاعر وتأليب القوى كانت تأخذ شكل التنظيم وتلتزم بالتوجيه القومي الذى يفرض على الجماهير التصدي والمجابهة والتحدي .

ان موقف الشعر والشعراء من احداث الهجمة المغولية وما رافقها من تخريب وتدمير وسلب طوال الفترة التي امتدت حتى سقوط بغداد يمثل انعطافا في حركة الشعر العربي ، وتوجها جديدا في معالجة تلك الاحداث ويمكن ن تأخذ الحركة اشكالا تتمثل في : الاحساس بجسامة الخطر المغولي ، والتوقعات التي يمكن ان ترافق هذا الخطر والنتائج

المترتبة التي يمكن ان تخلقها والرؤية الثاقبة التي استطاع الشاعر تحسسها من خلال متابعته لهذه الاحداث وادراكه لواقعها وتمكنه من تلمس هذا الواقع الذى رانت عليه بوادر الضعف ، وتمثلت في اسبابه عوامل التدهور وقد استطاع الشعراء ان يرسموا الجانب النفسي الذى اخذت آثاره تملأ عليهم آفاق الحياة بعد ان بدأت الثقة تتزعزع وهم يسمعون الخبر المفجع، ويتابعون الحدث المريع ، ولابد ان يكون الجانب الاعلامي المضاد قد اخذ دوره في هذه المعركة وقد تمثل في تجسيم الاحداث واضفاء طابع التهويل ، واقترن بصياغات حربية مبالغة ، ضاعفت من تأكيدها صور الرعب ، وحوادث الفزع ، وقد حاول الشعر ان يكشف ولو بشكل غير مباشر عن هذه الاحوال ، وحاول ان يمر بها من خلال العبارات الموجبة لتأكيد القدرة على المجابهة ، وتثبيت صورة التمكن من الوقوف والتحدي ، ولعل تأرجح الاقوال بين اليأس والرجاء ، واهتزاز المشاعر بين الاقدام والاحجام وتقلب الامال بين التحقق والضياع تحدد لنا الواقع النفسي الذى اصبح طابعا متميزا في مرحلة الشعر هذه ، وصار سمة من السمات البارزة لتوقعات الجماهير .. فالصرصرى الشاعر الذى مر ذكره يؤكد ذلك في ابيات له فيقول :

| | |
|---|---|
| ودارة بيضة الاسلام ليس لها | بوعده من جميع الناس منتهب |
| ونحن أمته ما صدّنا رهب | عنه ولا غالنا عن حيه رعب |
| فليخسأ التتر الطاغون من فئة | لها الصغار وذل القهر والعطب |
| بوعد احمدخير الناس منخضعت | له الملوك وحلت دونه الرتب[٩] |

لقد ظل الشعر في مرحلة التهيء يشق هذا الطريق ، وظلت معانيه تدور في أطار التحول النفسي الذى صاحب عملية التردد ، وبقيت مشاعر الشعراء

(٩) عبدالكريم توفيق . الشعر العربي في العراق ١٦٧ نقلا عن مخطوطة المختار من ديوان مديح النبي (ص) للصرصري الورقة (٢٠) .

تتأثر بما يشاع او ينشر او يسمع ، وهم يجابهون اعداءا اشداء ، وينتظرون جحافل جرارة ، ويتحركون في حدود امكانات غير مؤهلة لهذه المجابهة ، ولا قادرة على صد هذه الجحافل . وكانت الاخبار تتوالى ، وصور النهب والقتل تستحوذ على معظم هذه الاخبار ، فهم يغيرون على المدن فيتركونها خالية مقفرة ويتقاطرون على القرى والارياف فيعيثون فيها فسادا ويملؤن قلوب اهلها رعبا . ومن الغريب ان يسود الاعتقاد بانعدام قدرات الناس على المجابهة ، وهنا يلوح الجانب النفسي الذى خلقه الاعلام المغولي ، حتى قدر للسواعد القوية ان تظهر وهي عاجزة عن اشهار السلاح ، ضعيفة عن التماسك. وتبدو النفوس ضعيفة خائرة لا تستطيع المقاومة، وقد ترك هذا الاعلام الاثر الكبير في قلوب الممالك التي اجتاحتها جيوشهم حتى طغت على اخبار المؤرخين وكانوا يذكرون امثلة لذلك فابن الاثير المؤرخ يقف عند هذه الظاهرة وقفة طويلة ، ويجعلها مبررا من مبررات الانتصار ، ويؤكدها من خلال احاديثه التي يعرضها ويقرنها بظاهرة الرعب التي صاحبت هذا الفتح ، وسارت في ركاب الجحافل المغولية ، والذلة التي تمكنت من قلوب الناس ، واخذت موقعها في كل حديث وعند كل حادثة وفي اعقاب خبر يساق عن تلك الجيوش فمن الاخبار التي اوردها قوله « وسمعت من بعض اهل مرافة ان رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل ، فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ، ولم يمد احد يده اليه بسوء[١٠] والخبر بصورته هذه يثير الاهتمام ويبعث على التساؤل وان اخذه بهذه الصورة ، وسماعه وفق هذه الصيغة يدعو الى مناقشته وتحليله والوقوف على مدى صحته ، فالسماع من بعض الناس لايعني الثقة ، والقتل بهذا الشكل من قبل شخص لهذه المجموعة حكاية ليس من السهل تصديقها ، ولكن الناس كانوا يتناقلونها دون مناقشة ، ويقبلونها دون تمحيص فالجو السياسي مضطرب ، والواقع النفسي مؤهل لاستقبال هذه الاشاعات وضعف الثقة في النفوس كانت تؤكد مثل هذه الاخبار ،

---

(١٠) ابن الاثير . الكامل ١٢/٣٧٨ .

وتؤيد وقوعها ، ولعلها كانت تمثل الدعوة الى الاستسلام والانصراف عن القتـــال ..

لقد كانت الصورة في نفوس الشعراء واضحة ، وكان ادراكهم لهـا ادراكا يوحي بالنتائج التي تترتب عليها ومن هنا كان توقعهم لمـا يمكن ان يكون قريبا من الصورة التي وقعت ، واستشفافهم لما سيحدث مطابقـا ، لانهم استطاعوا الوقوف على دقائق المسائل واستطلعوا الاحوال المحيطة ، وميزوا بين الاشاعة ومايصاحبها ، والخبر ومايضاف اليه. ثم بدأوا يدعون الى ما كانوا يطالبون به دفعا لما سيحدث ، وحرصا على المجد الحضاري لهـــذه الامة ومن هنا كانت صرخاتهم تتعالى لايقاف هذا الزحف وصـد تلـك الجيوش ، ومنعها من التوغل ولعل بروز العامل الديني ومحاولة استلهام الاحاديث التي تؤكد الانتصار والحكايات التي تثير نوازع السيطرة تمثل المردود الايجابي لهذا الاحساس ، وقد اخذ الشعر على عاتقه هذه المهمـة وبدأ يغذي هذا الجانب ويقويه في النفوس محاولا بذلـك تخفيف نوازع الخوف ، وتقليل تأثير الدعاية ، وانهاء اسطورة السيطرة المغوليـة التـي وصلت حدا من المبالغات وقد اخذ الشعر دوره بجـدارة فهذا عبدالحميـد ابن ابي الحديد الشاعر المعاصر لهذه المرحلة يسجل لنا هواجسها ويؤكـد صدق الاحساس الشعبي ويخاطب الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٢٩ عندما كان الخليفة يستعد لهذه الغزوة لصد الخطر ودفعه عن الدولة فيقول[١١] :

| | |
|---|---|
| تغـــر التـــرك آمال طـــوال | تسـوق اليـك اعمـارا قصـارا |
| امانـي النفـوس تغـــر" حـتى | تضر" كخمـرة جلبت خمـــارا |
| بعثت اليهـــم حمـــر المنايـــا | وبيض الهنـد والاسـل الحرارا |
| وجيشا لم يعد كسرى بن كسرى | مماثلـــه ولا دارا ابـــن دارا |
| ترقرقت الدمـوع فخيـل مـــاء | واومضت السيوف فخيـل نـارا |

---

(١١) ابن ابي الحديد . المستنصريات ٢٩ـ٣٠ .

خلعت بـه قلوب الشـرك لمــا خلعت بـه عـلى الدنيــا ازارا
تخيّــر ايّهــا المغــرور منـــه فـرارا او هلاكــا او اســارا
فــكم بطـل بـه بطلت قــواه وجبــار غــدا دمــه جبــارا
فلا زالت سـيوفك يا ابـن عــم النبــي لكـل معركـة منــارا

وقد بقي الشعراء يحركون هذه الاوتار ، ويخففون غلــواء المعركة الاعلامية التي سيطرت على كل النفوس ، واستحوذت على الفكر ، وشلّت قدرة المقاومة ، وحاولت ان تنهي معنويات هذه الجماهير باخبار طويلة تسبق الغزو ، وتتقدم الجيوش ، وتبث من خلال الاخبار ، على ان رد الفعل الذى خلفته هذه المعركة ومحاولة استرداد الثقة بالنفس كان اكبر من الحجــم الحقيقي ، وكانت اشكاله تتجاوز الصورة المعقولة ، وقد تجلّى ذلك في الصور الشعرية المقدمة من قبل الشعراء وهم يعرضون لهذه الاستجابة ، وربما كان الشعراء يريدون ايقاف المبالغات التي صاحبت الحملة يمثلهــا، لبعث الثقة بالنفس وتأكيد القدرة على المجابهة ، ويبدو انهم وقعوا في الخطأ، وهي صورةقريبة من صور الشعر العربي الذي حاول معالجةالقضية الفلسطينية فاعطى جوانبها صورا من المبالغةوالمغالطة وعدم التقدير ، واضفى على اطرافها من صور التمكن مالم تكن قادرة على ادائه في الظروف التي قيل فيها فكانت مشاركته في المأساة لاتقل عن مشاركة الشعر قبل سقوط بغداد في مأسـاة سقوطها وابيات عبدالحميد بن ابي الحديد الذى وصف فيها جيش المستنصر وهو يستعد لمجابهة الغزو خير دليل على هذه المبالغة حيث يقول(١٢) :

سد المذاهب بالجيوش على العدى فـكبعد نيـل عـلاه بعـد المهرب
بعرمــرم بالخافقــين مخيـــم وعـلى درارى النجـوم مطنـب
تتقاعس الافـلاك ان لم تنفطـر عنه وتردي الشمس ان لم تهرب
يغشى النواظـر ضؤوه فـكأنـــه شم شوامخ مـن حديد أشـهب

(١٢) ابن ابي الحديد · المستنصريات/١٧ نقلا عن المصدر السابق ·

وكأنما اسيافه في عارض وكأنما راياته في كبكب

ان صورة الجيش الذى تقدم في هذا الشكل وبهذه الصورة الواسعة التي خيم فيها على الخافقين وشدت حبال خبائه بدراري النجوم بحيث تتقاعس الافلاك ان لم تنفطر عنه والشمس تهلك اذا لم تستطع الهرب ، وقد ملأ الانظار ضؤوه فبدا شامخا كأنه حديد اشهب ، وامتدت اسيافه من جبل عارض في اليمامة الى راياته في جبل كبكب خلف عرفات والبعد بينهما معروف ... ان هذه الصورة كانت بعيدة عن واقع الحال ، وبعيدة عن الامكانات التي يستطيع الخليفة ان يضطلع بها ، ومضللة للجماهير التي كانت تعرف الواقع وتتحسس النتيجة .. فهي صورة شاركت في التخدير الى حد ما ، وشاركت في الاسترخاء النفسي والاستكانة الفكرية التي كان بامكانها ان تغير الموقف بعد ان اخذت على نفسها الموقع الحقيقي.

على ان هذه الصورة بدأت تتغير بعد ان تحسس الشعراء الموقف ، وتثبتوا من الوقائع ، وعرفوا بأن حدود القدرة اقل من هذا التصور ، وخاصة بعد ان وقعت المجابهة الحقيقية ، في إربل ، فتركت المدينة خاوية بعد ان وطأتها سنابك الخيول التترية وادمت قلوب اهلها سيوفهم الحاقدة . ومزقت جثث ابنائها الرماح المتعطشة الى الدم ، فعم فيها الخراب ، وانتشرت الحرائق ، وتناثرت الجثث ، وقتل من اهلها جمع غفير ونجا منهم من هرب.

ان هذه المجابهة هزت الواقع النفسي لكل الجماهير وحركت عنصر العقل ثانية ، ودفعت الشعراء الى اعادة النظر في المواقف السابقة لاسترداد ما سلب وتقوية ما ضعف وتأكيد العزائم في نفوس اهل التخوم لحملهم على المقاومة ودفعهم الى خوض المعركة بقدرات عالية ومعنويات مشدودة . ولم يجد الشعراء وسيلة اقرب من دعوة الجهاد لانها السبيل الوحيد لاستثارة الهمم ، وتحريك المشاعر ، واستقطاب الجماهير التي بدأت تقف على حقيقة المسألة ، وتتفحص الابعاد الفاجعة لهذه الهجمة .

لقد ترك الشعر اثاره في تقديم بعض الجوانب الاجتماعية والنفسية التي سادت الفترة وان اشارات الشعراء لهذه الجوانب تكشف عن طبيعة التفكير وطرق المعالجة وتحديد بعض الضوابط التي كانت تأخذ مكانتها في النفوس ، وهي انعكاسات مضطربة ، واحوال غير مستقرة كانت تتخبط في خضمّها هذه الجماهير ، وتتحرك في حدود دائرتها، لانتزاع الموقف المناسب ، واتخاذ الوضع المؤهل لمجابهة التحدى ، وقد اكد الشعر حالات القلق المستحكمة ، واوضاع الضياع المتمكنة وهي تنشر ظلها الثقيل ، وتطبع كل تحرك ، وتأخذ بزمام كل خطوة تحاولها . وقد رصد الشعراء هواجس الناس ، وتطلعاتهم ، وحاولوا ان يكونوا دقيقين في رسم بعضها ، لانها كانت تمثل المحور الحقيقي لتكثيف المشاعر ، والمرتكز الثابت في الحركة التي يريدون الاقدام عليها ، وبالتالي تمكنهم من القدرة على تقديم الحلول الصائبة ، والخطوط الواضحة لحركة الدولة في هذا الخضم الكبير ، لانهم يتمكنون من الوصول الى المركز الحساس ويستطيعون اسماع اصواتهم لمن يمتلك القدرة على تحريك الموقف .. ان شعراء الفترة بما تركوه من قصائد متباعدة ، ومعالجات قليلة بسبب الضياع الذي ذهب باكثرها استطاعوا ان يقدموا نموذجا لريادتهم في ميدان التوجيه ، على الرغم من تأرجحه ونموذجا في مجال القيادة على الرغم من صعوبة الظروف وقسوة الاحوال وقد ظلوا امينين على هذه الريادة والقيادة عندما بدأت الازمة تشتد ، والفاجعة تقترب ، وجحافل الجيوش الغازية تتمادى في نشر فظائعها وتغالي في انتهاك الحرمات . وما تحركهم الى حديث الجهاد ، ودعوتهم الى الالتزام بها الا دليل من ادلة التحسس .. فقد وجدوا فيه عنصرا لتجميع القوى ، وملتقى تنتهي عنده الافكار ، وطريقا تصب فيه روافد الاخلاص لهذه الامة منطلقين من مبادىء الاسلام التي استطاعت ان تضع هذا الهدف في كثير من مراحلها غاية اساسية من اجل التحرير ، ومن

اجل دفع الظلم ، ونشر العدالة ، واخيرا فان الجهاد يصبح حقا مشروعـا عندمـا تحـاول جحافل الطغـاة ان تدوس باقدامهـا الارض العربيـة ، وتستبيح معاقل الحضارة ، وتفتك في ابنائها وحماتهـا وهنا وجـد الشعراء انفسهم يعودون الى المعركة بشكل جديد ليحملوا الراية كبيرة خفاقة لبث الدعوة ، ونشر راية الجهاد .

فهذا شاعر اربلي هو اسعد بن ابراهيم يخاطب الخليفة المستنصر بالله ويدعوه الى اعلان الجهاد ويطلب منه ان يقوم به بالعزم والتصميم بعد ان اخذ الخليفة على عاتقه مبدأ التأهب للعدى والاستعداد لمقابلـة المغـول فيقـول(١٣) :

وهذا جهـاد انت كافـل نصره     فقم فيه بالعزم المصمم وأحـكم
لانك ابدأت التأهـب للعـدى     ولم يبق عـذر للجهـاد فتمّم

ويعود اليه في قصيدة ثانية وقد استقرت بعض احوال الناس ، وتأيـد لهم ان المعركة الحاسمة وشيكة ، وان النصر واقع لا محالة ، ويحاول الشاعر ان يبرر تأخر النصر بالقدر الذي يختار الموعد ، ويدفع صورة التأكيد هذه عن طريق ربط الغزو بعصر الخليفة ، وان هذا التوافق فيه نظر ، وهي محاولات اراد الشاعر من ورائها ان يقوى عزم الخليفة ، ويثبت اقدامه في الاستمرار ، كما حاول الشاعر ان يشد بين نصر الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفـاء الراشدين في الوقائع التي خاضوها وبين فريضة الجهاد التي شاركت فـي الاندفاع ، وحققت الانتصار لما تبثه في نفوس المجاهدين من معان تحملهـم على التضحية والبذل وتدفعهم الى خوض غمار الحرب بلا تردد فيقول(١٤) :

بيمن رأيك يرجى النصر والظفر     وباهتمامك ينفى البؤس والحذر

---

(١٣) اسعد بن ابراهيم الاربلي . الديوان . مخطوطة الورقة ٥٨ نقلا عن كتاب الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ١٦٠ .

(١٤) اسعد بن ابراهيم الاربلي . مخطوط الورقة ٦٣ـ٦٤ .

وفي حماك ذمام الله متصل ... وفي يمينك سيف الحق مشتهر
فان تأخر قصد أنت طالبه ... فسوف يأتي بما يختاره القدر
وما يفوتك ما تبغيه من غرض ... وبرق عزمك في أنيابه المطر
ما سبب الله هذا الغزو في زمن ... انت الوزير به الا له نظر
لانه منحة ترجى جوائزها ... يوما ترجى به الحسنى وتدّخر
لولا الجهاد لما اضحى النبي به ... في كل واقعة يعلو وينتصر
ولا تسامى ابو بكر ولا عمر ... ولا غدا حيدر بالبأس يفتخر

ولم تمض سنة على غزوة اربل التي استبيحت بها المدينة حتى ذاعت اخبار غزوة جديدة يزمع المغول القيام بها ، لاستباحتها ثانية ، ولتأكيد قدرتهم على الغزو في اى وقت يشاؤون ، ولتهديد دار الخلافة ولاعلامها بقوتهم وسيطرتهم ، وتأخذ هذه الاخبار دورها ، فينتشر الرعب بين اهل المدينة المنكوبة ، وتعم الفوضى ، ويسود الخوف ، وتبدأ قوافل السكان بمغادرتها الى حيث المكان الامين ، وانى لهم مثل هذا المكان . ولابد ان يقف المتابع وهو يرى الصورة البائسة التي اصبحت عليها الدولة ، والواقع المؤلم الذى تعيشه هذه الجماهير وهي لا تعرف المصير ، وقد فقدت املها في الحياة ، وهنا يعدل المغول عن غزو المدينة ، ويستبدلون بغزوها اخرى ، وتستباح هذه المدينة ، ويخرج ابناؤها هائمين على وجوههم من شراسة الهجمة ، تاركين فيها من لايقدر على الهروب ، وتبقى تحت عبثهم فترة من الزمن . تعاني من مذلة الاحتلال ، وتقاسي من صرامة الغزاة ويجدون الطريق الى بغداد مفتوحا وجحافل المنهزمين من ابناء السواد يندفعون اليها اندفاع التيار ، فتختنق طرقاتها ، وتضيق بهم المساكن ، وتتضاعف اجرتها ، وتزداد احوال الناس المعاشية ارهاقا ، وهم في دائرة اخبار متضاربة ، واحوال يائسة ، ووضع نفسي متأزم ، يهزهم الخبر ، وترتجف بهم الكلمة ، وتنتزع الثقة منهم الرواية الباطلة وتدخل الى قلوبهم الفزع الحكاية المختلفة . في هذا الجو المضطرب

وفي مثل هذه الحالة الصعبة ، تتوارد اخبار المغول وهم يزحفون نحو بغداد.

وهنا ينبري الشعراء مرة اخرى للوقوف الى جانب هذه الجماهير التي كانت تنتظر الامل ، وتسعى الى استعادة الطمأنينة لتقف صامدة قوية ، ويتسابق الشعراء لهذه المهمة . محاولين استثارة العزائم ، واستلهام الاحداث، واستذكار ايام الانتصار وتتكاتف هذه الجماهير ، وتشتد عزيمتها ، وتندفع لمقابلة المغول الذين حاولوا ان يغزوا بغداد في عقر دارها ، وقد بلغ جيشهم عشرة الاف جندي ، وهنا يتزاحم الابناء الغيارى دفاعا عن شرف الارض ، وتتكاتف السواعد المخلصة ذودا عن الكرامة الحرة وتتعانق القلوب المؤمنة دفاعاً عن الكرامة الحرة وتتوحد الاراء الصائبة من اجل سيادة الامة ودفع الموقف الى الصورة التي تعيد الى هذه الجماهير ثقتها وقدرتها في النصر وتثمر هذه الجهود وتستعد جماهير بغداد ومن وقف الى جانبها لصد الحملة، وايقاف الزحف ، ورد الاعتداء ، ويكتب لهذه الجماهير الانتصار ويكتب لحملة المغول الهزيمة بعد ان عجزت عن تحقيق مطامحها ، ولابد ان يصاحب الواقع الجديد تطلع سياسي ، وتواكب الاحداث مشاعر قومية معبرة ، تحسست معالم الانتصار ، وتذوقت اهازيج النشوة بهذا الفتح ، ولعل الجانب النفسي الذى بدأت اثاره تتضح من خلال المعاناة الجديدة قد لون الحياة بالوان تفاؤلية حادة ، وعمق نوازع الانفعالات بما يحقق تأكيد القدرة، وشدّ الترابط بين عناصر الامة من اجل الحفاظ على الاصالة ، الى جانب الترابط الاجتماعي الذى الف بين القلوب ووحد بين المشارب ، ووفق بين المطامح ، لان المصير المشترك الذى احاط بابناء الامة جعلهم يدركون جسامة الخطر ، وفضاعة المأساة والنتائج المنتظرة اذا قدر لهذه الجحافل ان تقتحم المدينـة ..

ان هذه العوامل قد حفزت الشعراء الى تمجيد النحر ، وتخليد الثبات، ومكنتهم من خوض غمار المعركة وتسجيل احداثها ، وما تركته من آثار في

النفوس ، وكانوا يعكسون بذلك واقع الانسان العربي الذى استعاد لنفسه الثقة وقد استطاع عزالدين عبدالحميد بن ابي الحديد الشاعر المعاصر لهذا الحدث ان يعبر عن ذلك فقال[١٥] :

فرّجت غمرتها بقلب ثابت — في حملة ذعرى ورأى ثاقب
ما غبت ذاك اليوم عن تدبيرها — كم حاضر يعصى بسيف الغائب
عمر الذى فتح العراق وانما — سعد حسام في يمين الضارب

ويشارك الشاعر الصرصرى بن ابي الحديد هذه المشاعر فيؤكد قدرة هذه الجماهير على الوقوف بوجه الهجمة ، وصدها فيقول[١٦] :

جاءت بعصبتها الطغاة تروم من — دار السلام محطة تستشنع
فدنوا فصفّوا شر جيش ضلالة — بازاء جيش بالهدى يتدرع
وعووا عواء الكلب فوقسروجهم — وهم احق بوصفه ليروّعوا
فلقوا اسود الغاب لاتخشى الردى — والراسيات الشم لا تتصدع
فنجوا بليل لانجوا لو اصبحوا — لعفتهم للحرب ريح زعزع

فالصورة في ابيات الشاعر ما تزال موثوقة ، وقدرة الناس ما تزال تمثل التحكم في الموقف ، وان الامل الذى حققته اولية النصر ما يزال يشكل البداية لاسترداد الثقة ، والسيطرة على تحريك الموقف وفق الشكل الذى تريده الجماهير ، لانها خاضت تجربة ، وسجلت انتصارا ، واستعادت ارضا ، ودحرت خصما . وفي كل هذه المجابهات تتعزز القدرة القتالية ، وتتكاثف مشروعية الدفاع من اجل الحياة ، ويتعالى صوت الحق الذى اخلص الشعراء في تجسيده ، وسعوا الى تأكيده ، وآمنوا بانطلاقة الناس من اجل تحقيقه .

---

(١٥) ابن ابي الحديد . شرح نهج البلاغة ٨/٢٤٢ .

(١٦) ديوان الصرصرين المخطوطة الورقة (٥٦) نقلا عن المصدر السابق/١٦٨ .

لقد بقيت مشاعر الاحساس بالقوة تمد حركـة الشـعب لفتـرة من الزمن ، وبقيت قدرة هذا الشعب على الرغم من ضآلة الاندفاع نحو تأكيد الثقـة تتوق الى حسم الموقف مع قـوة الغدر الغازية ، وتتطلع الى الاندفاع من اجل تصفية الواقع ، على الرغم من اختلال التوازن بين القوتين • وبروز الفروق بين الكتلتين المتصارعتين • ولكن الجماهير كانت تشعر بان الصورة التي تحيط بها غير مستقرة وبان الواقع البائس اصبح لا يطاق ، فالامـور تجرى وفق اشكال غير مرسومة والبلاد يسودها الاهمال وتتنازعها الاهواء ويعمها الخراب • ولعل ابيات الشاعر التي كان يستشهد بها توحي بعمـق المأساة التي كانت تعانيها هذه الجماهير وفقدان الثقة التي اصبحت سـمة متميزة في هذا العصر[١٧] •

كيف يرجى الصلاح من أمر قـوم ضيعوا الحـزم فيـه أى ضيـاع
فمطـاع الكـلام غـير سـديد وسـديد المقـال غـير مطـاع

لقد كان الجو النفسي الذى تعيشه هذه الجماهير مهيئا للتراجع امام هجمة المغول ، وكانت صور الاحداث توحي بالتراجع ، ومنطوق المعارك يؤكد النتيجة التي تنتظر هذه المدينة الصابرة ، وتنتظر هذه الجموع التي اصبحت لا تملك من امرها ما يجعلها قادرة لرد هذا الاعتداء الواسـع ، ولكنهـا وجدت نفسها مضطـرة للمجابهـة ، فالعـدو يحمـل اليهـا الحقد والفواجع ، ويعد لها الموت ويدبر لابنائهـا الغدر والخديعة ، وتطبق اعداده الهائلة على اسوار المدينة ، وتحاول الانقضاض عليها ، وتدور معركة غـير متكافئة تنتهي لصالح القوى التترية ، وتتراجع بقية المحاربين الى بغداد حاملة اليأس والموت تاركة وراءها جثث قتلاها •• ويستجمع الخليفة امـره ، ويلتفت شمالا ويمينا لعله يجد منفذا يخرج منه ، أو منقذا يدفع عنه اخطار الاكتساح ، وقد اهتدى اخيرا الى ارضاء الغزاة بما يملك من اموال ، ولكن

(١٧) الفخري/٤٧ ، الحوادث الجامعة ٣٢٢ نقلا عن الشعر العربي ص/١٧٦ •

الحقد كان اقوى من المال ، واعنف من الاستسلام الهادىء ، وفي غمرة مؤامرة خبيثة ، واحتيال مدبر ، واتفاق مسبق يتقدم موكب الخليفة يحف به ابناؤه واعيانه ليعلن تسليم المدينة الخالدة • ولم يرض هذا غرور الغازى المتمكن ، ولم يكبح جماح جبروته الدامي فطلب من الخليفة أن يأمر سكان المدينة بوضع اسلحتهم ، وترك منازلهم ، والخروج الى المغول لاستقبالهم ، وتستجيب الجماهير لهذا النداء البائس ، وتستسلم لمشيئة القدر الظالم ، فتخرج عزلاء من السلاح ، مجردة عن كل ما يدفع عنها غدر معتد ، أو اعتداء متجبر ، أو ضربة مستعمر ، فكانوا افواج رعب ، وزمر هلع • وقوافل استسلام بريئة • فاستقبلتهم سيوف التتر ، وتوالت عليهم اسلحة الغدر ، واندفعت نحوهم النفوس المتعطشة الى الانتقام ، فاستشهدوا ضحية غدر ، وقتلوا نتيجة تآمر ، وبعدها اندفعت جحافل المغول نحو المدينة الصابرة ، وكان ما كان من مآس وفواجع •

ان الشعر لم يترك هذه المأساة وما احاط بها من اساليب ، ومن شارك في وصولها الى مرحلتها البائسة فقد عبّر الشعراء عن ذلك من خلال القصائد التي دخلت ، واشاروا فيها اشارات تدل على ملامح الصورة التي كانت تبدو لهم ، والوان الاحاسيس التي كانت تبرز ، وكانوا جريئين في تحديد المسؤولية ، وصريحين في تثبيت الاسماء ، وصريحين في تشخيص المسببات التي اودت بالامة ، وجرت على المدينة الصامدة فواجع الانتهاك •• فهذا شاعر يرى رأيا واضحا ، ويبين اسبابا موجبة للسقوط فيقول :

ان الخليفة عبدالله لم يك ذا    رأى ولا مستقيم العقل والسير
ظن المصلى مصلى الطير حين تلا    ووتره وترا والزمر كالزمر
لا المال دارى به اذ كان ينفعه    ولا استعد لهم بالعسكر المجر

فهذا حديث صريح تناول الرأى الذى عولجت به هذه المسألة ، ويبدو أن الشاعر قد جرد الخليفة منه ، ونعته بعدم استقامة العقل والسيرة ، وهي

اسباب لم يذكرها الشاعر مجردة وانما حاول ان يقوى هذه الحجة باسباب عرفت عن الخليفة ، وقد انصرف لها ، كما ان المال الذى كان يجب ان يداري به نفسه ، ويصلح به شأنه ، ويستخدمه من اجل اعداد السلاح ، وتهيئة الجيش ، قد اهمله وتركه ، وتصرف به تصرفا لايمت الى هذه الامور بصلة . فالشاعر له وجهة نظره ، وله رأيه الذى علل به السقوط، وهو رأى لابد ان يمثل مجموعة آراء كانت مطروحة ، ووجهة نظر كانت سائدة آمن بها البعض ، وجاهر بها البعض الآخر ، ولكن الامور كانت تجرى وفق اشكال بعيدة عن هذا التوجه فتحملت الجماهير خطل هذه السياسة ، ووقعت في قبضة التدمير والهلاك ولكن الشعر والشعراء كانوا جريئين في المجابهة ، صريحين في الالتزام ، مخلصين في تحديد المسؤولية التأريخية ، وهو موقف مشهود ، وموقع له اهميته في دراسة الحدث وفي اعادة النظر في المقولات التي الحقت بالعصر وبشعرائه ..

ويتعالى موقف الايمان بالحق ، وتتحدد معالم الصورة الاساسية التي اخذ الشاعر بها نفسه ، وتتخاذل جموع المستضعفين ، وتبدو ملامح المهادنة وتندفع عناصر الخيانة التي تريد بالامة الفناء لتزيين الموقف المهزوم وتحبيب فكرة الاستسلام وتجد الفكرة لدى الخليفة قبولا وهو غير قادر على المجابهة فتذل النفوس وتقهر ارادة الجماهير وتساق جحافل الناس لتعلن الولاء للغازى المتجبر وترتدى قضية الشعب ومصير الامة رداء الهدنة الكاذب والجماهير تدرك ضعف هذه الحجة ، وتستشعر ضعف الموازنة بين غاز متجبر وسلطان متخاذل ، فيعبر الشعر عنها باحساس الشاعر الواعي حيث يقول :

حتى اذا حنقوا من فعله ورأى    تهدّم السور والنشاب كالمطر
وافى يهادن ليث الغاب واعجبا    أهدنة وهو بين الناب والظفر

ان صورة الاغتراب التي لازمت الجماهير بعد سقوط بغداد لم تكن

بعيدة عن حركة الشعر العربي عبر امتدادها الطويل ، وخلال مسيرتها الانسانية • فالشاعر العربي كان يعاني الغربة في ارضه لفقدان الصلة بينه وبين من يعيش معهم ، وقد خلف لنا هذا الشعور سيلا من الشعر ، لان الشعراء وقفوا منه عند قضية العصر الراهنة ، قضية الوجود الانساني ، ومن هنا كان نعي الطلل الذى اقفر والارض التي عفت رسومها ، وزالت معالمها والصمت الذى احاط بكل جزء من اجزائها ، والموت الذى اطبق على جوانبها ، وأمات فيها كل شيء ، كانت هذه الصرخات تتعالى بعد كل عاصفة تجتاح حياته لانها اصبحت تمثل انتفاضة اليأس وتجسد رؤياه وانها قضية ارتبطت بمشاعره فاثارت له القلق ودفعته الى اكتشاف ذاته وهو يشاهد الاحداث اليومية الرهيبة التي حف بها اليأس واحاطت بها العزلة وضربت عليها الذلة والمسكنة ، ولعلها كانت تعني معاناة الجماهير التي كانت تتوق الى النضال وتسعى الى الهدف خلاصا من الواقع المرير • الا انها كانت تضيع في متاهات الاغتراب ، وتذوب في زحمة الاحداث العنيفة ، والنزاعات المريرة والخضم الكبير من المشاكل الجديدة التي خلقتها جحافل الغزاة وهي تدمر المدينة ، وتستبيح ترابها الزكي وتحرق حضارتها العريقة •

لقد استطاع الشعر في احداث بغداد ان يرسم لوحة الكفاح العربي ، ويجسد طموح الجماهير رغم حالة اليأس التي كانت تبسط ظلها الثقيل عليها ، ورغم حالة الاغتراب التي كانت تبدو ملامحها في كل جانب انساني فان هذه الجماهير كانت تحاول ان تتخطى حدود الحياة المجردة وتتجاوز الواقع الضائع الى واقع تتحول فيه الصورة البائسة الى صورة عزم ، وفي الوقت الذى كانت اوساطا كبيرة تعيش الغربة عن الحياة ، وكان اليأس يموت في اعماقها وكان الاغتراب يقتل كل رغبة جامحة ، كانت اصوات العزم ترتفع ، وكانت عبارات اليأس والاستسلام تموت على شفاه المتخاذلين•

ان ظاهرة الاغتراب تمثل نزوع النفس الانسانية الى كل ما تجد فيه

الراحة ، وهي ظاهرة لازمت البشرية ، فعاشت لحظاتها البائسة ، وعاصرت ازماتها الحادة ، وتحولت في كثير من الاحيان الى صور مفزعة ، واشكال بائسة عبر عنها ابطالها بتعبيرات حادة وقاسية ومؤلمة •

انحديث الاغتراب في احداث بغداد بعد سقوطها يمثل اتجاهين، الاول يعكس حالة الرضوخ لحالة الاستسلام، والخضوع لواقع الاحداث، والانغماس في اشكال البؤس الذى اصبح الظاهرة المتميزة بعد انهيار الخلافة التي استمرت قرونا طويلة ، وسقوط المدينة التي ظلت مركز اشعاع ومنطلق حضارة ، ومرتكز ثقافة انسانية زاخرة ، واندحار جيش بقيت اصداء فتوحه تستحوذ على اجزاء كبيرة من التاريخ • وهذا الاتجاه الذى تبنته اوساط معروفة ، وخضعت له جموع شخصتها الجماهير ، والثاني اتجاه آخر يرفض حالة الاغتراب ويتجاوز حدود الخنوع ، ويعبر ابعاد الاستسلام التي ضربت باكنافها العريضة فوق مساحات بشرية متناثرة • وكان هذا الاتجاه يلوح في اصوات الرفض العربي الذى انكر الهزيمة ، وقاوم الحالة النفسية المتخاذلة•

ان الاتجاه الاول كان يتنامى في نفوس الشعراء لانه اقرب الى النفوس التي شعرت بالضياع فهزتها النكبة وادركت المأساة ففاضت الما وحسرة ً • وتساقطت لوعة وبكاء وكأنها كانت تريد التعبير عن الوفاء للارض التي عرفت وجود هذا الانسان والحب لهذه الجموع التي تساقطت في اروقة المدينة وفي ظلال اسوارها الحزينة وعند حافات طرقها المفجوعة • ولابد ان يكون الالم حادا ، والاحساس مريرا والتداعي محزنا ومفجعا • ولعل قصيدة الشاعر شمس الدين الكوفي التي حاول ان يرسم فيها واقع الاغتراب الذى كان يعانيه وتعانيه معه الجماهير تعد النموذج الواضح لذلك حين يقول :

| | |
|---|---|
| عندى لاجل فراقكم آلام | فالام أعذر فيكم والام |
| من كان مثلي للحبيب مفارقا | لا تعذلوه فالكلام كلام |
| نعم المساعد دمعي الجارى على | خدّى الا انه نمّام |

ويذيب روحي نوح كل حمامة | فكأنما نوح الحمام حمام
ان كنت مثلي للاحبة فاقدا | أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الضاعنين ونادها | يا دار ما فعلت بك الايام

ان الصوت حزين ، والصورة مفجعة والنفس صابرة وصدى التأثر يوحي بالاحساس القاتل الذى كان يخنق صوت التحدى ، ويلف رنة التمرد وقدرة المجابهة فالشاعر يدرك الحالة التي كانت عليها المدينة وقد ارتفعت في شعره اصوات الاموات واشكال الخراب ورنين النواح والفقد واللوعة وكلها موجات مؤلمة ، ومشاعر مفزعة استطاعت أن ترسم اللوحة البائسة وتحدد معالم الصورة الشاحبة ، وهي لوحة كانت تبرز فيها احاسيس الناس الذين اغرقتهم المأساة فانطلقوا في التعبير عنها وتعالت في اطراف احوالها خطوط الفجيعة فانصرفوا الى بؤسهم يستمدون من احواله ما يعينهم على استكمال الواقع •• ان الرمز الذى يختفي في ظلال ابيات الشعر واخبار التاريخ وملامح الناس وسلوكهم يدل على الصورة الدموية القاتمة وحالة الاغتراب الصامتة التي عاتنها المدينة وجماهيرها وان مأساة المدينة تركت سيلا من الشعر وسيولا من الاحاسيس وهي في حد ذاتها تمثل سيول المشاعر الانسانية التي ظلت تغني المدينة ، وبقيت ترثي كل درب من دروبها ، وتتحدث عن كل خصلة جميلة من خصالها ، وهي قصائد محزنة •

وكان شمس الدين الكوفي الشاعر الوفي الذى ظلت عناصر الوفاء الصادق تجوب في نفسه ، وبقيت اصالة الحس الانساني تتحرك في قلبه العاشق قصائد واناشيد وترانيم •• من اولئك الشعراء الذين تحدثوا عن النكبة حيث يقول :

ان لم تقرح ادمعي اجفاني | من بعد بعدكم فما اجفاني
انسان عيني قد تناءت داركم | ما راقه نظر الى انسان
يا ليتني قد متّ قبل فراقكم | ولساعة التوديع لا احياني
مالي وللايام شتت شملها | شملي وخلاني بلا خُلان

# الالتزام والاغتراب

كان بودى ان اقف عند ظاهرة الاغتراب التي برزت من خلال المشاعر وقفة أطول وكان بودى ان احلل اسبابها التي تمازجت فيها العوامل ، وتجمعت في اسباب تكثيفها الدواعي وكان من حق هذه الظاهرة ان تدرس مجتمعة ، وتحلل واقعا واحداثا ، لانها اصبحت تمثل حالة ملازمة وتشكل ظاهـرة مصاحبة للوجود والواقع والنفس ، فالشعور بالاغتراب اصبح احساسا شعريا معروفا عرفه الشعراء واستشعروا به وادركته اللغة وحللت اجزاءه فجاءت الغربة بمعنى النزوح عن الوطن والاغتراب والتغرب كذلك ، وفي الحديث ان النبي ( صلى الله عليه وسلم ) سئل عن الغرباء فقال الذين يحيون ما امات الناس من سنتي ، وفي حديث آخر ان الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء • اي انه كان في اول أمره كالغريب الوحيد الذى لا اهل له لقلـة المسلمين يومئذ ، وسيعود غريبا كما كان •• وقيـل تفسيره غير هذا ، وقال ابو تمام في مدح ابي سعيد محمد بن يوسف •

غربتـه العـلى عـلى كثـرة النـا   س فاضحى في الاقربين جنيبـا
فليُطل عمره فلـو مـات في مـر   ومقيمـا بهـا لمـات غريبـا

فالممدوح كما يقول الشاعر غريب في الناس على الرغم من كونه واحدا منهم ، فلو مات بمرو لمات غريبا لعدم وجود من يشبهه في الناس جودا وعطاء. وهذا يطابق معنى الاغتراب الذي يستخدم فيه هذا المصطلح والذي يعتقد البعض بانه جديد على العربية ، ولدته الثورة الصناعية وحملته ظروفهـا القاهرة ، والاغتراب مـع النفس اصبح حالـة وجدانية طاغية ، فالانسان العربي الذى شعر بالضياع بعد توالي الاحداث ، وأدرك حالة الذهول التي اصبحت ظلا ملازما، ووقع في سورة اليأس التي استحوذت عليه فبدأ يعود الى نفسه ليراها من خلال الاحداث ، ويرجع الى ذاته ليتلمس واقعها من ثنايـا التماس المباشر مع الواقع البائس .. لقد حاول الاديب العربي بعد سقوط بغداد ان يفتش عن الصورة الجديدة والفكرة المبدعة والانسان الذى يستطيع تجاوز حدود الواقع ، ولكنه كان يقع في دائرة السقوط التي كانت تلف كل الحالات ، وتحيط بكافة المجالات ، وقد شاركت قسوة الاحداث في تعميق التصور ، واكدت شراسة الهجمة في تأكيد جسامة الموقف .. ومن الطبيعي ان يتعالى الشعور بالانفصام ، وتتسع الهوة بين الطموح والواقع وبين الصورة التي ظلت ماثلة طوال قرون والصورة الساقطة التي انهار من خلالها المجد وتداعت اطراف الشموخ التي ظلت قائمة في البناء الوجودى للانسان العربي.

ان هذا الابتعاد في الوجدان واتساع المدى الزماني في حالات اليائس ادت الى حالات ضائعة ومواقف متأرجحة ، ومرتكـزات غـير مستقرة في النفس وقد انعكست الصورة في الواقع الادبي شعرا ونثرا وبرزت خصائصها

بشكل متميز ، ولعل هذا الموقف الضائع وشعور الشعراء بالهوة الفاصلة بين الماضي والحاضر الميئوس قد دفعهم الى مرحلة التأزم النفسي وحالة الاغتراب الحادة .. التي تركت بصماتها بوضوح فوق سطور الادب ، وجعلته ادبا معبرا عن اللوحة الحياتية التي عاشتها الامة في اعقاب نكبتها ، وتجرعتها بعد شهود اعمدتها وهي تتساقط في ساحة الصراع القومي والفكري .

ان مرحلة الاغتراب النفسي لم يكتب لها الاستمرار ، وان وقوع الانسان العربي فيدائرة الانحدار في هذه المرحلة لمتجعل منه انسانا مستسلما لمشيئة الحدث ، ولا مقتنعا بالواقع الذى فرضته عليه احداث الغزو . وانما ظلت اصداء نفسه المتطلعة نحو العودة الى الصورة التي كان يطمح اليها تتردد في كثير من جوانب حياته ، وكلما وجد الفرصة سانحة لابرازها انطلقت مجللة بغشاء واقعه المرير ، وارتسمت في اشكال علاقاته التي تتحدد في النماذج الادبية المطروحة .

لقد وضعت احداث بغداد وما اعقبها من تمزقات واثير حولها منتكهنات حداً لكثير من القيم وتركت اثرا في كثير من الاشكال والعلاقات لانها كانت تمثل الهزة العنيفة التي تأرجح فيها ميزان الوقائع وتخلخل في خضمها المفهوم الحضارى للدولة .

ان هده المكونات وهذا التصور قد تركت اثارها الواضحة في صيغ التعامل الادبي وطبعت بطبائعها واقع العلاقات الانسانية التي سادها التأثر وتوقفت في تحديدها صور التعتيم الاجتماعي والنفسي وكان الاديب صورة هذا الاحساس ومرآة واضحة للتغيير الذى طرأ ومن الطبيعي ان يتسم نتاجه بهذه الصورة ، ويفصح تعبيره عن اشكال العلاقات الانسانية التي ظلت رهينة هذا التغيير ..

ان الدراسات الادبية التي حاولت الوقوف عند ادب هذه الفترة الممتدة حوالي ستة قرون تقريبا لم يحاولوا تحليل ادبها ، او استقصاء ظروفها ، او تحديد ملامح انسانها . أو تقييم نتاجها الادبي تقييما يتفق معظروفها السياسية والفكرية والموضوعية ومن هنا كانت الاحكام سريعة ، والملاحظات عابرة والنتائج غير محكمة من حيث الدراسة او التحليل فظلم العصر وظلم انسانه وظلم النتاج الفكري والحضاري الذي قدمه هذا الانسان واطلق عليه من الاقوال ما هو بعيد عنه وقيلت بشأنه اراء لا تتفق مع واقعه فهو عصر الانحطاط والجمود والضعف والفترة المظلمة وهو عصر التقليد والتبعية وعصر الانحسار الفكري والحضاري ، اصبح فيه الادب بضاعة ، وتحول الانسان فيه الى آلة تستجيب لكل حدث ، وتلبي كل رغبة ، وتندفع وراء كل تيار ، ومن الغريب ان اصحاب هذه الاقوال لم يناقشوا تلك الاقوال ، ولم يحللوا تلك الاراء ، فالشعب العربي هو الشعب الذى قدم الى الحضارة ما يغنيها ، ورفد الفكر بما جعله قادرا على الاستيعاب والمعالجة والقبول وان هذا الانسان هو الذى استطاع ان يقف بصلابة امام تحديات العصر ، ويجابه حملات المغول والتتر وكل الامم الغازية التي حاولت مسخ وجوده واستباحة ارضه ، واقتلاع جذوره ، وان هذا الانسان هو الذى قدم من التأليف في مختلف مجالات العلوم ما اغناها عطاءا وابداعا وتحليلا واستطاع ان يغير الوجه الذى حاولت قوى الانقضاض ان تفرضه على واقع الامة . ان هذا الانسان لم يتغير وان فكره وابداعه ظلا عنصر نماء وخصب يرفدان الفكرة والحضارة بما حقق لها التقدم والتطور ..

ان احكام التدهور والانحطاط والفترة المظلمة التي ظلت تشيع في صفوف المثقفين الاوائل وبقيت تأخذ حجمها الكبير في تأليفهم ، كما بدأت تنتشر على السنة الاجيال العربية التي بدأت تعود الى دراسة تاريخها وتحليل ادبها واستيعاب فكرها ، وكانت هذه الاجيال تردد مع المرددين وتضيف اليها

نعوتا اقوى واشد حتى اوشك ان تختزل من تاريخ الامة حقبة طويلة ، وتطمس من سلسلة عمرها مرحلة غير قصيرة ••• الى جانب التأثير النفسي الذى تتركه امثال هذه الانطباعات في نفوس الناشئة وتثيره من تساؤلات في تقرير الحقائق التاريخية •

ان تأثير هذا الانطباع لم يقف عند حدود النعوت الظالمة او الاوصاف غير الموضوعية وانما كان يمتد الى اصطناع الحدود الفاصلة ، ووضع الحواجز الغليظة التي تحول دون ولوج باب هذه الفترة والوقوف بوجه الدراسات التي كانت تحاول ايضاح الحقائق العلمية والفكرية ، بحجة ضآلة الحجم الثقافي ، وضعف المستوى الفني ، وتدهور الحالة السياسية •

ان وحدة الفكر العربي في تلك الفترة وامتداد ابعاد الحضارة العربية التي كانت تشع في كل بقعة وتلوح فوق كل معهد علمي ، وتنطلق من كل فكر ثاقب تمثل الوطن العربي الذى استوعب الثقافة ، والشعب العربي الذي استطاع هضمها ، وتمكن من الاستفادة منها وقدر على طبعها بطابعه المتميز ومن هنا كانت بغداد او دمشق أو القاهرة تشكل المراكز الحقيقية للاشعاع الفكرى ، وتمثل الصور العلمية التي تجمعت في رحابها جموع العلماء ، والتقت في رواق مساجدها ومعاهدها خلاصة الفكر العربي المبدع وهي جموع تؤدى مهمتها في كل مجال وتخوض تجربتها في كل حقل ، مستهدية بتجربتها القديمة ومستمدة عناصر خلقها من تراث حضارى مشرق ، وتجربة انسانية موجهة ، تسعى من اجل كرامة الانسان ، وتدعو الى خلق المجتمع الانساني المرفه وفق عقلية سمحة ، وخلق قويم وتقاليد قومية محمودة ولعل انصراف الباحثين عن هذه الفترة وانشغالهم عن البحث في حقيقة أحوالها وأوضاعها وابتعاد الدارسين عن الخوض في استجلاء افكارها تشكل الخط الواضح في اهمالها والتعجل في المعالجات التي وقفت عند بعض جوانبها • وقد زاد ذلك في تعميق صور الجهل بها ، واكد حقيقة الضعف الذى الصق بدراستها • وظل

المثقفون والدارسون ومؤرخو الادب يمرون بهـا مرورا سريعا لا يلوون على كنوزها ، ولا يكلفون انفسهم عناء تقليب صفحاتها • ان اول ما يمكـن ملاحظته هو سعة الفترة ومجالها الفسيح وامتداد الزمن الذى تأخذه في البعد الزمني وقلة ما كتب عنها وما طبع من مصادرها ، وحقق من مخطوطاتهـا • وبين هذين العاملين تتجلى الظلامة الاولى ، وتتضح الهوة التي تفصل بين هذه الفترة وبين ما قدمه الباحثون من نتاجها ، او حققه المحققون من كنوز فكرها وادبهـا ••••

ان الفترة الممتدة بين سقوط بغداد ودخول نابليون لايمكن ان تكون فترة خاملة في حساب الحقائق العلمية ولا يمكن ان تكون مرحلة ضائعـة ما دام فيها فكر يعطي وانسان يتحرك وتاريخ يسجل وحركة تتغير وعمليـة علمية ولابد ان يكون الموقف حاسما وحـادا بالنسبة لكـل الاجتهادات الاعتباطية التي اقحمت نفسها في خضم الفترة واعطت الحق لاحكامها لتتصدر في تقرير مصير الامة ، وايقاف حركة استمراريتها في العطاء والتغيير والبناء، واذا قدر لبغداد ان تسقط في زحمة تآمر خياني مفضوح بعد هجمة التتر ، واذا قدر لشعبنا العربي في العراق ان يتعرض لحملات ابادة قاسية من جحافلهم الغازية واذا قدر لينابيع الثقافة في قطرنا العراقي ان تتوقف نتيجة هذا التآمر، فلا يعني هذا ان الحياة الثقافية والفكرية في بقية الاقطار قد توقفت ولايعني ان الشعب قد جفت ينابيع ثقافته وانتهت مرحلة عطائـه وسكنت اصـوات ابداعاته وخلقه واذا قدر لنا ان نذهب مع الذاهبين في قبول فكرة التدهـور والانحطاط في شكل من اشكالها او جانب من جوانبها او زاوية من زواياها الا اننا لا يمكن ان نذهب مع اصحاب هذا الرأى الى ابعد من هذا بحيث نخضع الفترة برمتها الى هذا الحكم ، او نوصم احداثها بمقولات الباحثين الذين الصقوا بها مختلف الاوصاف غير الموضوعية •

ان الفترة تميزت بتركيز الثقافة العربية والاسلامية وامتداد جذورهـا

وتعمق اصولها بسبب استقرار المقاييس وترسيخ قواعدها ووضوح الابعاد الادبية التي كانت تدور فيها بحيث اصبحت مناهج البحث مكتملة وتقاليد الدراسة واضحة الى جانب مرحلة التجمع والاستكمال التي اصبحت صورة من صور العصر وطابعا متميزا ، اما التاريخ فقد استقرت مدارسه ، وتعددت فروع دراسته وجمعت اشتات اخباره حتى اصبحت مصادره من اغنى المصادر • وكذلك الامر بشأن الشعر والنثر واللغة والادب والعلوم المتنوعة فقد اصبحت مجالاتها ميادين بحث ، ورحابها مواقع درس ، ومدارسها دور علم ومعرفة ، يتقاطر عليها العلماء • وينزل في ساحاتها ذوو الفضل والمعرفة ولعل اسماء ابن البيطار المالكي الصيدلي المعروف ، وابن خلدون الاجتماعي وابن مالك النحوى ، وابن سعيد الغرناطي المؤرخ وابن منظور اللغوى• وغيرهم من العلماء قد استطاعوا ان يتصدروا قافلة التقدم العلمي بجدارة ويرفعوا لواء المعرفة بقدرة فائقة ، ويرسموا بوضوح الخط الحضاري والثقافي لمسيرة الامة التي بدأت تعود الى تراثها مستقرأة ، والى علومها جامعة ومصنفة والى تاريخها محللة ومستنبطة ، والى لغتها مستكملة وفاحصة •

ان منطق الاحداث يدعونا الى استقراء العصر ، واستقراء ما كتب عنه لنستطيع ان ندلل من خلال التحليل والمناقشة على ما وصم به العصر من عقم أو انحطاط او توقف حركته الفكرية ان كان ذلك حقاً صورة من صور العصر أو ميزة من ميزاته والا فان كل الاحكام ستبقى غير علمية ما زالت قائمَةً على النقل وخاضعة للاقوال غير المدروسة •

ان هذا الاستقراء لم يتم ، واننا لا نملك بحثا واحدا يستطيع ان يؤكد هذه الامور او يحقق مقولة انحطاط العصر ، او توقف حركته ، واننا ما نزال نفتقر الى الدراسة التي تستطيع ان تضع خصائص العصر في مواضعها ، او ترسم اتجاهات الحركة رسما يحدد الواقع الثقافي ، او يكشف عن الصفات الحقيقية لطبيعة هذا العصر على الرغم من ان النظرة الاولى لاحداث العصر تؤكد ان العلماء وكل المختصين في البناء الحضاري كانوا يسعون الى الحفاظ

على التراث العلمي من خلال الحفاظ على الثروة الفكرية والحصيلة الحضارية التي شاركت الاجيال الاولى في خلقها او ابداعها وجعلها قادرة علـى اداء مهمتها ، كما كانوا يسعون الى تناول هذا التراث تناولا جديدا واغنائه بما استجد واضافة ما أصبح هو بحاجة الى اضافته وهذا ما أعطى العصر روحا جديدة ودورا بارزا في تقييم اهميته ومن هنا كانت الخطوات التي اتبعت في المواصلة الفكرية تأخذ بعدين كبيرين وطريقين مهمين بعد أن شغل بمهمة الاحتفاظ بالحصيلة الفكرية واعادة تقويمها ، وسلامة عرضها واستيعاب قدرتها وبعد ان انصرف الى التجديد والاضافة وقد اهتم بالجانب التكميلي والتجميمي الذى استطاع ان يحصر بموجبه الجهد ويوفق الى الاستكمال ويصل الى النتيجة التي اكدت وقوفه عصرا فريداً ونموذجا متميزا بين العصور اما النماذج فهي حقائق يجب ان تعاد دراستها لوضع هذه الابعاد موضع التحقيق ، ان هذه المحاولات لا يمكن ان تكون بعيدة عن الوصول الى الحقيقة التي تؤكد ان العصر لم يكن عصر جفاف وان المرحلة لم تكن مرحلة انحطاط وتدهور وان الفكر العربي الخلاق لم يتوقف عن العطاء وان السمات الانسانيـة التي قدمتها العقلية العربية من خلال قيمها وممارساتها لم تمت في زحمة الاحداث ولن تكون صورتها باهتة او الوانها حائلة او ارضها مقفرة خاوية ..

ان الحرص على التراث في هذه المرحلة دفعهم الى التدقيق في روايته والتحقيق في اسانيده وتحليل مضامينه والحرص على متابعة نسخه واصوله ولعل ظاهرة الشروح والتفاسير والموسوعات وكتب التذييل والتكميل التي شملت كتب التاريخ والادب والنحو والتفسير والبلاغة وكل العلوم تمثل الصورة التي اصبح عليها التأليف وسارت في مسارهـا عمليـة التجميع والاستكمال وقد حملهم هذا التدقيق على استكشاف المعاني والاهتداء الى الجوانب غير الواضحة والبحث من خلال الموضوعات الصغيرة في عـوالم جديدة وتركت في موسوعات الفترة اثرا جديدا لم تعرفه العصور المتقدمة .

ان محاولة الوقوف عند كل موضوع ومحاولة مراجعة الكتب التي ألفت فيه او دارت حوله ، ومحاولة مراجعة الطريقة او المنهج الذى اتبع في التأليف تشكل محاولة واسعة في هذا المجال ، وتمثل صورة كبيرة لا يمكن الاحاطة بها من خلال هذا الموقف ولكنني اشير الى البحث التاريخي وحده والمنهج التفصيلي الذى اخذ المؤرخون به انفسهم لأؤكد ان العصر كان غنيا بعطائه ، وفيرا بنتاجه جديدا في اضافاته وتناولاته ....

لقد امتلأ العصر بعظام المؤرخين امثال السمعاني والذهبي والسخاوى والسبكي وابن خلدون وابن تغري بردي والقلقشندي والنويري ... وغيرهم ممن شاركوا في تسجيل الاحداث وحللوا وقائعها ، وتناولوا اجزاءها تناولا يوحي بقدرتهم التحليلية وتميزوا بشخصياتهم التي منحتهم الصورة الجديدة ولم تأخذ كتبهم صورة واحدة من حيث التناول فهم يمثلون اتجاهات في الطريقة فمنهم من عرض لكتابة التاريخ مسردا ابتداء من بداية الخلق حتى العصر الذي عاشوا فيه ومنهم من تناول التاريخ على السنين ومنهم من حاول ان يكتب التاريخ من خلال الدول ومنهم من كتب التاريخ من خلال شخصياته او الاسر التي تحكمت فيه وهم في كل هذه المناهج لا يغفلون المجتمع ولا يبتعدون عن تصوير احاسيسه او معالجة مشاكله وان كانت هذه المعالجات سريعة في بعض الاحيان او سطحية ، ولكنها تكشف عن معاناة الانسانية التي تعيشها هذه الطبقات والوضع الاجتماعي والنفسي والاقتصادي الذى يتحكم في توجيه الاحداث .

ولعل مراجعة اولية لكتب هذه المجموعة من مؤرخين تعطي الدليل الاكيد للمرحلة التاريخية التي تمثلها هذه المناهج . وما يقال عن التاريخ يقال عن الادب واللغة والنحو والعلوم التي اتسعت دائرتها وبرز في مضمارها من استطاع ان يفرض نفسه على احداث الفترة بشكل واضح ...

ان طبيعة العصر الادبي الذى اعقب سقوط بغداد عرف بتنوع ثقافته

وتعدد موضوعاته وهو تنوع لم يألفه الباحثون فالكتاب الواحد يضم ثقافة واسعة ويحوي ابوابا متنوعة ويعالج موضوعات مختلفة وهذا يعني ان المؤلف اصبح موسوعة في تآليفه يعرض للادب والتاريخ والنحو والشعر والفلسفة والتفسير والحديث . الى جانب الموضوعات الاخرى التي اختصت في ابوابها وتحددت في فروعها وتمثل هذا الاتجاه في كتاب الغيث المسجم وسرح العيون وديوان الصبابة وشرح المقامات للشريشي والكشكول للعاملي وغير هذه الكتب او الوقوف عندها . ان هذه الطبيعة جعلت كتب الفترة بعيدة عن ايدى الناشرين لصعوبة تحقيقها ، ووعورة نشرها وخشية الخوض في غمار دراستها بسبب هذا التعدد في التناول وقد ادى ذلك الى الجهل في محتوياتها ، والانصراف عنها والاكتفاء بما قيل بشأنها من اقوال .. ويكاد يكون هذا السبب وما اتسمت به كتب الفترة من سعة في التأليف وضخامة في الاجزاء وتناول في امتداد العصر سببا اخر في تجنب الولوج في احداث الفترة والاكتفاء بما تردد من احكام حولها وقد تكون هذه الاشارة مؤشرا حقيقيا في تقرير الحكم ، وسببا منطقيا من اسباب جهل الفترة ومحاولة تجنبها وبالتالي جهل العصر الذى امتد زمانا ومكانا ، فالمرحلة تشكل اساساً في ربط التراث العربي قديمه بحديثه ، اصيله بمبتكره ، ومن الضرورى ان تحقق الدراسات الجديدة مضامين هذه المرحلة بما يؤكد عمق ثقافتها ، وأصالة فكرها ، واهمية مرحلتها .

ان المرحلة تدعونا الى توجيه الاهتمام لنشر كنوز هذه الفترة وتحقيق كتبها ودراسة مصنفاتها بما يهيء هذه الكتب والمصنفات لتكون في ايدى الدارسين ، وعندها تخصص الدراسات لتقييم الفترة تقييما علميا ، وتعرف المصنفات التي استطاعت ان تستوعب علوم الفترة ، وتحدد ابعاد العمل لتشمل العصر برمته وتمتد الى الوطن بكل اجزائه ومناطقه، وتتسع لتشمل العلوم باصنافها والفنون بفروعها وهذا امر لا تضطلع به جهة ولايعهد امره الى

مجموعة وانما هو جهد كبير يقتضي اعداد خطة كاملة يشرف عليها اساتذة وباحثون وتتعاون في احيائها اقسام ومعاهد ومراكز علمية ، تعتمد الاهتمام بالعصر وبكل ما تركه من اثـار .

ان استمرانا على ترديد لفظة فترة التدهور والانحطاط ، واغراقنا في الصاق التهم بها ، واصرارنا على تسميتها بالفترة المظلمة ، يدلل على الاجحاف الذى لحق بالفترة ، ويؤكد الجور الذى شمل اجزاءها وطغى على كل ما قدمته من نتاج .. وان بقاء هذا الاستمرار دون مناقشة ، وتأكيد هذا المنطق بـلا حجة سوف يجر على الامة ما يضعف ايمانها بقدرتها ، ويزعزع ثقـة ابنائها بقدرة امتهم ، وفيه من المخاطر والسلبيات ما يرسخ في النفوس هذه المفاهيم.

ان ذلك يحملنا على اعادة النظر كلا أو جزء في كل التسميات التـي اطلقت وتطلق فالعصر كما اشرنا هو عصر ازدهار وفي كل جوانب الحياة وعصر انطلاق في كل اصناف المعرفة ، وعصر تجديد واستكمال في كثير من العلـوم التي لم يكتب لها ان تدرس، ولم يقدر لكتبها ان تظهر ، ولم تنل من اهتمام الباحثين والدارسين بما يؤكد ان صورة العصر غير الصورة المألوفة ، وان واقعه العلمي هو غير الواقع المرسوم في اذهـان الدارسـين ، وان الحصيلـة العلمية التي زخر بها العصر كانت حصيلة وفيرة تستطيع ان تمسح عن العصر الوان ظلامته لو قيض لها الباحث المتمكن والدارس المتتبع ، وتسكت اصوات الباطل التي ارتفعت لو اهتدى اليها المحقق البارع .

ان الادب العربي طوال هذه المرحلة ظل ادبا يعبر عن الطموح ، وظـل يلازم الصورة التي اعتاد رسمها من خلال نماذجه ، وظل يؤكد التزامه في كل غرض يعالجه ، او معنى يتطرق اليه ، او اسلوب يستخدمه من اجل غايـة منشودة ، ولا يمكن ان يكون الادب في هذه المرحلة قد انقطع عن الاحداث الكبرى ، او تخلى عن المواكبة القومية التي كانت تتحسسها جمـوع الشعب العربي فكانت اصوات الشعراء تتعالى في كل قطر ، واناشيدهم تتلى في كـل

مناسبة ، وهي تنشد الامل في اعادة المجد العربي ، والتخلص من ربقة الحكام الجائرين او الدعوة الى استعادة وحدة الشعب وهم لم يتخلوا عن وصف جوانب الضيق ، والحديث عن البؤس والفقر الذى كان ينتشر فوق ربوع الوطن العربي ، وقد اخذ الشعر الديني والمدائح النبوية دوره في استثارة الهمم والهاب حماس المجاهدين وتثبيت عزيمة المناضلين الذين وجدوا في هذه المدائح منافذ لمحاربة القوى الغازية وايقاف زحفها الذى اوشك ان يطبق على الارض العربية .

فصورة الادب لم تكن صورة قاتمة ، ومرحلة التجديد لم تكن مرحلة لا وجود لها في ادب الفترة ، ان هذه التصورات لابد ان تكون موضوع مناقشة علمية موضوعية لتحديد الصورة الحقيقية ولايقاف هذا السيل النقدى من الاحكام غير السليمة ، التي القت بجرانها الثقيل على امتداد الفترة حتى تركتها نهبا لكل قول غير موضوعي واطفأت في دربها كل شعلة وقادة ، وانتزعت من تاريخها كل فكر نير وأوغلت في وصمها باشنع الاوصاف، تأكيدا لاحكام غير مدروسة وتلبية لحاجات ذاتية عبرت عن رغبات اصحابها.

انني استطيع ان أوكد ان تسمية الفترة المظلمة او عصر الانحطاط قد اغلق دونها كل الابواب والقى فوقها حجبا واستارا لمنع كل علومها من الظهور واخفاء كل كنوزها الفكرية وقد ادى ذلك الى وصمها بالضعف ونعتها بالانحطاط حتى جعلت الباحثين يمرون عليها دون وقوف ويحكمون عليها دون مراجعة ، ويؤكدون الاحكام دون تأييد ...

لقد ظل الادب العربي طوال العصور التي اعقبت سقوط بغداد ادبا ملتزما يؤدى وظيفته ، ويحمل عطاءه ويدافع عن مجتمعه . فقد اخذ الشعراء على انفسهم مهمة الدعوة الى الاصلاح والوقوف الى جانب الاشادة بكل المظاهر الاصلاحية التي كانت علاماتها تتضح من خلال الطموح المتميز ، كما كانت الدعوات تتعالى بشجب مظاهر الاستبداد وتأييد النزوع الى الحرية

التي كانت ترتسم في المظاهر الاجتماعية والاتجاهات السياسية ، وقد اتسمت هذه الدعوات بالتشديد على توظيف الشعر في عملية التغيير ، والمشاركة في بناء المستقبل المنشود وحث الجمهور على الالتزام بكل ما يعاونه على تحرير نفسه وتحسين حياته وتأكيد وجوده منتميا الى امة لها قيمها الانسانية .

وقد تكثفت بعض الاتجاهات في ابراز الشعور القومي واحتضان الاحاسيس القومية التي كانت تحدد الشكل الانساني لهذه الاحاسيس وقد اتضح هذا الاتجاه بشكل واضح في ادب الفترة من خلال الوقوف بحزم تجاه الدعوات التي كانت ترتفع يائسة أو ضعيفة وتأكيد الالتزام بالادب الذى كان يعالج القضايا المصيرية بعيداً عن الشعور الفردي أو الذاتي لان فيه قفزات فكرية خالصة اخذت حجمها في كل الدعوات وحددت مسارها في كل عمل ادبي تناولته الجماهير ، أو انكبت على قراءته ، أو انصرفت الى الاهتمام به . وكانت قادرة على استيعاب العمل الادبي الخلاق ، وقادرة على استشفاف الاصالة المتمثلة في تعبيره ، وقادرة على ادراك الروح التي كانت تحمل اعباء الدفاع عن مصالحها ، وقادرة على تناول النص الحقيقي الذى يحمل السمة الوطنية والقومية . وقد اكدت هذه القدرات نفسها من خلال تعلق هذه الجماهير باصحاب هذه النصوص والدفاع عنهم في مجالات النقد والاندفاع وراء نماذجهم في كل حقل ولعل تطور الاساليب الادبية في التعبير ، وانصراف المضامين الى احتواء الموضوعات الجديدة ، ومعالجتها المشاكل التي بدأت تبرز من خلال الصراعات الحياتية التي أوجدتها ظروف الواقع الجديد ، تمثل الاتجاه الحقيقي الذى كان الادب العربي يحمله في مسيرته على الرغم من الملابسات التي كانت تحف به . وان كثيرا من الادباء كانوا يوظفون هذا الادب من أجل خدمة الواقع الاجتماعي الجديد .. فقد عالج أبو الثناء الالوسي في بعض مقاماته الاوضاع الاجتماعية السائدة ووقف عند المشاكل اليومية وهذا يعني ان المقامة وظفت من أجل الموضوعات التي كانت ذات

مساس بحياة الجماهير • وان ابا الثناء الالوسي كان يدرك المهمة الحقيقية للعمل الادبي ، ويدرك ايضا ان المقامة التي كانت تأخذ شكل الدعابة لايمكن أن تستمر وهي تحمل هذه الصفة ، وان محاولة تحديد شخوصها من الواقع وتحريكهم وفق الظرف المناسب ومعالجة الحالة الآنية الملحة التي توخاها الاديب ووضع الحلول الصائبة من خلال الاستخدام المباشر • هذه المحاولات تعني احساسا بتوظيف الادب ، وادراكا للمهمة الملقاة على عاتق الاديب ، وانسجاما مع الموقف الذى رسمته الجماهير للنموذج الانساني •

ان ربط ظاهرة المعالجة الاجتماعية ، وتوظيف الادب في خدمة الصورة الاجتماعية المحسوسة ، تعد امتدادا لمعالجة هذا الفن وقد التفت الى هذه الظاهرة كثير من المؤرخين والنقاد فأكدوا التزام بعض الادباء بهذه المهمة ، واعتبروا ذلك اهتماما خاصا ولكن الحقيقة تؤكد ان كثيرا من الفنون الادبية ظلت ملتزمة بالتعبير عن الواقع الاجتماعي ، ومهتمة بأبراز الجوانب التي وجد الادباء ضرورة في ابرازها لمعالجتها والوقوف عندها ، لانها تمثل الغاية التي من اجلها وضع الاديب فنه الادبي • ولانها اوقفت هذه الفنون عند الدعوة الى الامة للنهوض ، والتخلص من الواقع الفاسد ، ورسم المستقبل الواضح ، وانتزاع جذور الانقياد التي حاولت شد الامة بكل ما يجعلها أمة ضائعة الهدف ، مبددة الفكر ، ضعيفة السطوة وقد حاول ادباء الفترة أن يتلمسوا دروب المعالجة الصحيحة وكان يؤلمهم الواقع البائس وتهزهم الاحوال السائدة وتستثير مشاعرهم مناظر البؤس التي كانت تضرب اطنابها في ارجاء الوطن العربي • ان هذا الواقع المؤلم حرك اقلام الكتاب ، ودفعهم الى أن يضعوا ادبهم في خدمة الجماهير التي كانت تقاسي البؤس والحرمان • وقد نشطوا في محاولاتهم الاصلاحية من خلال المقالات الادبية أو الروايات الانتقادية أو القصص ، وقد استطاع هذا الاتجاه أن يفرض نفسه خلال الفترة لادراكه القيم الانسانية ، ودفاعه عن الانسان ،

وارتباطه بالمصلحة القومية والوطنية ، واحساسه بالمشاعر التي كانت تبرز من خلال المعايشة والمعاناة .

ان احساس الاديب بمشاعر الجماهير وايمانه بقدرة هذه الجماهير على تغيير الواقع مكنه من وضع ادبه في هذا الاتجاه ، ولعل بروز الاتجاه الوطني الحاد ، والدعوة الى الاستقلال بشكل سافر ومطلق ، ومجابهة قوى الظلم والتحدي مهما كانت، تشكل اللمحات الاولى في اطار الصورة الادبية لهذا الادب فكانت دعوات الشعراء والقصاصين وكتاب المقالة السياسية والادبية والمضامين التي عالجوها من خلال هذه النتاجات وعلى امتداد الوطن العربي تعد انتفاضة جديدة في الميدان الفكري ، وثورة سياسية في سجل الاحداث وتجمعا قوميا حدد طريق التحرر ورسم مستقبل الامة ..

لقد شهدت الارض العربية حركة اصلاح مستمرة شملت الوطن العربي برمته ، خاضتها جحافل الادباء والشعراء لتجابه العصر الحافل بالاحداث، المملوء بألوان البؤس والشقاء ، المتمثل بصنوف مظاهر الفقر ، والخاضع لكثير من اشكال الحرمان ، الزاخر بانواع المشكلات. الى جانب السيطرة الاستعمارية الكاملة التي وضعت يدها واحكمت قبضتها فسخرت لمصالحها كل الجهود ، واستنزفت لتسيير عجلات مصانعها كل الثروات ، كانت الحالة بائسة ، وكان الواقع مؤلما ، وكانت الصورة قاتمة . ولكن الحس القومي الذى تسرب الى نفوس الادباء والشعراء كان حسّا خالصا ، فرضته مصالح الجمهور ، وحركته دوافع الايمان المطلق بحركة التاريخ ، وايدته اصالة الشعب العربي الذى حمل معه عناصر وجوده وتراث مسيرته وثمرات فكره النير الى جانب الاحساس الوثيق بالصلة التي تشد ابناءه بأرضهم .

فهذا أبو الثناء شهاب الدين محمود الالوسي المتوفى سنة ١٨٥٤ يحن الى العراق بعد ان كثر حاسدوه وضيق عليه الخناق مضطهدوه فأضطر الى مغادرة ارضه .. فيقول :

أهيم باثار العراق وذكره | وتغدو عيوني من مسرتّها عبرى
والثم اخفافا وطئن ترابه | واكحل اجفانا بتربته العطرى
واسهر ارعى في الدياجى كواكبا | تمر اذا سارت على ساكني الزورا
وانشق ريح الشرق عند هبوبها | أداري بها يامي مهجتي الحرا

ان صورة الحنين التي عبّر عنها أبو الثناء تمثل الاحساس القومي الذى ظل صفة ملازمة للادب ، وظل رمزا من رموز الاتصال بالوطن والارض ، وظل نموذجا من نماذج الارتباط الذى حفظ الصلة وأكد الوجود وعمق الاحساس .. ولعل دراسة هذا الغرض وتحليل دوافعه والوقوف عند معانيه تؤكد المعنى الحقيقي لهذا الغرض ، وتعطي الدلائل التي صاحبت الادب العربي عبر مسيرته الطويلة . وتركت للشعراء حرية التعبير وحرية التطواف في كل مربع من مرابع الارض وعند كل موقع من المواقع العزيزة .

واذا كانت صورة ابي الثناء واضحة المعالم في العراق فان صورة أحمد فارس الشدياق المتوفى سنة ١٨٨٧ تمثل صورة أخرى من صور الانسان العربي الذى كانت الارض العربية وطنا له ، هذا الانسان الذى وضع تجربته وعلمه وفنه وقلمه في خدمة اللغة وخدمة علومها فعاش حرا يدافع عن ارضه ويدعو الى تحريرها من كل اصناف الاستغلال بلسان فصيح وجرأة الى التحرر ومثلهما اديب اسحق المتوفى في سنة ١٨٨٥ الذى عبر بجرأته نادرة وقلم حر . وبقى صوته الحر في ( الجوائب ) يحمل اصالة الدعوة عن موقفه الواضح تجاه الاستعمار والذل والعبودية فكان لوحة من لوحات النضال ونموذجا من نماذج التضحية وصوتا من اصوات التحرر وقد ظل صوته الملتهب وكلماته الحادة سياطا تلهب ظهور المستعمرين وحمما تتساقط على رؤوس الاعداء ومنارا يهدى الجيل الى طريق التحرير والاستقلال وقد كانت دعوته نحو الوحدة العربية منطلقا اساسيا ومحورا ارتكزت عليها اسس

الدعوة وفي تأكيد هذه الدعوة يقول : « ما ضرّ زعماء هذه الامة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ، ثم حشدوا الى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد ، قد جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وهبت الحاصبة ، تليها العاصفة ، فذرت حقوقنا هباء منثورا ولمت بنا القارعة ووقعت الواقعة فصرنا كأن لم نَغْنَ بالامس ، ولم نكن شيئا مذكورا فهلم ننشد الضالة ونطلب المنهوب ، لاتقوم بأمر ذلك فئة بدون فئة ، ولا تتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن في الوطن اخوان ، تجمعنا جامعة اللسان وكلنا وان تعدد الافراد انسان » .

وقد تميز اسحاق بعشقه لحرية الرأى ، وايمانه بالدستور فعاش جنديا من جنود الحرية وبطلا من ابطالها يسعى لتحرير الانسان العربي فهو على الرغم من صنوف الاضطهاد التي احاقت به ، واشكال التضييق التي حاولت ايقاف دعوته كان يؤكد غايته ويدافع عن مثله المتمثلة في العمل على ايقاظ الشرق وتنبيه أهله واستثارة ابنائه لطرد المحتلين وقد رسم خطة دعوته هذه في جريدته التي اصدرها بباريس فقال :ـ

اني لا اقصد الى الانتقام ، وانما اروم مقاومة الباطل ونصرة الحق ، والمدافعة عن الشرق واله ، وعن الفضل ورجاله ، فمسلكي ان اكتشف حقائق الامور ، ملتزما جانب التصريح ، متجافيا التعريض والتلميح وان أجلو مبادىء الحرية واراء ذوى النقد ، ومقصدىأن أثير بقية الحمية الشرقية وأهيج فضالة الدم العربي ، وارفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، واحيي الغيرة في قلوب العارفين ، ليعلم قومي ان لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل مداس يشترى بحقوقهم ثمنا قليلا ، ويذيقوا الخائنين عذابا وبيلا وليستصغروا الانفس والنفائس في جنب حقوقهم ، وليستميتوا في مجاهدة الذين يبيعون ابدانهم واموالهم واوطانهم وآلهم .

ان هذه النماذج تعكس الواقع الادبي الذى عاشته الفترة وتحدوا الملامح الانسانية التي سار في دربها الادب العربي وقد ضخت الفترة ادبا قوميا ما تزال معالمه غير مدروسة واتجاهاته غير مقيمة وفكره غير مدروس، لان هذا الادب وظف للتعبير عن شؤون الشعب العربي والدفاع عن حقوقه والوقوف عند مشاكله ودراسة واقعه الذى بات صورة من صور التأخر ، ونسوذجا من نماذج التدهور .

اما الشعر فقد بقيت اصواته تتعالى في مجال الاصلاح ودعواته تنطلق في الموضوعات التي عالجها النثر ، بشكل اقوى وتعبير أشد ونماذج اكثر اندفاعا وتوجيها وبدأت اثار هذه الاصوات تجوب الوطن العربي وتندفع بين جماهير الشعب العربي لتحدد معالم الطريق وتضع علامات التحرر وتكشف عن نوايا المستعمرين فقد اصبحت اصوات التمرد على الظلم والدعوة الى الانفلات من جبروت الطغيان وتحبيب العدالة والالتزام بالشورى وبث المساواة والتشويق الى الحرية . هذه الاصوات اصبحت سمة من سمات الشعر ، ولونا متميزا من الوانه ، وخصيصة من خصائص المعاني الانسانية الرفيعة ، وقد عانى الشعراء ، وهم يدعون لهذه المبادىء ما يعانيه المناضلون الاحرار فأصبحوا اهدافا للتشريد والنفي ، تتقاذفهم غياهب السجون ، ولعل صور البارودي وشوقي والرصافي والكاظمي وحافظ ابراهيم والصافي النجفي والأثري تمثل النماذج الانسانية التي وضعت نفسها في مقدمة المسيرة لترسم للشعب العربي طموحه في التحرر ونزعته في الانعتاق وحبه الالتزام بالحرية والعدالة والمساواة .. ويمكن اعتبار كثير من شعر البارودى لوحة من الواح النضال السياسي ، وصورة من صور الدعاوى القومية التى ارتفعت في مطلع هذا القرن . ولعل قصيدته التي بدأ فيها بتحريض الشعب العربي في مصر تعد نموذجا من هذه النماذج حيث يقول :

فيا قوم هبّوا انما العمر فرصة وفي الدهر طرق جمة ومنافع

أصبراً على مسّ الهوان وانتم		عديد الحصى : انـي الى الله راجع
وكيف ترون الذل دار اقامة		وذلك فضل الله في الارض واسع
أرى أرؤساً قد اينعت لحصادها		فأين ولا ايـن السيوف القواطع
فكونوا حصيدا خامدين او انزعوا		الى الحرب حتى يدفع الضيم دافع

لقد احتفظ الشعر العربي الى جانب اغراضه الاخرى بجانب الاستثارة والتوثيب • لان الشعراء وجدوا فيه صوتهم المسموع ، ولونهم المؤثر ، ومعناهم المستحب ، ومن هنا وجدنا ازدهار هذا اللون حتى اصبح سمة من سمات الشعراء ولعل بعض قصائد عبدالحميد الشاوى المتوفى سنة ١٨٩٦ تؤكد هذا الحس العربي الذى كان يجد مكانه في طوايا الفترة ، وتؤكد الموقف الاصيل الذى التزم به هؤلاء الشعراء وهم ينظرون الى الوطن العربي الذى وطأته اقدام المستعمرين فحاولت اذلال أهله وقهر ابنائه ، وانتزاع ابسط الحقوق التي يجب ان يتمتعوا بها •• وكذلك كانت صرخات الشاعر عبدالغفار الاخرس التي كانت تلوح في كل مناسبة ، جريئة واضحة، قوية صادقة حيث يقول :

وحسبك منّي صبر اروع ماجد		بمستوطن ضاقت بمثلي رحابه
تذاد عن الماء النمير اسوده		وقد تلغ العذب الفرات كلابه
واعظم بها دهياء وهي عظيمة		اذا اكتنف الضرغام بالذل غابه
متى ينجلي هذا الظلام الذى أرى		ويكشف عن وجه الصباح نقابه

وتتجلى صرخته العربية ، ويرتفع حسه القومي ، وتنطلق احاسيسه الابية وهو يرى ظلم الحاكمين ، وتطاول الظالمين وهم يجورون على ابناء قومه ، ويهينون كرامة الوطن فيقول :

أسفي على عمر تقضىّ شطره		في خيبة المسعى الى الآمال
وبنات افكار لنا عربية		رخصت لدى الاعجام وهي غوالي

وهي قصيدة طويلة يستشف منها توقد حسه وارتفاع وجدانه العربي، وتتحدد من خلالها خطوط فكره الاصيل ، وملامح ايمانه باباء هـذه الامة ، واصالة قدرتها على النهوض وتجاوز انسانها لكل واقع سلبي ، متخذا منه دوافع نهوضه ، ومستمداً منها اسباب اندفاعه وقد بقيت قصائد الأخرس تحمل هذا النمط وتؤكد هذه المعاني بجرأة قوية ، وايمان مطلق وعزيمة لا تلين ، ونضال لا يستكين .

وقد حاول بعض الشعراء ان يكونوا صرحاء وجريئين في كشف امانيهم وغاياتهم وتهديدهم لسياسة الظلم ، وواضحين في الالتزام بخط الثورة ورواد مبدعين من رواد الاثارة ، لانهم كانوا يشعرون بسياسة الظلم والاستهتار ، ويدركون الابعاد السياسة التي تختفي وراء هذه السياسة الظالمة ويعد عبدالغني الجميل صوتا واضحا من اصوات الرفض ، وعنوانا من عنوانات النضال ، ورمزا من رموز المجابهة لانه عبر عن غضبه بشعره ، ورسم طموحه في قصائده ، وقد كان شعره عربي الملامح قومي النزعة ، انساني الروح ، يقف في وجه الحكام وقفة الحر الابي ، ويجاهر الحاكم الجائر مجاهرة البطل المؤمن ، ولم تكن صرخاته فردية أو شخصية وانما كان يدعو في قصائده كل عربي الى المجابهة ، ويحثه على المشاركة في الدفاع عن شؤون الامة ، وكرامة الوطن المستباح وقد تجلت نفحات هـذه الروح في كثير من قصائده ففي احداها يقول(١) :

ألم يأن للأحباب أنْ ينصفوا معنا ... فزاغوا ومازغنا وحالوا وما حلنا

الى أن يقـول :

بلينا بقوم حافظ الود عندهـم ... أخوسفه بل عادم الرأى لا يعنى
وأنا لنأبى الذلّ في موطن الغنى ... ولا يزد هينا مطمـع حيثما كنا

(١) ينظر الشعر السياسي العراقي .. للاستاذ ابراهيم الوائلي ١٦٨-١٧٠ .

ولا نرتضي الا المـرؤة مذهبـا — وان لا منامن لا منا عنه اعرضنا
وما ساءنا حرب الزمان وبؤسه — ولاحادثات الدهر هدّت لنا ركنا
وننكر ان شئنا خـلائق معشر — فقل للئام القـوم ما انكروا منا
هم زعموا ان كل برق يخيفنـا — فخابوا بما قالوا ، وقلنا فما خبنا

ويقـــول :

فقل لي : بمـاذا يفخـــرون عـلى الورى
اذا عـددوا الآبـاء أو ذكـروا الابنـــا
فهبهـــم عـــلى المجـد الاثيـــل تسنموا
امـا يعرفـون المجـد بالقـول لا يبنـــى
ومـا المجـــد الا دولـــة وحفاظهـــا
صليل المواضي البيض والسمر اللدّنـا

ثم تشتد صرخته وتتعالى ثورته فيدعو الى الثورة العارمـة ، ويهيب بقومه الى النهوض ودفع الظلم ••• فيقول :

الا نخوة منهـم فيصحوا الى التي — ايادى سبأ قد غادرت ذلك المغنى
ألا حازم للرشد شـــد حزامـه — لمرزمة ينسى بها الطائر الوكنـــا
ألا مرشد منهم عن الغي قومـه — فيوقفهم منه عن السنن الاسنى
ألا غـيرة تدعو الصريخ اذا دعـا — ليـوم عبوس شره يوقظ الوسنى
ألا مبلغ عني سراة بنـي الوغـى — واقبال عرب كيف صبرهم عنـا ؟

لقد ارتفعت هذه الصرخات في وقت اشتد ظلمه وتفاقمت احداثـه ، وارتفع فيه صوت كل اجير منتفع ولكن عبدالغني الجميل كـان اقوى من الظلام واعنف من الاحداث ، واكثر اخلاصا ووفاءً لامته في مرحلة تضاءلت فيها القيم واوشكت الروابط الاجتماعية ان تتفكك بعد ان ارتفع صـوت الفرديـــة •

ان التزام الشاعر بخط الدفاع عن مصير امته ، والتزامه بايقاظ ابناء قومه لدفع الظلم ، والتزامه بايمان شعبه في الحياة وحقه في التمتع بحريته ، تؤكد ادراك الشعراء لهذه المهمة ، وتؤكد اندفاعهم وراء القضايا المصيرية التي كانت تفرض نفسها على الواقع العربي وتؤكد وجودها من خلال تعاقب الاحداث .

لقد كانت الصورة الادبية مشرقة عند هذه الفئة وهم نماذج ، وانهم استطاعوا بجدارة أن يحققوا وجودهم الادبي والفكرى في كل لمحة من اللمحات وفي كل صوت حر كان يرتفع من ثنايا عتمة الظلام المطبق الذى دفعته الى ارضنا العربية جحافل الغزاة المستعمرين ..

لقد واكبت حركة الشعر الواقع السياسي في العراق خلال حكم الولاة علي رضا ومحمد نجيب ومحمد نامق . لتميز هذه الفترة بقسوة الحكم واضطهاد المواطنين وصرامة الاساليب التي استخدمها هؤلاء الولاة ومحاولتهم اذلال الشعب ، وتعد قصائد عبدالغني الجميل التي ارخ الفترة وقاوم الاضطهاد نماذج ملتزمة في التعبير ، وموقفه في الوفاء من أجل تنبيه الشعب الى واقعه السياسي ، وتبصيره بجور الحكام ، وقد اخذ طريق التعبير صورة جديدة لانه كان يبرز من خلال مواساة المضطهدين، والتخفيف عن احوال المغتربين الذين ضيقت عليهم السبل ، فتركوا البلاد مكرهين ، ولزموا الغربة مجبرين .

لقد حاول الشعراء أن يؤكدوا معاني الظلم وفساد الحكم وتسليم الامور لمن لا يستحقها واستحكام الهول ، وشيوع الغدر وهتك الحرمات ، وبذا اقترنت هذه الصور المعتمة ببوارق أمل منتظرة أو خيوط نور متوقعة لان النفوس لم تعد تطيق ما حملت به والجموع لم تعد قطيع غنم تساق الى حتفها . هذه المعاني كانت تتناثر في كل قصيدة وتبرز في كل حديث حتى اصبحت صورة من الصور المتفق عليها ، وهدفا موحدا تلتقي عند ترديده

كل الاصوات ، وغاية تتسابق اليها كل النماذج الادبية .

فهذا عبدالغني الجميل يكتب الى ابي الثناء الالوسي قصيدة يرسلها الى الاستانة بعد لجوء الالوسي اليها هربا من الاضطهاد يقول فيها[1] :

| | |
|---|---|
| والكرخ قد اقفر من اهله | من بعد ما كانوا كورد البهار |
| ما سميت زوراء الا لما | منها عن الرشد من الازورار |
| قد حط فيها كل طوّد علا | وما علا الا خفيف العيار |
| وكل من كان بها واثبا | الى العلا عادت خطاه قصار |
| لا يشتفي غيظ اخي نخوة | الا اذا جرد بيض الشفار |

ويرتفع صوت البارودي في مصر وهو يحمل الصورة ويؤكد الواقع ويندفع نحو تصوير الاحوال التي اصبحت قاتمة ومؤلمة ، ولم يقف البارودي عند الجانب السلبي من هذا الواقع ولم يكتف بتأكيد اللوحة التي رانت على جوانبها مظاهر الرعب ، أو انحدرت اليها ملامح الفزع وانما كانت قدرته واعية ، وكان تقديره موقفا ، وكان ايمانه بالثورة يشكل جزء من معالجته للواقع المؤلم ، لان اداة التغيير التي تملكها الجماهير كانت واضحة القسمات في مفهوم الشاعر ، ومن هنا كان تحديده يوحي باستشفافه الصائب، وكان حدسه لوقوع الثورة أو محاولة التغيير يؤكد صلته بهذه الجماهير التي منحها هذا التوقع ، فقال :ـ

| | |
|---|---|
| تنكرت مصر بعد العُرف واضطربت | قواعد الملك حتى ريع طائره |
| واستحكم الهول حتى ما يبيت فتى | في جوشن الليل الا وهو ساهره |
| و َيلمّه سكنا لولا الدفين به | من المآثر ما كنا نجاوره |
| يانفس لا تجزعي فالخير منتظر | وصاحب الصبر لاتبلى مرائره |
| لعل بُلجة نور يستضاء بها | بعد الظلام الذى عمت جرائره |

(١) ابراهيم الوائلي : الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر/١٧٥ .

اني ارى انفسا ضـاقت بمـا حملت    وسوف يشهر حدّ السيف شـاهره
شهران أو بعد شهرين هي احتدمت    وفي الجديدين ما تغنـــي فواقـــره
فـان اصبت فعـن رأى ملكت بـه    علم الغيوب ، ورأى المـرء ناظـره

وقد بقيت اصداء الثورة تغذى حسه الثورى ، وتلهب وقد نفسه الابيه ، وكانت نوازع التمرد على الظلم ، وشيم التصدى للعيش الذليل ، تحدد خطوات سلوكه اليومي وتضيء جوانب حياته المليئة بالتحري ، وهي نوازع تستلهم الموروث الاخلاقي ، وتتأثر بخصائص الواقع العربي الذى استل منه البارودي اخلاقيته الشعرية ، حتى ترك على صفحات ادبه صور التأثر واضحة وملامح الانطباع متميزة القسمات ، فكانت جزء من وجوده الادبي وعلامة من علامات أطاره السياسي ، وهذا الجانب يؤكد خضوعه لمعطيات العصور الادبية المتلاحقة ، التي نهل منها قوالبها ، وحمل محتواها ، واستعار من صيغها ما حقق له الموقع الادبي الرفيع في مرحلة الانتقال ، وقد ظلت هذه الصور المتلازمة ، والتعابير المتداخلة تحمل قدرة العطاء الوفير الذى تحلّى به العطاء الشعرى العربي ، واتصفت به اغراض الادب المتنوعة فمعاني الشعر التي طرقها الشعراء كانت استمرارا متطورا لمعاني الشعر العربي القديم ومحاولة موفقة من محاولات الشد الحسي بين المشاعر القومية • وهي صورة متكررة في معاني الشعراء ، ولعل صرخته التي اطلقها وهو يرسم فلسفة الفكر العربي في مرحلة الانعتاق ، ومعانيه التي نشرها في قصيدته وهو يؤكد حقه في مقارعة الظلم ومجالدة الحاكمين تعدّ نموذجا متقدما في التطور الادبي ••• لانه اوضح الهدف ، ومهد السبيل ، ووضع الناس في طريق المسؤولية •

اذا المرء لم يدفع يد الجور ان سطت    عليه فلا يأسف اذا ضـاع مجـده
ومن ذلّ خوف الموت كـانت حياته    اضـرّ عليـه من حمـام يـؤده
واقتـــل داء رؤيـــة العـين ظالمـــا    يسيء ويتلى في المحافل حمـده

علام يعيش المرء في الدهر خاملا أيفرح في الدنيا بيوم يعده
واني امرؤ لا استكين لصولة وان شدّ ساقي دون مسعاي قده
أبت لي حمل الضيم نفس أبية وقلب اذا سيم الاذى شب وقده

لقد كانت وحدة المشاعر دافعا قويا من دوافع الاحساس القومي في هذه الفترة ، وكانت وحدة المصير الذى اصبح حقيقة ملموسة في ظل الانتداب صورة من صور التمثل لكثير من شعراء الفترة، على الرغم من سعة الرقعة، وتباعد المسافة ، وصعوبة الاتصال ، وشراسة المستعمر ، ووطأة الواقع الاجتماعي الثقيل • لان الشعراء ـ على الرغم من هذه الاوضاع ـ استطاعوا أن يقدموا من النماذج ما يشير الى نمو الحس بالحرية والدعوة الى الخروج من مواطن الجهل ، والثورة على الحرمان وقد تجلت هذه الاصوات بمظاهر الاستنكار التي وقفت بوجه الحكم الظالم، ونشر الاستياء في صفوف الجماهير لتأليبها على جحافل المرتزقة ، وقد وجد الشعراء في استلال معاني الحماسة والفخر ثروة فكرية متكاملة ، وصورا شعرية ناضجة ، وقيما اجتماعية سليمة ، ووجدوا في ربطها بمشاعر الاعتزاز عاملا من عوامل الاستثارة ، ودافعا من دوافع الترابط ، وهي شعارات كانت لها اصداؤها في التعامل الفكري ، وكان لها وقعها في تبصير هذه الجماهير بما الت اليه احوالهم ، ووصلت اليه بلادهم من فقر يضرب باطنابه وحرمان يبسط ظله ، وفساد احوال يمد سطوته •

ان استيحاء المعاني من الموروث الشعرى العربي القديم قد مهد لهؤلاء الشعراء صورة المداخل الحقيقية لاستقطاب الناس ، وسهل لهم مهمة الوصول الى مواقع الحس التي يمكن أن تتحرك • وفي تحديد معالم المعالجة وفق الطريقة التي استخدمها الشعراء كانت الالتفاته البارعة وهذه الظاهرة تمثل الاتجاه الشعرى في الوطن العربي في تلك الفترة ، وان انصراف الشعراء الى هذا المنهج يستحق الوقوف والتأمل لانها ادت مهمتها

اداء حسنا وحققت لجحافل الشعراء اسلوبا ناجحا في التعامل وطريقا مفتوحا من طرق الالتزام التي ابتعد عنها الشعراء في كثير من المراحل الادبية ..

انني استطيع أن أؤكد ان هذه الملامح المتباعدة في تناول الشعراء للاغراض التي عالجوا من خلالها الواقع الاجتماعي والسياسي والفكرى في تلك الفترة يمثل منطلقا قوميا واضحا ويرسم خطا عربيا بين القسمات وان هذه الملامح كانت نقطة الارتكاز في الحركة القومية التي امتدت حركتها الى ارجاء الوطن العربي في تلك الفترة وان محاولة تحليل القصائد الشعرية وتنظيم دراستها وربط افكارها ، والوقوف عند الموضوعات التي عالجها ، ودفقات المشاعر التي تأججت في تلك الفترة واستجابة الجماهير لها من خلال اشكال التعبير تقدم دراسة جديدة في تقويم الشعر العربي ، وتقدم خطا من خطوط الحركة العربية في تلك الفترة لان الشعر وقف وقفة مسؤولة ، والشعراء تحملوا مسؤوليتهم تحملا مصيريا فالتزموا بالتعبير عن القضايا البارزة ، والتزموا بالدفاع عن القيم التي اكدتها الامة من خلال مسيرتها ، ومن ثنايا موروثها الادبي ، وان محاولة وصف الشعر العربي بالجمود في هذه الفترة هي محاولة غير ناضجة من حيث الاساس ، لان التقليد لم يكن محددا ، والوقوف عند معاني القدامى من الشعراء لا يعني تقليدا فارغا لان الشعراء كانوا يجدون في هذا التقليد صورة للتأثير ، ويجدون في تأكيد المعاني ، وتأصيل القيم عاملا حاسما من عوامل تحريك المشاعر وتأجيج الاحساس وبطريق غير مباشر تأكيد الصلة العضوية بين القيم القديمة الموافقة لطبيعة العصر ، وبين القيم الجديدة التي لا تجد ضيراً من استيحاء تلك القيم ، ان هذه النظرة لاتعني ان الشعر العربي في هذه الفترة كان خاضعا لهذا المقياس ، ولا تعني ان كل الشعراء كانوا يدورون في هذا الفلك أو ينطلقون في احكامهم من هذه المسلمات وانما هي فرز لمجموعة الشعراء التي لمسنا في اتجاهها وضوحا ، وفي افكارها توجيها ، وفي التزامها انسانية .

ان الباحث المعاصر لا يستطيع ان يترك لنفسه مجال السير وراء الاحكام القديمة في الحكم ، ولا يستطيع ان يضع شعراء الفترة في المجال الذي وضعوا فيه عندما سيطرت القوالب النقدية التقليدية ، وان الاستمرار في تكرير هذه الاحكام والانقياد لتلك المسلمات بعيدا عن الدراسة الموضوعية والتحليل النقدى الدقيق ، وبعيدا عن الربط بين الصورة واطارها والواقع الاجتماعي واحواله والمحاولات النفسية ومسببتها ، تشكل ظاهرة خطيرة في كل هذه الدراسات ، وتمثل تشويهاً للحركة الادبية التي حملت الفكر والتوجيه ، وانقيادا لما يراد به أن يبعد الدقة عن تراثها ويفقدها حلقة أو حلقات من تاريخ نضالها ومجد ابنائها وتضحية شهدائها .

ان التزام الشعراء بالقضايا المصيرية التي كانت تخوضها الامة ودفاعهم عن هذه القضايا وفق الاشكال التعبيرية المناسبة ، وانطلاقهم من الايمان بهذه القضايا حملهم على أن يكونوا عند مستوى العمل القومي والوطني ، مستجيبين لكل صرخة تطلق من جائع يتضور جوعا أو مظلوم اطبقت عليه جدران السجون ، أو مشرد ضاقت عليه السبل أو صاحب حق هضم حقه ، وكانت الاستجابات تترجم الى اصوات شعرية هادرة فتنطلق عارمة في كل قطر ، متخذة اساليب الشكوى من الحياة والضجر من قسوتها ، ليكون التعبير أشمل ، والصورة اوضح ، والاستجابة اسرع ...

ولعل اصوات عبدالحميد الشاوى المتوفى سنة الف وثلاثمائة وثلاث عشرة للهجرة تحدد الاتجاه الذى تبنى هذا الموقف حيث يقول :

أرقت وهل يهجع المقصد    وليس لليل المُعَنَّى غد
وبتُّ أراقب سير النجوم    كأني بها ساهر أرصد
بقلب قريح له لوعة    تشب ضراما فما تخمد

سقى الله بغداد صوب الحيا | وطالعها الطالع الاسعد
وان لم يكن لي في شطّها | ـ وان لجّ بي ظمأ ـ مورد
ولكن تركت بها معشرا | لهم طارف المجد والاتلد
هم الناس ان عد اهل العلا | وان ذكر الاصل والمحتد
لقيت من الدهر ما بعضه | يذوب له الحجر الجلمد
ولست لاحداثه ضارعاً | ولا انا مكتئب" ، مكمد
ولكنني انا جار على | مدى همة شأوها ابعد
ولست أبالي انا الحادثات | عظمن الى ايها أعمد
وقومي الالى الصيد سادوا الورى | وشادوا من المجد ما يخلد

فالشاعر هنا يحمل رسالة ويؤدى واجبا ويثير حسا ، ويندفع من اجل قضية وضع نفسه لخدمتها ووظف شعره من اجلها ، وقد ظلت هذه الاصوات تتعالى وترتفع من أجل دفع الجماهير للتصدى والوقوف بوجه محاولات الاذلال ، وانني استطيع ان اؤكد ان صوت عبدالحميد الشاوي واصوات غيره من الشعراء كانت ترسم اهدافاً قومية واضحة وتحدد معالم توجيه سياسي وفكري في تلك الفترة لم يدرس بوضوح ، ولم تحلل اهدافه بعمق، ولم تكتشف اتجاهاته ..

لقد مهد شعراء فترة القرن التاسع عشر بشكل واضح الطريق امام الشعراء الذين اعقبوا تلك الفترة لانهم استطاعوا ان يحددوا مواقفهم ، ويؤكدوا وجودهم ويرسموا لجموع الناس طموحهم في الحرية ، وشجبهم لمظاهر الظلم ، وتمردهم على اساليب الخضوع التي حاول المستعمر فرضها عليهم ، وقد كانت اصوات عبدالحميد الشاوى وعبدالغني الجميل ومن دار في اطار المعاني والصور والاغراض التي عالجها هذان الشاعران يمثل الاصوات الرافضة في التوجه الشعرى ، وان المنهج السياسي الذى ارتسمت ملامحه من خلال تلك المعاني اصبح نموذجا للاطار الجديد ولمجموعة

الشعراء الآخرين الذين اعقبوا شعراء الفترة امثال الزهاوى والرصافي والكاظمي والشبيبي والصافي والنجفي والاثري •

ومن الطبيعي ان يتجه الشعر في هذه المرحلة اتجاهات جديدة تختلف في بعض صورها عن الاتجاهات القديمة اشكالا تتناسب والمتغيرات التي اوجدتها ظروف المرحلة وفرزتها طبيعة الاحداث فالوطنية اصبح لها مفهوم محدد من خلال ارتباط الشخص بالسلطة وطبيعة هذا الارتباط والحرية اصبحت تمثل مدلولا تتناسب ضوابطه وطبيعة الفكر الذى يطالب بها وتتحدد احكامها من خلال التعامل الذى يريده الفرد أو تفرضه السلطة ، ومثلهما العدالة والاستقلال والعبودية والحرمان وكل المفاهيم التي انطلقت في حدود الفترة ، أو ارتفعت اصواتها ابان الصراع ، وقد كان شعراء الفترة يعبرون عن طبيعة عصرهم ومفاهيمه وفق اشكال تتناسب والمضامين المتعارف عليها •

لقد حمل الشعراء مهمة التعبير عن هذه القيم ، والتزموا امام جماهيرهم بالدفاع عنها والتضحية من اجلها ، لانهم كانوا يتحسسون نتائجها • ويدركون الواقع المؤلم الذى الت اليه الاحوال ومن هنا كانت صيحاتهم العالية ترتفع غير آبهة بالنتائج ، لانها كانت تؤمن بان القوة التي يتمتع بها السلطان أو من يقوم مقامه هي قوة زائفة لا تستند الى الدعم الحقيقي، وانها استمرار لسياسة الدولة التي اخذت على عاتقها قهر الشعوب المستقلة، وامتصاص ثرواتها ، ونهب اقتصادها ، وقد ظلت هذه الافكار راسخة في اذهان هؤلاء الشعراء ، تؤكد صدق احساسهم ، وسلامة منطلقهم ، ووضوح موقفهم من هؤلاء ونستطيع ان نضع الرصافي والزهاوى في طليعة الشعراء على الرغم من بعض المواقف التي كانت تنم عن الضعف وتدل على السكوت•

ان تسلسل الاحداث التي خضعت اليها الامة ، وايغال السلطة في

ايذاء الجماهير ومحاولة استخدام هذه الجماهير من أجل تنفيذ المصلحة العليا التي تريدها السلطة • قد اثارت السخط والاستنكار وحددت المواقف الحقيقية التي اصبحت الوجه المتميز لكل دعوة ، ليتبين منها الصوت القومي ، ويرتفع من خلالها النداء الذى يشارك الامة مأساتها ، ويقف الى جانبها في رد التجاوز ، والحد من سطوة الاعتداء • ان الصوت الذى كان يرتفع لايمكن ان ينظر اليه بمعزل عن مستوى الاحداث الجارية ، ولايمكن ان يكون بعيدا عن الصورة التي كانت تتمثل لكل المخلصين من ابناء الامة وهم يتحركون في اطار القضية الوطنية ويتحسسون ملامح الاندفاع من اجل اثارة الجماهير ، والهاب مشاعرها ، وتوضيح الموقف الرائد لتكون عالمة بمصيرها ، قادرة على رد الدعوة الباطلة ••

لقد وجد الرصافي في حرب القصيم منطلقا للتعبير ، ومجالا صريحا لتثبيت الموقف القومي ، ليعيد الى ابناء قومه الموقع الذى يجب أن يكونوا فيه ، لانهم اكرهوا على الاشتراك بحرب لاناقة لهم فيها ولاجمل ، فقد جهزت الحكومة العثمانية جيشا من ابناء الشعب في العراق وارسل هذا الجيش الى القصيم ليكون في عون ابن الرشيد الذى كان يقاتل ابن السعود، ومن المؤلم أن يموت اكثر ابناء الشعب جوعا وعطشا بعد أن ابتلعتهم الصحراء بكثبانها ، ولفتهم بهجيرها اللاهب وقسوة احجارها المحرقة ، فضاعوا في متاهاتها المتباعدة ، وتجرعوا من اهوالها الغصص والنكبات•• ولعل ابيات الرصافي التي وقف فيها عند اوضاعهم تكشف عن الواقع الحقيقي الذي لازم هؤلاء الجنود الذين دفعتهم مطامع السلطان العثماني الى ان يكونوا زادا شهيا لصحراء لا ترحم ، وقتال لا يرجى من ورائه خير •••

قد التفعوا باسمال بوال     مشاة في السهول وفي الجبال
يجدو"ن المسير بلا نعال     بحال للنواظر غير حال

وزى غير مازي" الجنود

مشوا في منهج جهلوه نهجا    يجوبون الفلا فجّاً ففجا
الى حيث السلامة لا ترجى    فيا لهفي على الشبان تزجى،
على عبث الى الموت المبيد
عساكر قد قضوا عريا وجوعا    بحيث الارض تبتلع الجموعا
الى أن صار اغناهم ربوعا    لفرط الجوع مرتضيا قنوعا
بقَدٍّ لو اصاب من الجلود

والقصيدة بمضامينها القومية، وافكارها الانسانية ترسم صورة التمزق التي كانت تعانيها هذه الجماهير وهي تدفع من أجل موضوع لا صلة له بمستقبلها ، ولا تحس باندفاع نحو تحقيقية ..

لقد كان الرصافي صورة متميزة في تقديم لوحة المأساة ، الحادة التي كانت تأخذ بتلابيب النفوس ، وكانت صرخاته لونا من الوان التمرد الذى اعلنته هذه الجماهير بوجه القوى الباغية التي احكمت قبضتها ، وركزت سلطانها ، وكانت اصداء هذه الصرخات ، وانعكاسات هذا الصوت تهز الجموع ، وتبعث فيها الامل وتدفعها من اجل الوقوف بوجه هذه القوى ، ولم تكن صرخته هذه مقتصرة على اثارة الجماهير العربية في العراق وانما كانت دعوته تأخذ طابع استنهاض الامة واستثارة الجموع ، وتحريض القوى العربية التي كانت تجد في تجاوز الحاكمين ظلما ، وفي حكمهم جورا ، وفي رعايتهم استبدادا . وكانت هذه الصرخات يمازجها لون من السخرية ، وتمزج في ثنايا احكامها مسارب من المرارة لتشد اليها الجموع وتكون اكثر اثارة واشد الهابا لمشاعرها ، وقد تجلت صور هذه السخرية في اغراض شعره وعتابه الذى كان يدعو به الامة الى الانتفاض ، وكان عبدالحميد السلطان العثماني رمزا من رموز الاستبداد ونموذجا من نماذج الجور حتى اصبحت قصائد الشعراء لا تخلو من ذكره ، وهي تعرض الحديث عن الاستبداد والظلم .

سكنا من جهالتنا بقاعا يجور بها المؤمر ما استطاعا
فكدنا ان نموت بها ارتياعا وهبنا امة هلكت ضياعا
تولى امرها عبدالحميد

وتزداد سخريته وهو يخاطب السلطان الجائر ، ويتحدى كل جبروته، ويمعن في الاستخفاف به فيقول :

اقول وليس بعض القول جداً لسلطان تجبر واستبدا
تعدّى في الامور وما استعدا الايا ايها الملك المفدى
ومن لولاه لم نك في الوجود

أنم عن أن تسوس الملك طرفا اقم ما تشتهي زمرا وعزفا
أطل نكر الرعية خل عرفا سُمْ البلدان مهما شئت خسفا
وارسل من تشاء الى اللحود

فدتك الناس من ملك مطاع أبن ما شئت من طرق ابتداع
ولا تخشى الاله ولا تراع فهل هذى البلاد سوى ضياع
ملكت او العباد سوى عبيد

تنعم في قصورك غير دار اعاش الناس أم هم في بوار
فانك لم تطالب باعتذار وهب أن الممالك في دمار
اليس بناء يلدز بالمشيد

ان الصورة في ذهن الرصافي واضحة ، وان المأساة التي اطبقت على الجماهير العربية مأساة قاتلة ، لا تستطيع ان تتخلص منها ، وان عجلة الظلم تسحق كل الرؤس التي تريد لهذه الامة أن تنهض ، أو تحاول الوقوف بوجه التيار المستبد الذى اخذ بالرقاب فاذلها ، واحاط بالشعب فاثقله بالضرائب والاتاوات ، وترك ايدي ولاته تعبث بمن تشاء وتسلب من تشاء ،

وكان دعاة الفكر من الشعراء يرقبون الموقف بتحفز ويتابعون الاحداث بروية ، ويضربون ضربتهم في الوقت المناسب وان جرأتهم وخاصة الرصافي كانت مثار اعجاب الكثيرين حتى ظن نعوم البعلبكي الصحفي اللبناني المغترب ان الرصافي اسم مستعار وليس اسما حقيقيا لانه من غير المعقول ان يقوم رجل وينشر هذه القصائد وتتركه الحكومة العثمانية ، وقد رد عليه المرحوم كرد علي مؤكدا حقيقة الرصافي ، وصلته به ، ومعرفته لاحواله، وكذلك كان يظن الشاعر اللبناني بشارة الخورى وهو يستمع الى غرر قصائد الرصافي وهي تبث لفحات الحرية ، ويتطاير من جوانبها شرر الوطنية لانه لا يعتقد بأن شاعرا اسمه معروف الرصافي هو حقيقة يستطيع ان يجسر ويتحدث مثل هذا الحديث في ظل دولة عبدالحميد أو رجال عبدالحميد ..

ان سخرية الرصافي لم تقف عند استهانته بعبدالحميد وانما تجاوزت ذلك الى كل الاشكال التي يستخدمها هذا السلطان والى كل الاساليب التي تمنحه القدرة على تثبيت سلطته ، وقد التفت الشاعر التفاته الى حرية الصحافة فهو في عام ١٩٠٤ يتغنى بهذه الحرية ، ويعشق نسيمها ، ويستطيب وعدها ووصلها حتى لو كان مطلا وتسويفا ، لانه يعلم ان هذه الحرية هي جزء من حريته التي يعبر بها عن فكره واحساسه .

وان مطالبته بهذه الحرية هي محاولة افهام الناس بأن الحرية حق من حقوقهم وان الدعوة الى هذه المطالبة كان يعني رفضا لقيم الناس الذين كانوا يؤمنون باحترام السلطان السياسي ، والوقوف في دائرة الخضوع ، أو الانقياد الى دواعي الخوف .. وقد سجل الشاعر في هذه المطالبة موقفا بطوليا محترما ، في اطار الزمان والمكان ، وفي اطار الاحداث التي كانت تحيط به .. لانه تجاوز المرحلة وجرد السلطان من هيبة فرضت على الاخرين بابتداع صيغ واسماء ، واختلاق صفات والقاب ، واقتحم الساحة باحساس واع ، ومزق ستار التعامل الذى ادخل الجماهير في بؤرة خوف لا مفر منه ..

آيـــا حريـة الصحف ارحمينـا فانّـا لم نـزل لـك عاشـقينا
متـى تصلين كيسـا تطلقينـا عدينـا فـي وصـالك وامطلينا
فانـا منك نقنع بالوعـود

فانت الروح تشـفين الجروحا يحـرّج فقـدك البلـد الفسيحا
وليس لبلـدة لـم تحوروحـا وان حوت القصور أو الصروحا
حيـاة تسـتفاد لمستفيد

فالرصافي نموذج لا اريد ان اعرض لافكاره التي طرحها أو مواقفه التي اتخذها أو جرأته النادرة التي اتصف بها من بين معاصريه ولابد ان تأخذ هذه الجوانب مجالها في بحث هذا الشاعر لتكون نماذج تحتذى ، واشكالاً يقتدى بها ، وان الوقوف عند الطرف البعيد من مسألة دراسته لا يمكن اعتبارها الا محاولة بترٍ لمعطيات قدمها هذا الرجل ، واجهازا على افكاره الناضجة التي حاول أن يبثها في صفوف الجماهير التي آمن بها ومن اجل اسعاد الامة التي ارتبط بها باكثر من وشيجة ..

فالرصافي ادرك موقعه الانساني من خلال العمل السياسـي وادرك مهمته القومية من خلال الصراع المرير الذى عاشته الامة وهي تنوء تحت اعباء ظلم متفاقم ، وطغيان حكم جائر ، واساليب قمـع قسريـة ، وادرك المهمة الحقيقية التي يجب ان يتحلى بهـا وهو يتحسس المساوىء ، ويقاسي المرارة ويعاني الصراع النفسي الذى كان يحيط به ، او تتحكم في وجوده انسانا منتميا ، لا يملك من وسائل الدفاع الا الكلمة الهادفة ، والصـوت المخلص ، والقصيدة الذائعة ، والفكر الحر الذى حمل لواءه ، وقد استطاع ان يؤدي امانته بشكل واع ، وينشر رسالته بوفاء نادر . فأكد مفاهيـم الحرية كما يجب ان تكون ومزق استار العبودية كما يريد الشعب ان تمزق ومهد الطريق امام اذلال السلطان .




# فهرست الكتاب

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١٧٦٨ لسنة ١٩٧٩

دار الحرية للطباعة بغداد ١٤٠٠ هـ ١٩٧٩ م






رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
« ١٧٦٨ لسنة ١٩٧٩ »

السعر ديناران

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

١٤٠٠ هـ ـ ١٩٧٩ م